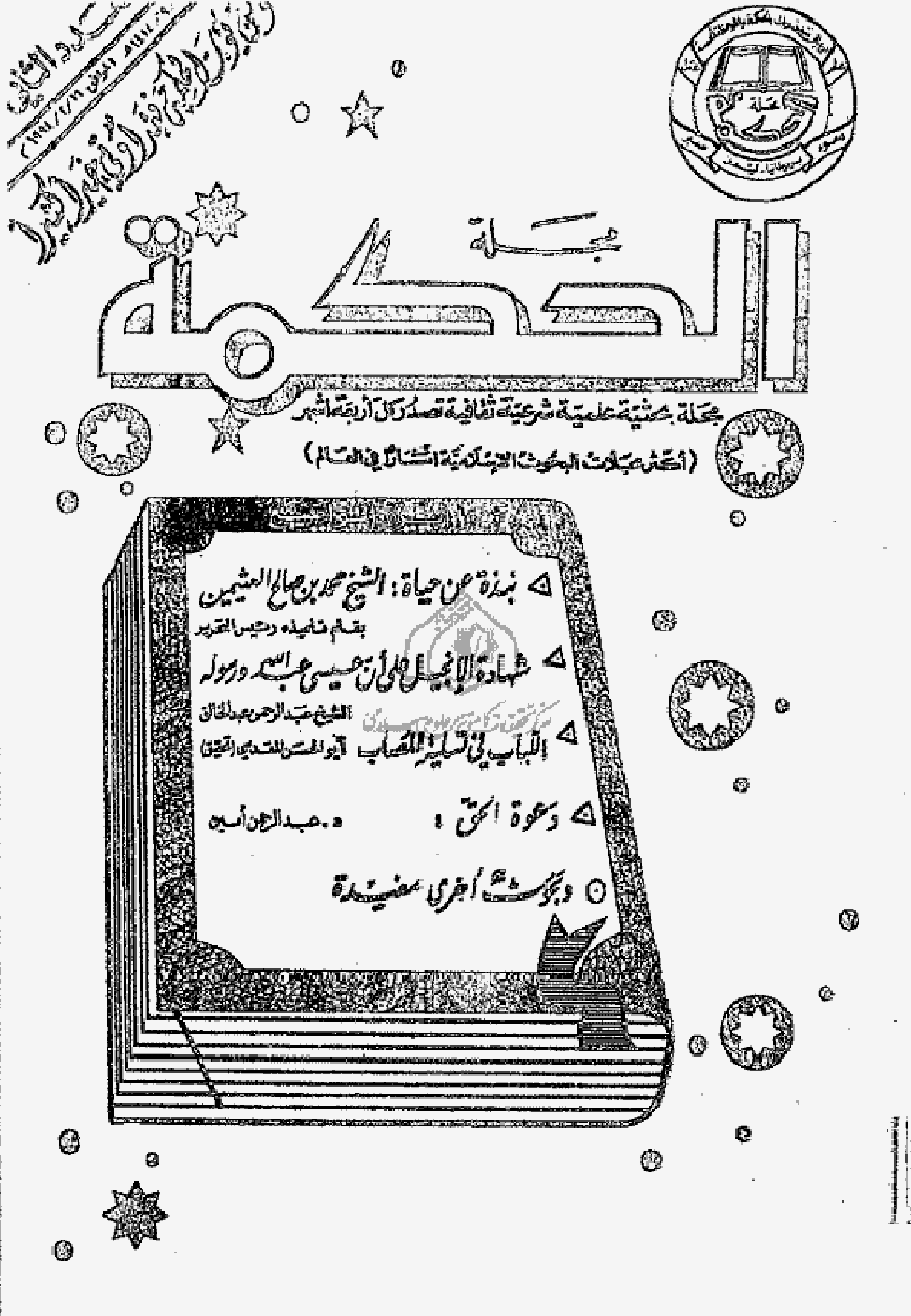

العدد الثاني
مجلة
الحكمة
مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية تصدر كل أربعة أشهر
(أكثر مجلات البحوث الإسلامية انتشاراً في العالم)
نبذة عن حياة: الشيخ محمد بن صالح العثيمين
بقلم تلميذه رئيس التحرير
شهادة الإنجيل على أن عيسى عبد الله ورسوله
الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق
اللباب في تسلية المصاب
أبو الحسن المقدسي (تحقيق)
دعوة الحق:
د. عبد الرحمن أمين
وبحوث أخرى مفيدة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة

مجلة علمية شرعية تصدر كل أربعة أشهر
تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية
وتحقيق المخطوطات

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ

الحكمة

مجلة علمية شرعية تصدر كل أربعة أشهر

تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق المخطوطات

بإشراف

نخبة من العلماء من بعض الدول الإسلامية

رئيس التحرير: الأستاذ وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيري

مدير التحرير: المهندس أبو بكر بن عبد العزيز البغدادي

أسعار المجلة

السعودية	٢٠	ريال سعودي	الكويت	١,٧٥٠	دينار كويتي
الإمارات	٢٠	درهم إماراتي	الأردن	٢,٥٠٠	دينار أردني
هولندا	١٢,٥٠	جلدر	بريطانيا	٤	جنيه أسترليني
فرنسا	٧٠	فرنك			

الهيئة الاستشارية لمجلة الحكمة

١- الشيخ الدكتور عمر بن سليمان الأشقر

الأستاذ المشارك بالجامعة الأردنية - كلية الشريعة

٢- الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق

رئيس لجنة البحث العلمي بجمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية

٣- الشيخ عبد الله بن يوسف الجديع

باحث متفرغ للعلوم الشرعية في بريطانيا

٤- الشيخ الدكتور سعد بن عبد الله الحميد

أستاذ في جامعة الملك سعود - كلية التربية - قسم الدراسات الإسلامية في الرياض

٥- الشيخ الدكتور محمد بن صالح البراك

أستاذ في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

٦- الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد [illegible]

أستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

الموزعون المعتمدون للمجلة

١ ـ السعودية ـ الرياض ـ المؤتمن للتوزيع
ص.ب: ٦٩٧٨٦ ـ الرياض ١١٥٥٧ ـ ت: ٤٦٤٦٦٨٨

---

٢ ـ الإمارات العربية المتحدة ـ عجمان ـ مكتبة الأقصى
ص.ب: ٤٤٦، ت: ٤٢١٩٨٧

---

٣ ـ الكويت ـ الجهراء ـ مجمع كاظمة التجاري ـ دار إيلاف للنشر والتوزيع
ص.ب: ١٥٠١٣ ـ الرمز ٠١٠٢١٧ ـ ت: ٤٥٥٧٥٥٩ ـ فاكس: ٤٥٥٧٥٥٨

---

٤ ـ هولندا
AL-OSRA
Choice of the Distinguished Family
Stichting Alwakf Alislami
P.O.Box 2082
5600. CB Eindhoven
NETHERLAND
TEL: 0031. 402461404
FAX: 0031. 402467297

---

٥ ـ بريطانيا ـ ليدز
P.O. BOX: HP 70 TEL: 741829
LEEDS
LS 6 IXN U.K

---

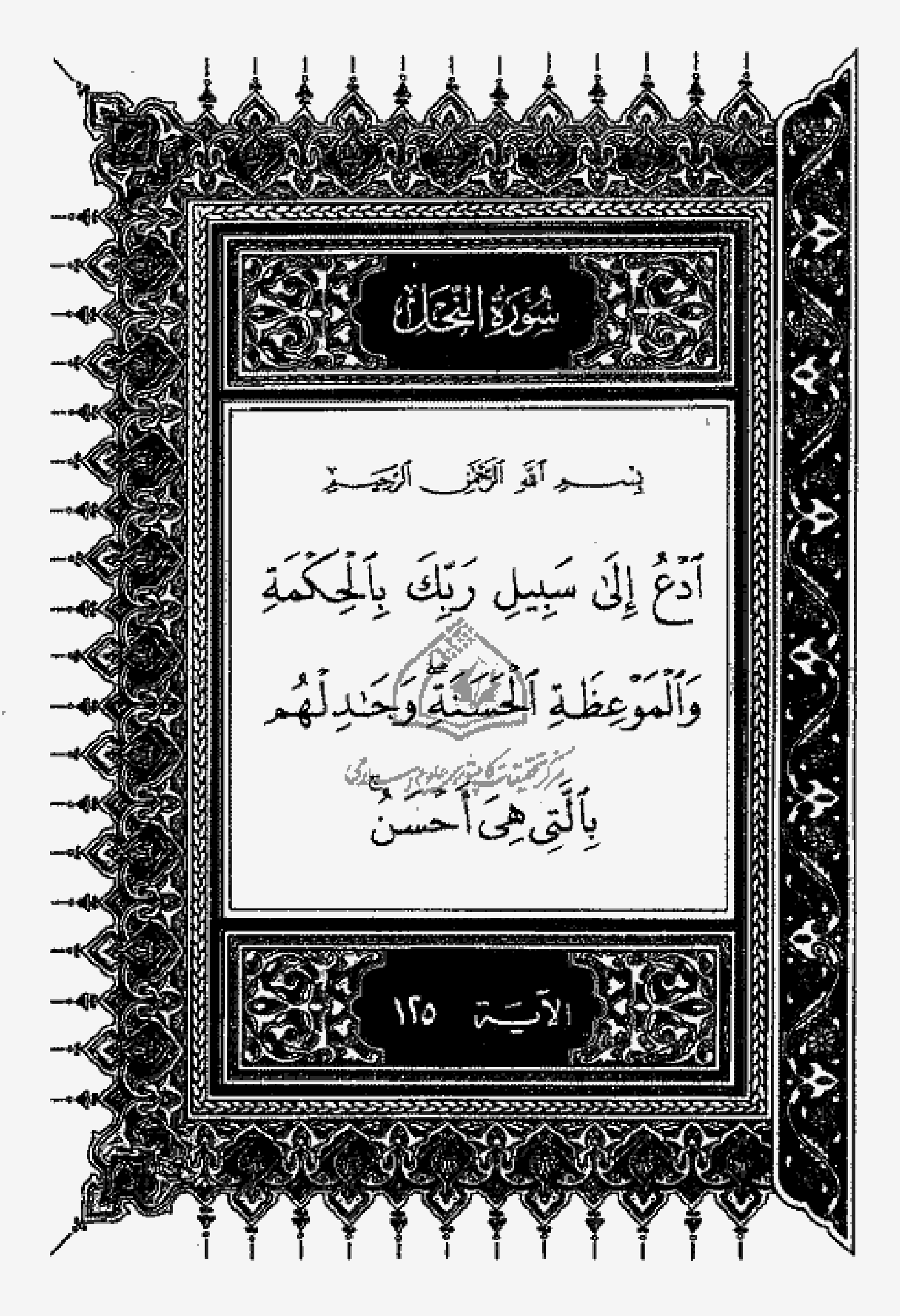
٦ ـ فرنسا ـ معهد الدراسات الإسلامية باريس
INSTITUT dETUDES ISLAMIQUES de PARIS
établissement libre d'enseignement supérieur
22, rue Francois bonvin 75015 Paris - FRANCE
Tél: et fax 01 43 06 14 46

---

٧ ـ الأردن ـ عمان: العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس ـ دار النفائس
ص.ب: ٢١١٥١١ عمان ١١١٢١، ت: ٦٩٣٩٤٠

---

٨ ـ لبنان ـ بيروت: كورنيش المزرعة ـ دار ابن حزم
ص.ب: ١٤/٦٣٦٦، ت، فاكس: ٧٠١٩٧٤


سورة النحل
بسم الله الرحمن الرحيم
ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
الآية ١٢٥

منهج المجلة وأهدافها

١- تبصير المسلمين بدينهم الحق ، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة ، وفهمها على أصول أهل السنة والجماعة من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين .

٢- نشر المقالات والبحوث الشرعية التي من شأنها إنضاج فهم المنهج الشرعي وحسر الخلاف والفرقة المذمومة بين الأمة الإسلامية وصولاً إلى الائتلاف والأخوة المحمودة .

٣- تحذير المسلمين من الانحرافات الشركية والبدعية ، وتحذيرهم من المعاصي لما تورثه هذه الذنوب من المصائب والضعف والتفرق .

٤- تحرص المجلة على نشر البحوث والمقالات العلمية والشرعية والمخطوطات المحققة ، التي لم يسبق نشرها في كتاب أو مجلة .

٥- تعتذر المجلة عن نشر البحوث والمقالات التي لا تتفق مع توجه المجلة وسياستها كالبحوث والمقالات السياسية أو الحزبية أو غير ذلك .

٦- المجلة لا تمثل حزباً معيناً أو طائفة معينة ، بل هي منبر لجميع المسلمين المخلصين .

٧ـ تحرص المجلة من خلال بحوثها على تقديم حلول إسلامية عملية للمشكلات الفقهية المعاصرة ، وتسعى نحو حياة إسلامية راشدة على منهاج النبوة .

٨ـ المقالات والبحوث التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ، ولا يلزم أن تكون معبرة عن رأي القائمين عليها .

٩ـ لا يجوز لأصحاب البحوث التي تنشر في مجلة الحكمة أن يعيدوا نشرها في مؤلف أو مجلة أخرى إلا بعد مضي ستة أشهر على نشرها في مجلة الحكمة .

إلى الباحثين الأفاضل

توجه المجلة عناية الباحثين الذين يودون الاسهام في مجلتنا إلى ما يأتي:

أـ أن تكون البحوث متسمة بالعمق والأصالة بحيث يضيف كل بحث جديداً إلى المعرفة .

ب ـ أن تكون البحوث موثقة من الناحية العلمية بالمصادر والمراجع .

جـ ـ أن تكون منسقة مقسمة وفق أصول البحث العلمي .

د ـ أن تكون مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء.

هـ ـ أن تكون مكتوبة على وجه واحد من الورق .

و ـ أصول البحوث المرسلة للمجلة لا ترد لأصحابها نشرت أم لم تنشر .



في هذا العدد



شكر وتقدير

نشكر الله العلي القدير أولاً وآخراً على توفيقه لنا بإخراج هذه المجلة العلمية المباركة من مجلتنا، فهو -عز وجل- أحق بالشكر والثناء وأولى بهما.

قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿... واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ [البقرة:١٧٢].

وانطلاقاً من قوله عليه الصلاة والسلام: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) فإننا نتوجه بالشكر والامتنان لكل من أسهم في إحياء هذه المجلة سواء بنفسه، وما يبذله من جهد، أم بماله أم بعلمه، كما نتقدم بالشكر للهيئة الاستشارية للمجلة، التي بذلت جهدها تطوعاً بمراجعة بحوث المجلة، كما نتوجه بالشكر لفضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز والذي وجه للمجلة خطاب شكر

وثناء مرفقاً ببحثين لفضيلته للمشاركة في المجلة، كما نشكر فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين وما بذله من جهد في مراجعة العدد الأول للمجلة.

كما نتقدم بالشكر لإخواننا الذين أسهموا منهم تطوعاً في نشر المجلة وأخص بالذكر إخواننا في بريطانيا وأمريكا وكندا وبلجيكا وباقي الدول الأوربية، حيث بفضل الله ثم بفضل جهدهم المتواصل اكتسبت المجلة شهرة وانتشاراً، كما نتوجه بالشكر لكل من شارك مشاركة علمية في هذه المجلة.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يسدد خطانا ويوفقنا في إصابة الحق في كل ما ينشر في هذه المجلة، ويغفر لنا ضعفنا، وتقصيرنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مدير التحرير	رئيس التحرير
أبوبكر بن عبدالعزيز البغدادي	أبوعبدالله الزبيري

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

رئاسة إدارة البحوث العلمية والافتاء

الامانة العامة لهيئة كبار العلماء

مجلة البحوث الاسلامية

الرقم ٢/١/١٠٠٩ م

التاريخ ١٤١٤/٨/٦ هـ

المرفقات بحثين

الموضوع ....

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الى الأخ المكرم وليد بن أحمد الحسين الزبيري وفقه الله

رئيس تحرير مجلة الحكمة - ببريطانيا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،وبعد:

فقد وصلني كتابكم في ١٤١٤/٧/٢٦هـ وصلكم الله بهداه وأشكركم على دعوتنا الى المشاركة في مجلتكم "الحكمة" بتزويد بحوث ومقالات تتعلق بالعقيدة الاسلامية ، وتحقيقا لرغبتكم واسهاما مني في نشر العقيدة الاسلامية أبعث لكم الكلمتين التاليتين بعنوان :

١- حقيقة التوحيد والشرك .

٢- الشريعة الاسلامية ، محاسنها وضرورة البشر اليها .

وكلاهما في العقيدة وذلك لنشرهما في مجلتكم القيمة "الحكمة" ـ نفعني الله واياكم والمسلمين بما علمنا و وفقنا جميعا لمايحبه ويرضاه إنه خير مسئول .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،،،،

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء

وإدارة البحوث العلمية والافتاء

ن/ح

بسم الله الرحمن الرحيم

اطلعت على العدد الأول الصادر في ١/٥/١٤١٤هـ من المجلة (مجلة الحكمة) فألفيته حافلاً بالفوائد القيمة ضمن الرسائل التي تضمنتها هذه المجلة.

فأسأل الله تعالى أن يجعله باكورة خير تسير على منواله هذه المجلة في أعدادها القادمة.

قال ذلك كاتبه محمد الصالح العثيمين في ١٢/٦/١٤١٤هـ

محمد العثيمين

هذه تزكية الشيخ محمد بن صالح العثيمين للمجلة.

افتتاحية العدد

البحث عن الحقيقة في رحاب الإسلام

سمة البحث العلمي السويّ أن يقصد إلى معرفة الحقيقة والكشف عنها، وكثير من الباحثين الذين يزعمون أنهم يسعون إلى هذه الغاية لا يستطيعون تحقيق مرادهم، وبعضهم ينحرف بهم المسار، لأن الحقيقة في بعض الأحيان أعظم أن تتجلى بجهد فرد، بل أعظم من أن تتجلى بجهود البشر مهما تضافرت وتعاونت.

والدارس لتاريخ العلوم ومساراتها يدرك العناء الكبير الذي يلازم الباحثين عن الحقيقة فالعلماء الباحثون عن السماء ونجومها وأقمارها وكواكبها، والأرض سهولها وجبالها، وحيوانها ونباتها وجمادها يتعرفون على الحقائق بجهد مُضْنٍ، فالاحقون يتعلمون علم السابقين، ويضيفون بعض المعرفة الى علم الأولين، وقد يكتشفون أن علم السابقين فيه خلل يحتاج الى تعديل وتصويب، وقد يكون في العلم الجديد خلل يصوبه من بعدهم، ومهما بذل العلماء من جهود وكشفوا من علوم فإن عالم المجهول الذي يحتاج إلى كشف ومعرفة يبقى واسعاً مترامي الأطراف، ومثل الباحث عن العلم مثل عصفور يحلق في أجواز الفضاء.

ترى كم تبلغ المساحة التي يستطيع هذا العصفور أن يصل إليها من هذا الكون الواسع الشاسع الذي لا يقدر قدره إلا الله.

وصدق الله إذ يقول: ﴿وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾.

إن الباحثين اليوم أخذهم الغرور، وفرحوا بالعلم الذي حصلوه، وظنوا أنهم أدركوا الغاية، ولكنهم يكشفون في كل مرة أنهم لا يزالون يبحرون في سفينهم الصغير على بعد أمتار قليلة من ساحل البحر اللجي المحيط.

وهناك مجال آخر حاول الباحثون أن يصلوا فيه إلى قرار، ولكن أبحاثهم في هذا المجال أصبحت هي في ذاتها متاهة، تحير السالكين والباحثين.

لقد اراد أقوام على مدار التاريخ الإنساني أن يتعرفوا بنظر عقلي مجرد إلى خالق الكون وصفاته وأسمائه وافعاله، وإلى العوالم غير المنظورة كعالم الملائكة، وعالم الجن، والعالم الآتي بعد هذه الحياة، فكانت أبحاثهم ودراساتهم ظلمات بعضها فوق بعض، لم يقرَّ أصحابها على قرار، ولم يصلوا إلى شاطئ السلامة، وتركوا لنا مناهج وفلسفات اختلط فيها الحق بالباطل، بل ضاعت الحقيقة في وسط ركام هائل من التصورات والأساطير والخرافات.

لقد حاول الباحثون أن يضعوا مناهج البحث والدراسة لتجنب الباحثين العثرات في مسارهم إلى الحقيقة، ونجحوا إلى حد ما في تسديد المسار في العلوم التي تبحث في العالم المشهود، ولكن مناهج

البحث بقيت قاصرة عاجزة عن تسديد المسار في العلوم الباحثة عما وراء العالم المشهود.

لقد أنعم الله على الباحثين المسلمين الذين استقاموا على منهج المشهودة، فحصلوا على منحة علمية خالصة من الشوائب، وبذلك خلصوا من التيه الذي يلف الابحاث التي تتطلع إلى معرفة أصل الإنسان وموجده، وموجد الكون الذي يعيش فيه، وكان هذا العلم الذي وهبه إيانا ديننا فاصلاً بين الضلال والهدى، والحق والباطل.

ولم يقف العلم الإلهي عند حدّ التعريف بالحقائق الكبرى التي تعجز العقول عن التعرف إليها، بل وهبنا منحة إلهية أخرى تتمثل في علوم الشريعة التي تنظم علاقة الإنسان بربه. ونفسه وأسرته ومجتمعه، كما تنظم العلاقات في إطار المجتمع الإسلامي، وفي إطار الدولة الإسلامية، وفي الوقت نفسه تنظم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول.

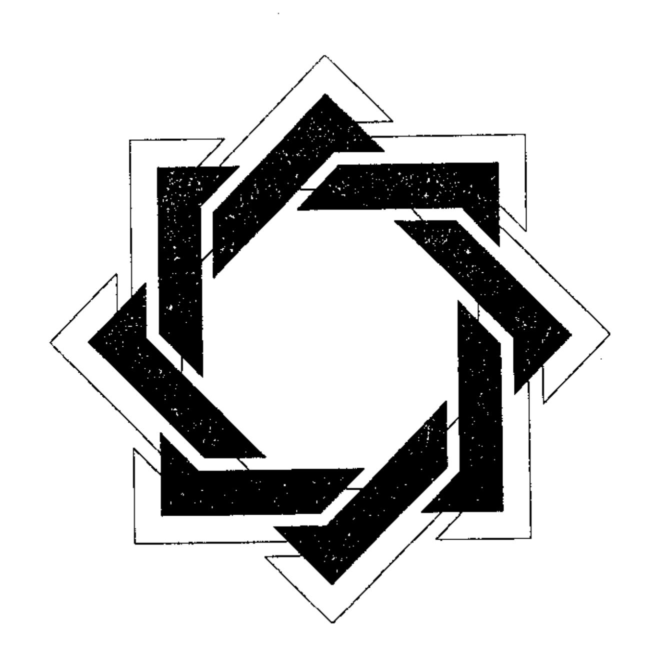
ويحتاج المسلمون اليوم، وهم يحاولون أن يستعيدوا مكانتهم من جديد، أن يلتمسوا قواعد البحث وضوابطه في مختلف العلوم، مهتدين بذلك بهدي الإسلام.

إن مناهج البحث التي ورثها المسلمون من عصر الجمود والتقليد تحتاج إلى تصفية وصياغة جديدة في ضوء تعاليم الإسلام، كما أن الدعوة إلى تبني مناهج البحث العلمي الغربية في مختلف العلوم دعوة تحمل لنا كثيراً من المشكلات.

وحل الإشكال يأتي بالعودة إلى التعاليم الأصلية من الكتاب والسنة والتراث العظيم الذي ورثناه عن الأئمة الأعلام، لإعادة تشكيل العقلية الإسلامية في الدراسة والبحث.

هذه دعوة إلى الباحثين المسلمين إلى ولوج هذا المجال، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

هيئة التحرير



نبذة عن حياة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

عضو هيئة كبار العلماء ورئيس قسم العقيدة بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية فرع القصيم، وخطيب الجامع الكبير بعنيزة

بقلم تلميذه رئيس التحرير :

وليد بن أحمد الحسين – أبو عبد الله الزبيري

اسمه ونسبه:

هو أبو عبدالله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي.

مولده ونشأته:

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام (١٣٤٧هـ)، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة؛ بل وتتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جده من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، رحمه الله؛ فقد قرأ عليه القرآن، وحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وزكاء، وهمّة عالية، وحرصاً على التحصيل العلمي بمزاحمته الركب في مجالس العلماء، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسّر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ علي الصالحي، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوّع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما (مختصر العقيدة الواسطية) للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين في الفقه) للشيخ السعدي أيضاً، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

والشيخ متزوج من امرأة واحدة، وله من الأولاد الذكور عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم. وله من الإخوة: الدكتور عبدالله، رئيس قسم التاريخ في جامعة الملك سعود في الرياض، والأمين العام لجائزة الملك فيصل، وأخوه عبد الرحمن.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض، حين فتحت المعاهد العلمية عام (١٣٧٢هـ)، فالتحق بها. يقول الشيخ حفظه الله: «دخلت المعهد العلمي من السنة الثانية، والتحقت به بمشورة من الشيخ علي الصالحي، وبعد أن استأذنت من الشيخ عبد الرحمن السعدي، رحمه الله، وكان المعهد العلمي في ذلك الوقت ينقسم إلى قسمين خاص وعام، فكنت في القسم الخاص، وكان في ذلك الوقت من شاء أن يقفز، بمعنى أنه يدرس السنة المستقبلة له في أثناء الإجازة، ثم يختبرها في أول العام الثاني، فإذا نجح انتقل إلى السنة التي بعدها، وبهذا اختصرت الزمن، ثم التحقت بكلية الشريعة في الرياض انتساباً، وتخرجت فيها».

وبعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدي، الذي توفي في عنيزة عام (١٣٧٦هـ)، عن عمر يناهز التاسعة والستين، رشّح بعض المشايخ لإمامة الجامع الكبير، إلا أنهم لم يستمروا على ذلك إلا مدة قصيرة جداً، فرشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير، وعندها تصدى للتدريس مكان شيخه، ولم يتصد للتأليف إلا عام (١٣٨٠هـ)، حين ألف أول كتاب له، وهو (فتح رب البرية بتلخيص الحموية) وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (الحموية) في العقيدة.

واستغل الشيخ وجوده في الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، حفظه الله فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية. ويقول الشيخ أبو عبدالله العثيمين: «لقد تأثرت بالشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله من جهة العناية بالحديث، وتأثرت به من جهة الأخلاق أيضاً، وبسط نفسه للناس».

وقد عُرِضَ على الشيخ تولي القضاء من قبل مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، الذي ألحّ على فضيلته بتولي القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رئيساً للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

مشايخه:

استفاد الشيخ أبو عبدالله في طلبه للعلم من عدة شيوخ، بعضهم في مدينة عنيزة، وبعضهم في الرياض عندما سكنها للدراسة النظامية، ومن الشيوخ الذين درس عليهم:

١- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى عام (١٣٧٦هـ)، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان) في ثمان مجلدات، وله مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله، وقواعده، وفي العقيدة، وغيرها من الكتب النافعة.

وتخرج على يد هذا العالم الجهبذ علماء بارزون، لهم دورهم الكبير في الساحة العلمية، وبعضهم أعضاء في هيئة كبار العلماء، منهم شيخنا أبو عبدالله العثيمين، الذي لازمه، واستفاد منه قرابة إحدى عشرة سنة، وهو من أبرز طلابه فيما يظهر؛ ولذا خلف الشيخ في إمامة الجامع الكبير، والتدريس فيه والإفتاء.

وقد قام زميلنا وأخونا الشيخ الدكتور عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد بإعداد رسالة الماجستير بعنوان (الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة)،

وضح فيها مكانة الشيخ السعدي العلمية، وجهوده وآثاره.

٢- الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، المفتي العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء. درس عليه عندما كان مواصلاً لدراسته النظامية في الرياض، فقرأ عليه من صحيح البخاري، وبعض كتب الفقه، والشيخ عبد العزيز من أبرز علماء هذه الأمة في هذا العصر.

٣- الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المتوفى عام (١٣٩٣هـ)، المفسر، اللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن). ويعد من أبرز آثاره العلمية.

وقد درس عليه شيخنا أبو عبد الله في المعهد العلمي، يقول شيخنا أبو عبدالله العثيمين عنه: «كنا طلاباً في المعهد العلمي في الرياض، وكنا جالسين في الفصل، فإذا بشيخ يدخل علينا، إذا رأيته قلت: هذا بدوي من الأعراب، ليس عنده بضاعة من علم، رث الثياب، ليس عليه آثار الهيبة، لا يهتم بمظهره، فسقط من أعيننا، فتذكرت الشيخ عبد الرحمن السعدي، وقلت في نفسي: أترك الشيخ عبد الرحمن السعدي، وأجلس أمام هذا البدوي؟ فلما ابتدأ الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية، من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء وفحل من فحولها، فاستفدنا من علمه، وسمته، وخلقه، وزهده، وورعه».

٤- الشيخ علي بن حمد الصالحي، ولا يزال على قيد الحياة، أطال الله عمره، وأحسن عمله، ورزقنا وإياه حسن الخاتمة.

٥- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، رحمه الله، فقد قرأ شيخنا عليه (مختصر العقيدة الواسطية)، للشيخ عبد الرحمن السعدي، و(منهاج السالكين) في الفقه، للشيخ السعدي أيضاً، و(الآجرومية) و(الألفية) في النحو والصرف.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان، رحمه الله، قرأ شيخنا عليه بعض كتب الفقه، كما درس عليه الفرائض (علم المواريث).

٧- الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ، رحمه الله، حيث قرأ شيخنا القرآن عليه حتى أتم حفظه، والشيخ عبد الرحمن الدامغ جد الشيخ من جهة أمه.

تلاميذه:

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ؛ لأنهم ازدحموا في مجلسه - لا سيما في السنوات الأخيرة - بما يزيد على الخمسمائة طالب في بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم.

وأذكر في بداية طلبي للعلم عند الشيخ في مطلع عام (١٤٠٢هـ) كنا ربما لا نزيد على عشرة طلاب في المجلس الواحد، ولم تكن للشيخ شهرة على ما هو عليها الآن، ولعل اكتسابه للشهرة، وتوافد طلاب العلم عليه من كل حدب وصوب، يرجع إلى عدة عوامل منها:

١- صدقه وإخلاصه في طلب العلم والتعليم، وبذل نفسه في ذلك.

٢- تصديه للدروس والمحاضرات والفتوى في الحرم المكي في شهر رمضان؛ لأن الناس - لا سيما طلاب العلم - يزدحمون في الحرم المكي في شهر رمضان، خاصة العشر الأواخر من رمضان، فيلتفون حول الشيخ.

٣- وضوحه في الأداء، سواء ما يرجع إلى اللفظ أو ما يرجع إلى المعنى، فكان غاية في الوضوح، مع قوة الأسلوب، وجزالة العبارة، التي يفهمها عامة الناس، فضلاً عن طلاب العلم.

٤- سلامة المنهج في العقيدة. وهذه صفة في جميع علماء نجد، والحمد لله، فلم يعرف

عن واحد منهم - فيما أعلم - خروجه عن عقيدة السلف؛ لأنهم حديثو عهد بإمامهم شيخ الإسلام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

٥- عدم تعصبه وجموده لمذهب معين في جميع مسائل الأحكام. بل كان متجرداً للحق، حيثما ثبت الدليل يمم وجهه إليه، حتى لو كان ظاهره مخالفاً لصريح المذهب الحنبلي الشائع في هذه البلاد، فلا يضره ذلك.

٦- تقليده بعض المناصب المهمة، مثل عضويته في هيئة كبار العلماء، ورئاسته لقسم العقيدة في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم، ورئاسته لجماعة تحفيظ القرآن الكريم في مدينة عنيزة، ومشاركته في برنامج «نور على الدرب» الذي يذاع في المذياع، واتصالاته الواسعة بكبار المسؤولين من أجل المصلحة العامة، ومشاركاته في مناسبات كثيرة في أنحاء المملكة.

٧- استجابته لكثير من الدعوات الموجهة إليه لإلقاء المحاضرات من كثير من مدن المملكة، لا سيما المدن الكبيرة التي يتردد إليها، كالرياض، وجدة، والمدينة المنورة، والمنطقة الشرقية، وبعض مدن القصيم. ولا تقتصر على المساجد، بل كان يلقي محاضراته حتى في المجمعات العسكرية.

٨- كثرة الأشرطة العلمية التي سجلت له، والتي وصلت إلى دول أوربا وأمريكا وغيرها من دول الغرب، فاستفاد منها كثير من المغتربين من الجالية العربية المسلمة، ومتابعتهم لأشرطته بانتظام، التي تمثل شروحاته لكثير من الكتب العلمية التي تخص طلاب العلم، والتي شرحها شرحاً كاملاً بهذه الأشرطة مثل كتاب (التدمرية) و(فتح رب البرية) و(العقيدة الواسطية)، كلها لشيخ الإسلام ابن تيمية، و(كتاب التوحيد) للشيخ محمد بن عبد الوهاب، و(العقيدة السفارينية)، وهي منظومة للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، المعروفة بـ (الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية)، وفي شرحه لكتب الأحكام مثل (بلوغ المرام) للحافظ ابن حجر، إلا أنه لم يكمل شرحه، و(زاد المستقنع) في فقه الإمام أحمد،

وغيرها من الكتب الكثيرة التي سجلت بالأشرطة، وانتشرت في أقطار الدنيا، يستفيد منها طلاب العلم.

٩- كثرة مؤلفاته، التي أكثرها صغيرة الحجم، غزيرة الفائدة، واضحة العبارة، ليس فيها غموض أو تعقيد، يفهمها العامة فضلاً عن طلبة العلم. وكان الإقبال عليها شديداً، وترجم بعضها إلى عدة لغات، لا سيما الإنكليزية، وانتشرت في أكثر بقاع الأرض. وقد قمت بنفسي في السعي بترجمة كتابين من كتبه في العقيدة باللغة البنغالية، ووزعت مجاناً على نفقة بعض المحسنين.

فهذه بعض العوامل التي أدت إلى شهرة الشيخ، والتي كان من أبرز نتائجها توافد طلاب العلم عليه من داخل المملكة وخارجها من جنسيات شتى.

وسأذكر بعض تلاميذ الشيخ الملازمين له سنوات طويلة، والمستفيدين منه، والحريصين على مجالسه، والمتابعين للعلم، الحريصين على التحصيل :

فمنهم: الشيخ عبد الرحمن بن صالح الدهش، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الإسماعيل، والشيخ غانم بن مرزوق الحربي، والشيخ عبد الرحمن بن عبدالله الإبراهيم، والشيخ محمد بن سليمان السلمان، وهو الذي ينوب عن الشيخ في خطبة الجمعة والعيدين، والشيخ الدكتور محمد بن صالح البراك، المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والشيخ أحمد بن محمد العبيد، والشيخ الداعية إبراهيم بن محمد الدبيان، والشيخ الدكتور خالد بن علي المشيقح، والشيخ سامي بن محمد الصقير، والشيخ خالد بن عبدالله المصلح، وهما متزوجان من ابنتي الشيخ، والشيخ الدكتور سليمان أبا الخيل، والشيخ الأمير عبدالرحمن ابن سعود آل سعود الكبير.

والشيخ خالد بن سليمان المزيني، والشيخ أحمد بن عبد الرحمن القاضي، مدير المعهد العلمي في مدينة عنيزة، والشيخ علي بن عبدالله السلطان، والشيخ خالد المطرفي، والشيخ عبدالله بن حمد السليم، والشيخ بندر العبدلي، والشيخ يحيى بن عبد العزيز اليحيى،

والشيخ عبدالله بن عبد العزيز الصائغ، والشيخ أحمد المشرف، والشيخ عادل بن عبد الشكور الزرقي، والشيخ عبدالله بن حمد الزيداني، والشيخ الدكتور يوسف بن عبدالله الزامل، عميد كلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك سعود، فرع القصيم سابقاً، والشيخ عبدالله بن صالح الحمود، والشيخ رشيد بن عبدالرحمن الحربي، والشيخ صالح الحجاج.

ومن الكويت: الشيخ حمد العثمان، والشيخ عثمان الخميس، والشيخ سالم بن سعد الطويل، والشيخ ماهر بن فهد الساير.

ومن دولة البحرين: الشيخ خالد بن سالم، والشيخ عبد الوهاب الزياني.

ومن سوريا: الشيخ مصطفى بن محمد بن كامل حورية.

ومن مصر: الشيخ الدكتور – طبيب – رشاد بن زارع.

ومن اليمن: محمد بن أحمد الواصل، والشيخ عمار بن ناشر، والشيخ يحيى بن صالح الراعي، والشيخ زيد بن ثابت، والشيخ طارق بن عبد الواسع.

ومن باكستان: الشيخ محبوب بن أحمد بن محمد علي.

فهؤلاء نخبة من طلابه البارزين.

وهناك طلاب بمنزلتهم، أو قريبين منهم، أو دونهم، أعرضت عن ذكرهم خشية الإطالة. وهناك طلاب درسوا على الشيخ، إلا أنهم لم يطيلوا المكث عنده، فمنهم الشيخ الداعية سلمان بن فهد العودة، أبو معاذ، والشيخ عبدالله السعد، والشيخ فهد السنيد، وغيرهم كثير جداً.

ومنهم من يتردد إلى الشيخ أوقات العطل الدراسية، فيستفيد منه، حيث الدروس المكثفة الصباحية والمسائية.

زهده وورعه:

الزهد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، هو: " الزهد عما لا ينفع، إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحا؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة، فالزهد فيها حمق» [1]

أما الورع فقال شيخ الإسلام:((هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات؛ لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات، فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يحوم حول الحمى يوشك أن يواقعه)). [2]

والفرق بين الزهد والورع، كما قال ابن القيم في الفوائد[3]: ((إن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما يخشى ضرره في الآخرة، والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع. فالزهد والورع صفتان نبيلتان رئيستان، اتصف بهما الأنبياء، والتزم بهما العلماء، الذين جعلوا من منهج الأنبياء صورة حية يعيشونها ويطبقونها في واقع حياتهم، يزهدون فيما عند الناس من أمور الدنيا؛ فينالون محبة الناس، ولا يرغبون إلا فيما عند ا لله، يتورعون عن كل ما يجلب لهم الشبهة، ويلصق بهم التهمة)).

وما شيخنا أبو عبدالله إلا صورة من هؤلاء العلماء، حيث التزم الزهد والورع من جميع جوانبه، فقد عرضت عليه المناصب، كتولي القضاء، حيث أصدر مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، قراراً يقضي بتعيين الشيخ رئيساً لمحكمة الأحساء، وبعد مراجعات واتصالات ووساطات أعفي من القضاء.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٦١٥/١٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٦١٥/١٠.

(٣) الفوائد، لابن القيم: ١١٨.

ولو أراد الشيخ لجمع بمنصبه وشهرته ومكانته عند الأسرة الحاكمة في هذه البلاد الأموال الكثيرة، ولكن زهده وورعه يمنعانه من ذلك، ولم يكن الشيخ، حفظه الله، يتردد على أبواب الأسرة الحاكمة طمعاً وحباً فيما عندهم من المال أو المنصب، أو مصلحة لنفسه، وإنما تردده عليهم، مع قلته، لمصلحة عامة يراها الشيخ، حفظه الله، في حضوره. وما كان يتردد عليهم إلا بدعوة منهم.

وهناك مواقف كثيرة رأيناها وسمعناها أو خفيت علينا تثبت حقيقة الزهد والورع الذي كان يتصف به الشيخ، فكان متصفاً بالزهد بجميع أقسامه التي أشار إليها ابن القيم في الفوائد[1]، بقوله:

((الزهد أقسام :

١- زهد في الحرام، وهو فرض عين.

٢- زهد في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت، التحق بالواجب، وإن ضعفت، كان مستحباً.

٣- زهد في الفضول، وهو الزهد فيما لا يعني من الكلام والنظر، والسؤال واللقاء وغيره، وزهد في الناس، وزهد في النفس، بحيث تهون عليه نفسه في الله.

٤- زهد جامع لذلك كله، وهو الزهد فيما سوى الله، وفي كل ما يشغلك عنه، وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ)).أ.هـ.

فلو تأملت هذه الصفات في هذه الأقسام كلها لوجدتها مجتمعة في ذات الشيخ، لا تنفك عنه في جميع حركاته وسكناته. زهد لا كزهد الرهبنة والتصوف، وإنما زهد معتدل

---

(١) الفوائد، لابن القيم: ١١٨.

على منهاج النبوة، زهد كزهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

دقته في الأمور وتثبته فيها:

إن دقة الشيخ وتثبته في الأمور نابع من الورع وإبراء الذمة في التوصل إلى موافقة الحق.

وربما فهم المقابل أن ذلك تعقيد للأمور وتضييق على المسلمين الذين يترددون إليه؛ لقضاء حوائجهم. ولا شك أن نظرتهم، إما أن تكون نابعة عن قصور في العلم؛ بسبب جهلهم بالحكم الشرعي، والحال الذي يتنز ل عليها ذلك الحكم، وإما أن تكون نظرتهم نابعة عن سوء في الفهم؛ بسبب عجزهم عن تصور تلك المسألة أو القضية المعينة. فإذا كان الواجب على المسلم إحسان الظن بعامة المسلمين فكيف بعلمائها، لا شك أن ذلك آكد وأوجب.

وهذه طبيعة وسجية عند الشيخ، حفظه الله، ألا وهي الدقة والتثبت في الأمور يتعامل بها مع أخص المقربين إليه، كأن يتقدم إليه أحد طلابه المقربين إليه، أو أي شخص مقرب إليه من غير طلابه، ممن يثق بهم حين يطلبون منه قضاء دين عليهم مثلاً، فإنه لا يكتفي بمعرفته الخاصة بهم، فربما طلب منهم الدلائل والبينات من الوثائق الأصلية، التي تثبت حلول ذلك الدَين، وعدم مقدرتهم على قضائه، فإذا اقتنع الشيخ أنهم مستحقون، فالغالب أنه لا يقضي عنهم جميع ديونهم، بل يساهم بسداد بعض الدين، بل بالنسبة القليلة منه، وربما قضى ربع الدين أو ثلثه إذا اقتضى الأمر ذلك.

فإذا كان على الشخص خمسون ألف ريال، فإنه ربما قضى عنه خمسة آلاف ريال، أو أكثر قليلاً؛ لأن الشيخ يحب أن ينتفع بهذا المال أكبر عدد من المحتاجين المستحقين من المسلمين. ولا شك أن هذا التصرف من الشيخ نابع عن حكمة وخبرة في هذا المجال؛ لأن المدين، إذا رأى أن دينه الكثير يقضى من جهة واحدة، ربما عاود الكرة مرة أخرى، وربما تقصد المعاودة إلى دين آخر. أما إذا كان طلبه لقضاء دينه يتطلب أن يطرق جهات

عديدة، فربما أغلق في وجهه أبواب، وكل إنسان يحب أن يحفظ ماء وجهه بتعففه عـ
السؤال، وبهذا لا يمكن أن يعاود الكرة في تحمل دين عليه.

وهناك مواقف كثيرة تسجل للشيخ تدل على دقته في الأمور وتثبته فيها، نستفيد منه عبراً وعظات في حياتنا، ومعاملتنا مع عباد الله.

ويستعمل الشيخ أسلوب الدقة والتثبت حتى في المسائل العلمية الشرعية، عندما يأتـ الطالب بمعلومة، سواء في تصحيح حديث، أو تضعيفه، أو نقل قول عالم من العلمـ المتأخرين، أو المعاصرين، أو غير ذلك من مسائل العلم، فإنه يكلف الطالب بمراجعته والتثبت منها، ولا شك أن هذا الأسلوب أحكم وأسلم.

وكثيراً ما يوصي طلابه ويؤكد عليهم منهج التثبت في الأمور، وعدم العجلة فيهـ وإبراء ذممهم في كل قضية لها تعلق بحكم شرعي، ولها أبعادها الشرعية.

منهجه العلمي :

لقد أوضح الشيخ حفظه الله منهجه، وصرح به مرات عديدة، أنه يسير على الطريقـ التي انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي، يقول شيخنا أبو عبدالله «لقد تأثرت كثيراً بشيخي عبد الرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلـ وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

والمنهج الذي سلكه الشيخ عبد الرحمن السعدي هو منهج خرج به عن المنهج الذ يسير عليه علماء الجزيرة – علماء نجد – عامتهم أو غالبيتهم، حيث اعتماد المذهـ الحنبلي في الفروع من مسائل الأحكام الفقهية، والاعتماد على كتاب (زاد المستقنع) ف فقه الإمام أحمد بن حنبل، فكان الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي معروف بخروجه عـ المذهب الحنبلي، وعدم التقيّد به في مسائل كثيرة، حتى أخبرني أحد علماء مدينة بريدة - التي تبعد عن مدينة الشيخ عنيزة حوالي خمسة وعشرين كيلو متراً – أن علماء بريدة

رحمهم الله، في عهد الشيخ السعدي كانوا ينقمون على الشيخ السعدي بسبب خروجه عن المذهب الحنبلي[1]، حتى رفعوا عليه دعوى إلى الملك عبد العزيز آل سعود يشكونه إليه، حتى إن الشيخ السعدي، إذا أراد أن يجتمع مع محبيه ومناصريه من أهل بريدة لا يجتمع معهم في داخل مدينة بريدة، بل كانوا يخرجون إليه ويجتمعون به في أطراف المدينة، هكذا أخبرني شيخي أبو عبدالله العثيمين.

ومنهج الشيخ السعدي هو أنه كثيراً ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ويرجحهما على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجرداً للحق، وقد انطبعت هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولم يكن تبني الشيخ لآراء شيخ الإسلام نابعاً عن هوى أو تقليد أعمى، بل كان متجرداً للحق أيضاً، فحيثما وجد الحق فهو ضالته ومطلبه، بل إنه خالف شيخ الإسلام في عشرات المسائل أكثر من مخالفة شيخه السعدي لشيخ الإسلام، ومخالفته لشيخ الإسلام في هذه المسائل لا يدل على استنقاصه لشيخ الإسلام، ولا تقليلا من شأن شيخ الإسلام ومكانته العلمية، ولا يدل على أنه أعلم منه في هذه المسائل، بل ربما يكون الحق في جانب شيخ الإسلام فيما خالفه فيه، ولا زال العلماء قديماً وحديثاً يخالف بعضهم بعضاً في عشرات، أو مئات، وربما ألوف المسائل، لكن العيب في المخالفة أن تكون نابعة عن هوى أو سوء نية، أو عدم توفر الكفاءة العلمية، وعدم الدقة في فهم النصوص، واحتواء الخلاف فيها بالنسبة للمخالف، وكل هذه الصفات يتنزه عنها شيخنا حفظه الله، فهو معروف بسعة علمه، ودقة فهمه، وآثاره العلمية، من مكتوب ومسموع، شاهدة على أهليته وكفاءته.

---

(١) اما الان فان مدينة بريدة تزخر بالعلماء وطلاب العلم المتجردين للحق البعيدين عن التعصب المذهبي، لا سيما الحركة العلمية واحياء الدروس العلمية الشرعية في المساجد، والتي يحييها كثير من العلماء امثال الشيخ سلمان بن فهد العودة، والشيخ صالح الونيان والشيخ سليمان بن ناصر العلوان وغيرهم من العلماء.

وكل مسألة يخالف فيها شيخنا أبو عبدالله العثيمين من هو أعلم منه، له حظ من النظ فيها، وما كان كذلك فلا حرج في المخالفة.

قال الناظم:

وليس كل خلاف جاء معتبراً إلا خلاف له حظ من النظر

ولا بأس في أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التي خالف فيها شيخ الإسلام ابن تيمي منها:

١- يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنه واجبة.

٢- يرى شيخ الإسلام أن المتمتع في الحج يكفيه سعي العمرة عن سعي الحج، ويرى شيخنا أن سعي العمرة لا يكفي عن سعي الحج.

٣- يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جوا سفر المرأة بلا محرم مطلقاً.

٤- يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحري لعموم حديث: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب).

٥- يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة في قضاء دين الميت الذي لم يخلف وفا ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦- يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذللاً لله تعالى - ذكرها ؤ الاختيارات - ويرى شيخنا ضعف هذا القول؛ لأن الأصل في العبادات المنع والحظر حتى يقوم دليل على المشروعية.

٧- يرى شيخ الإسلام أن للأم الثلث مع الإخوة المحجوبين بالأب، ويرى شيخنا أ

للأم السدس؛ أي إن الاخوة، وإن كانوا محجوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأم يظل باقياً، فيحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨- يرى شيخ الإسلام جواز الزيادة بين الربويين من جنس واحد في مقابلة الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لا بد فيه من التساوي وزنا بوزن، سواء بسواء، يداً بيد.

٩- يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه في الصلاة الجهرية، وهو المذهب، ويرى شيخنا وجوب قراء الفاتحة على المأموم في الجهرية.

طبيعة الدرس عند الشيخ:

إن طبيعة الدرس التي التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجاً له منذ توليه التدريس في الجامع الكبير خلفاً لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن في نمط معين، يختلف عن الأساليب التي ينتهجها عامة العلماء في هذه البلاد، ومن خلال مجالستي لبعض علماء البلاد كالشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ الحافظ عبدالله الدويش، رحمه الله، وغيرهما من الشيوخ تبين لي أن طريقة الشيخ أكثر نفعاً. هذا على وجه العموم؛ ذلك أن الشيخ يركز كثيراً على حفظ المتون، ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ في كل درس، بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ. وقد حفظنا على الشيخ كثيراً من المتون المنثورة والمنظومة. والكتب التي حفظت وتحفظ في درس الشيخ منها:

١- القرآن الكريم - وقد وصل إلى سورة النساء في دروس التفسير.

٢- زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

٣- بلوغ المرام من أدلة الأحكام، للحافظ ابن حجر رحمه الله.

٤- كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

٥- منظومة محمد السفاريني في العقيدة.

٦- العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٧- منظومة البرهانية في علم المواريث.

٨- ألفية ابن مالك في علم النحو - ألف بيت- .

٩- الآجرومية في علم النحو، النظم والنثر، كلاهما فرغ من حفظهما.

١٠- نزهة النظر - في علم مصطلح الحديث - للحافظ ابن حجر.

١١- منظومة البيقونية في علم مصطلح الحديث.

والمتون المطولة لا تجد طالباً قد أمر بحفظها كلها، كـ (بلوغ المرام)، و((زاد المستقنع)؛ لأن الزمن الذي يتطلب إنهاء مثل هذا الكتاب قد يصل إلى عشرين سنة، مثل (بلوغ المرام)، فقد حسبنا الزمن الذي يستغرقه كتاب (بلوغ المرام)، فوجدناه لا يقل عن ثماني عشرة سنة، و((زاد المستقنع) أكثر من ذلك.

وأذكر في بداية قدومي للدراسة عند الشيخ عام (١٤٠٢هـ) كان أول يوم جلست عنده في الدرس ابتدأ فيه بأول آية من سورة البقرة، والآن وصل في تفسيره إلى الجزء الخامس من سورة النساء، الآية الستون، فعلى هذا يستغرق تفسير القرآن الكريم أكثر من ستين سنة، ولا شك أنها مدة طويلة جداً، لا يستطيع أي طالب ملازمة الشيخ هذه المدة. والسبب في ذلك يرجع إلى عدة أمور، منها:

١- أن الشيخ، حفظه الله، يطيل الشرح في تفسيره، فيتعرض إلى الجانب اللغوي، والنحوي، والفقهي، والعقدي، وغيرها من الجوانب المتعلقة بالآية، وما تحتاج إليه من إيضاح تلك الجوانب المتعلقة بها. فربما استغرق تفسير آية واحدة درسين أو ثلاثة، يستغرق الدرس الواحد ما يقرب من الساعة.

٢- قلة الدروس، لا سيما الدروس للكتب المطولة، بما لا يزيد عن درس أو درسين في الاسبوع.

٣-كثرة تخلف الشيخ عن الدروس، لا سيما في السنوات الأخيرة. وكان في بداية طلبنا للعلم عنده قليل التخلف، ربما لا يزيد تخلفه في السنة عن أربعة عشر يوماً. أما الآن فقد يصل تخلفه عن الدرس أكثر من تسعين يوماً في السنة، ولا يتخلف الشيخ عن الدرس إلا للمصلحة العامة، والضرورة الملحة، كاجتماعه مع هيئة كبار العلماء، ودروسه في الحرم المكي في رمضان، وإلقائه بعض المحاضرات، وغير ذلك.

وتقوم طبيعة الدرس عند الشيخ بمراجعة الباب أو الفصل بعد الانتهاء منه، والمراجعة تشمل مراجعة الحفظ، والمناقشة فيه، فلا ينتقل إلى الباب أو الفصل الذي بعده حتى يكون الطالب قد أتقن الباب أو الفصل الذي قبله.

ويحرص الشيخ على زرع الهمم والحرص في نفوس طلابه، وذلك بتكليفهم في تحرير بعض المسائل، أو ما يشكل عليهم في أثناء الدرس، سواء كان الإشكال من جهة اللغة، أو النحو، أو الفقه، أو الحديث أو غير ذلك، فيقوم الطالب بتحرير تلك المسألة، وقراءتها أمام الشيخ وطلابه، ويناقش الطالب سواء من قبل الشيخ أو من قبل طلابه في ما يرد من الملاحظات، إن وجدت في بحثه، حتى يخرج البحث في أحسن صورة وأبدعها.

آثاره العلمية:

لقد صنف الشيخ، حفظه الله، آثاراً علمية في مجالات شتى، من مسموع، أو مكتوب، في العقيدة، والفقه، والحديث، والأخلاق، والسلوك، والمعاملات، وغيرها، مما كان لها الأثر الكبير في استفادة الناس منها، سواء على مستوى عامة الناس، أو طلبة العلم. وكان الإقبال عليها شديداً ومنقطع النظير، وما ذاك إلا لثقة الناس به؛ لما يلمسون في ذات الشيخ من الأهلية والكفاءة التامة التي ترشحه إلى إصدار الأحكام الشرعية، والتصدي للفتوى والتأليف.

وتمتاز مؤلفات الشيخ بالوضوح، وضوح في الألفاظ، ووضوح في المعاني، بعيدة عن التطويل الممل، والتعقيد، والاختصار المخل. استدلالاته مدعومة بالأدلة الصحيحة والتعليلات والأقيسة الفصيحة، مع إبداع في التبويب، وحسن في التقسيم، فيما يحتاج إلى تقسيم. إلى غير ذلك من الأساليب البديعة التي يحلي بها الكتاب حتى يخرجه في أروع وأحسن لباس.

ومن آثاره العلمية:

١- فتح رب البرية بتلخيص الحموية، وهو تلخيص لكتاب الحموية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أول كتاب للشيخ كتبه عام ١٣٨٠هـ

٢- مصطلح الحديث.

٣- الأصول من علم الأصول.

٤- رسالة في الوضوء والغسل والصلاة.

٥- كفر تارك الصلاة.

٦- مجالس رمضان.

٧-الأضحية والذكاة - وقد لخصها الشيخ في كتيب صغير.

٨- المنهج لمريد العمرة والحج.

٩- تسهيل الفرائض.

١٠- لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد - تأليف موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠هـ) - قام الشيخ بالتعليق عليه.

١١- شرح العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

١٢- عقيدة أهل السنة والجماعة.

١٣- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

١٤- رسالة في الحجاب.

١٥- رسالة في الصلاة والطهارة لأهل الأعذار.

١٦- مواقيت الصلاة.

١٧- سجود السهو في الصلاة.

١٨- أقسام المداينة.

١٩- وجوب زكاة الحلي.

٢٠- تفسير آية الكرسي.

٢١- الضياء اللامع من الخطب الجوامع.

٢٢- الفتاوى النسائية.

٢٣- زاد الداعية إلى الله.

٢٤- فتاوى الحج.

٢٥- المجموع الثمين من فتاوى محمد بن صالح العثيمين (جمع وترتيب فهد بن ناصر السلمان).

٢٦- حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة.

٢٧- الخلاف بين العلماء، أسبابه وموقفنا منه.

٢٨- من مشكلات الشباب.

٢٩- رسالة في المسح على الخفين.

٣٠- أصول التفسير.

٣١- رسالة في الدماء الطبيعية للنساء.

٣٢- أسئلة مهمة.

٣٣- الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع.

٣٤- إزالة الستار عن الجواب المختار لهداية المحتار.

٣٥- رسالة في أحكام الميت وغسله.

٣٦- نيل الأرب من قواعد ابن رجب (لم يطبع).

٣٧- منظومة في أصول الفقه - نظم على بحر الرجز - (طبعت في مجلتنا ((الحكمة)) العدد الأول).

٣٨- أحكام قصر الصلاة للمسافر (لم تطبع).

٣٩- تفسير آيات الأحكام - لم يكمل.

٤٠- شرح عمدة الأحكام - لم يكمل.

٤١- تخريج أحاديث الروض المربع - (لم يطبع).

٤٢- رسالة في أن الطلاق الثلاث واحدة ولو بكلمات (لم يطبع).

٤٣- مختارات من زاد المعاد.

٤٤- مختارات من أعلام الموقعين.

٤٥- مختارات من الطرق الحكمية.

٤٦- مجموع دروس وفتاوى الحرم المكي.

٤٧- مختارات من فتاوى الصلاة.

٤٨- الربا - صوره، أقسام الناس فيه.

٤٩- نبذة في العقيدة الإسلامية.

٥٠- مجموعة أسئلة في بيع وشراء الذهب.

٥١- حكمة إرسال الرسل.

٥٢- شرح أصول الإيمان.

٥٣- شرح زاد المستقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل - (وهو عمل كبير يقوم بتحريره وإخراج أحاديثه، والتعليق عليه كل من: الشيخ الدكتور خالد بن علي المشيقح، والشيخ الدكتور سليمان بن عبدالله ابا الخيل. وهو المسمى بـ (الشرح الممتع على زاد المستقنع) وسيصدر منه الجزء الأول - كتاب الطهارة - في خمسمائة صفحة تقريباً.

٥٤- الزواج.

٥٥- اثنان وخمسون سؤالاً عن أحكام الحيض في الصلاة والصيام والحج والاعتمار.

الشيخ قيما على مكتبة شيخه:

بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن السعدي خلف مكتبة قيمة في مسجده الجامع، تزخر بكثير من المخطوطات والكتب النفيسة، وكان يتردد إليها كثير من العلماء وطلبة العلم؛ للاستفادة منها، بل كان كثير من العلماء خارج الجزيرة يرسلون مؤلفاتهم إلى فضيلة الشيخ السعدي أمثال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، حيث رأيت نسخة من كتابه - مفتاح كنوز السنة - مرسلة إلى الشيخ السعدي.

وهذه المكتبة كانت في المسجد الجامع في مدينة عنيزة، وكان الشيخ يلقي دروسه عل
طلابه في المكتبة نفسها، ثم لما هدم المسجد لتجديد بنائه نقلت إلى عمارة بجنب المسج
قد أوقفت لطلبة العلم الذين يدرسون عند شيخنا أبي عبدالله العثيمين، أوقفها الملك خا
بن عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله، وكنت فيمن شارك في نقل هذه المكتبة، وكنا ثلاثة أ
أربعة، حملناها كلها بأيدينا، وبعدها جعلني الشيخ قيماً عليها، فحرصت على شراء الكت
التي تفتقر إليها المكتبة، فدونت الكتب التي تحتاج إليها المكتبة ورفعتها إلى الشيخ، فزو
المكتبة بها.

وكان الشيخ يتفقد المكتبة بنفسه، لكنه لا يأتي إليها من أجل أن يبحث فيها، أو يراج
العلم فيها، بل كانت بحوثه ومدارسته للعلم وكتابته له كانت كلها في بيته.

وهذه المكتبة تزخر بالمخطوطات الأصلية، لكن عامتها قريبة العهد، لا يزيد تاري
كتابتها عن مائتي سنة. وقد قلبتها كلها بنفسي، عندما كنت قيما عليها عام ١٤٠٣هـ
ولا بأس من ذكرها كلها للفائدة، وهي كالتالي:

١- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، لابن جماعة، تاريخ كتابته سن
(١٣١٨هـ).

٢- حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، (نظم) للشاطبي، تاريخ كتابته سن
(١١٩٧هـ).

٣-دليل الطالب لنيل المطالب - فيه نقص.

٤- كشف القناع عن الإقناع، لمنصور البهوتي، تاريخ كتابته سنة (١٠٩٣هـ)، بيد
عبدالله بن ناصر بن عضيب.

٥- إرشاد أولي النهى لدقائق المنتهى، لمنصور البهوتي، تاريخ كتابته سنة (١٠٩٣هـ)،
بيد عبدالله بن ناصر عضيب.

٦- الكافي، لابن قدامة المقدسي، ج٢.

٧- الفروع في فقه الإمام أحمد، لابن مفلح، ج١.

٨- الفواكه الشهية في حل المنظومة البرهانية، لمحمد بن علي بن سلوم، تاريخ كتابته سنة ١٢٧٥هـ، بيد سليمان بن عبدالعزيز بن دامغ - نسختان.

٩- الإنصاف، لعلي بن سليمان المرداوي (٩٧٥هـ)، كاتبه عمر زين الدين الشهير بابن زريق، ج ٢ - ٤، والمجلد الثاني فيه نقص في آخر الكتاب.

١٠- الإنصاف، للمرداوي، ج ٣، بخط عبدالله بن فايز أبا الخيل، تاريخ كتابته سنة (١٢٤١هـ).

١١- شرح منتهى الإرادات، لمنصور بن يونس البهوتي ج١.

١٢- هداية الراغب شرح عمدة الطالب، لعثمان بن أحمد بن قائد النجدي، إلى (ص٥٨).

١٣- الكافي، لابن قدامة المقدسي، ج ١-٢، بخط عثمان الحماد بن خويطر، تاريخ كتابته سنة (١٣١٩هـ).

١٤- صحيح البخاري، مخروم من بدايته صفحة واحدة، وينتهي إلى أبواب المكاتب.

١٥- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني.

١٦- المنح الإلهية اختصار شرح الدرر المضية في عقد الفرقة المرضية، اختصار محمد بن علي بن سلوم، تاريخ كتابته سنة (١٢٢٧هـ).

١٧- الجمع بين الصحيحين، لمحمد بن أبي نصر بن عبدالله الحميدي، تاريخ كتابته سنة (١٢٦٢هـ).

١٨- شرح عمدة الأحكام، لابن القيم الجوزية، وفيه نظم الجواهر في النواهـ والأوامر، لمحمد بن يوسف، وفيه عقيدة الشيباني السلفي الشافعي، وفيه مرثية عبد الرح بن خضر للشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية.

١٩- الروض المربع، لمنصور البهوتي، ج ٢- ١، كامل.

وكتب في آخر الكتاب (بلغ مقابلة وتصحيحاً بين سبع نسخ، نسختين من الطبـ وخمس نسخ خطية معتبرة مصححة، بعضها على نسخة بخط المؤلف، وذلك بمقابلة الفقـ إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي، سنة (١٣٤٠هـ).

٢٠- حلية الطراز في حل مسائل الألغاز، لتقي الدين الجراعي.

٢١- حاشية التنقيح، لموسى بن أحمد الحجاوي.

٢٢- دليل الطالب لنيل المطالب، لمرعي بن يوسف المقدسي، بخط محمد بن عبدا الخريجي السلفي.

٢٣- مجموعة قصائد منها: قصيدة علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي ا عنه، ومطلعها:

ليس الغريب غريب الشام واليمن.

وقصيدة إبراهيم ومطلعها :

لا تأسفن على الدنيا وما فيها...

٢٤- مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار، لعبد اللطيف المعروف بابن مالك، ج بخط عبد الله بن حمد بن عبدالله بن محمد الخريجي، سنة (١٢٠٧هـ).

٢٥- مجمع بحار الأنوار في غرايب التنزيل ولطائف الأخبار، لمحمد طاهر الهندي الشهـ بالكجراتي، بخط تاج الدين بن شيخ قطب بن صديق، ج١، يبتدئ من الهمزة إلى الراء.

٢٦- الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، لمقاتل بن سليمان، بخط عبدان بن عثمان بن محمود.

٢٧- المنتخب في الثواب، لابن الجوزي.

٢٨- كشاف القناع شرح الإقناع، لمنصور البهوتي، ج ٢، ينتهي بباب أحكام أمهات الأولاد.

٢٩- متممة الآجرومية، بخط إبراهيم بن خليل العيوني.

٣٠- المحتبر المبتكر في شرح المختصر في علمي الأصول والجدل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لتقي الدين محمد الفتوحي.

٣١- عمدة الأحكام، لابن قدامة المقدسي، مخروم من آخره، ينتهي بباب الرفق بالمملوك.

٣٢- شرح الرحبية في الفرائض، للمارديني.

٣٣- المنتهى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الجزء الأول، مخروم من أوله، والجزء الثاني مخروم من آخره.

٣٤- شرح على مختصر المقنع، لموسى بن سالم الحجاوي.

٣٥-دروس النهار من شهر رمضان المعظم، لعلي الحمد الصالحي، سنة (١٣٥٠هـ). ويليه وظائف العشر الأواخر من شهر رمضان، للمؤلف نفسه، وبخط يده.

٣٦- منتهى الإرادات، لشهاب الدين ابن النجار الفتوحي، بخط إبراهيم بن محمد الملقب بابن العريكان، سنة (١٣٥٨هـ).

٣٧- مجموع المنقور على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بخط عبدالله بن عايض، سنة (١٢٩٣هـ).

٣٨- دليل الطالب لنيل المطالب، لمرعي بن يوسف، مخروم من آخره.

٣٩- بهجة الناظر المنتخب من صيد الخاطر، لمحمد بن سلوم، بخط ناصر بن سليمان بن سحيم، سنة (١٢٢٨هـ).

٤٠- شرح زاد المستقنع في اختصار المقنع، لمنصور البهوتي. مخروم من آخر الكتاب ينتهي بباب اليمين في الدعاوي.

٤١- جامع العلوم والحكم، لابن رجب، بخط يوسف بن عبدالله الصحاف سنة ١١٠١هـ، مخروم من ص ٣١ إلى ص ١٠٧.

٤٢- تفسير الجلالين، للسيوطي.

٤٣- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لابن رجب، مخروم من آخره.

٤٤-حدائق الأزهار في شرح مشارق الأنوار، لعمر بن عبدالمحسن الأذربيجاني بخط... بن محمد علي الخوارزمي، سنة (٧٦٨هـ).

٤٥- الجامع الصغير، للسيوطي، سقط منه حرف الياء.

٤٦- ثلاثة الأصول وأدلتها، ويليها شروط الصلاة وأركانها وواجباتها وفروض الوضوء ونواقضه، وتفسير الفاتحة، وأربع قواعد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي غير مرتب.

٤٧- رسالة ملخصة منقولة من قاعدة لشيخ الإسلام ابن تيمية في قتال الكفار هل سببه المقاتلة أو مجرد الكفر، بخط محمد سليمان العبد العزيز البسام، سنة (١٣٦٣هـ).

٤٨- صفوة أصول الفقه المنتخبة من مختصر التحرير، لعبد الرحمن بن نصار السعدي.

٤٩- منظومة للشيخ سليمان بن سحمان في رده على رجل من أهل الأحساء.

٥٠- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير، للنووي، بخط إبراهيم بن محمد بن ضويان، سنة (١٣٠٧هـ).

٥١- نظم متن قطر الندى، لعبد العزيز الفرغلي الأنصاري، تاريخ النسخة سنة (١٢٥٩هـ).

٥٢- شرح منظومة في مصطلح الحديث مطلعها:

(غرامي صحيح والرجا فيك معضل   وحزني ودمعي مرسل ومسلسل)

تاريخ النسخة عام (١١٩٢هـ)، بخط القاضي عبد القادر بن علي البدري.

٥٣- مجموع المنقور في الفقه، لأحمد بن محمد بن منقور، بخط الشيخة فاطمة الفضيلية بنت حمد الحنبلية، سنة (١٢٢٨هـ).

٥٤- حاشية على الروض المربع، للشيخ عبد الوهاب.

٥٥- من متن المنتهى في الفقه - مخروم من أوله ومن آخره.

٥٦- طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي.

٥٧- متن دليل الطالب، لمرعي بن يوسف، بخط عبد الواحد صنع الله الطرابلسي بلداً والحنفي مذهباً، سنة (١٢٧٤هـ).

٥٨- كتاب في الفرائض، مجلد كبير، مؤلفه مجهول، بخط محمد بن حمد الهديبي سنة (١٢٣٧هـ).

٥٩- شرح دليل الطالب، ينتهي آخره إلى كتاب الإقرار، باب الإقرار بالجمل، وما بعده مفقود.

٦٠-كتاب في السيرة، لابن إسحاق، مخروم من الأول ورقة واحدة، وينتهي في آخره إلى ص ١٧٩ في إسلام بني الحارث بن كعب على يدي خالد بن الوليد.

٦١- تفسير البيهقي، مخروم من أوله تفسير أكثر سورة الفاتحة، وينتهي إلى آية رقم: ٢١٠ من سورة البقرة، وهي قوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله...﴾ الآية.

٦٢- الروض المربع، لمنصور البهوتي - عليه تعليق فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين وتعليق شيخه عبد الرحمن الناصر السعدي.

٦٣- مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية، للصغاني.

٦٤- الهداية في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لمحفوظ بن أحمد الكلوذاني، بخط أبي بكر بن موسى بن أبي بن الحاج عمر الحنبلي، سنة (٧٠٣هـ)، وهي أقدم المخطوطات.

٦٥- إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، للشوكاني.

٦٦- كتاب فقه لعمر الخرقي، في فقه الإمام أحمد.

٦٧- كشاف القناع، لمنصور البهوتي، المجلد الأول كبير جداً، والثاني أقل منه، والثاني مخروم من آخره، وينتهي إلى باب التدبير.

٦٨-التفسير، لأبي عمر عثمان بن سعيد المقري.

٦٩- مشارق الأنوار في حديث النبي المختار، تاريخ المخطوطة عام (٨٦٨هـ).

٧٠- قطعة من تفسير ابن برّجان.

٧١-تفسير كتاب الله العزيز، لفخر الدين أبي بكر بن علي بن محمد الحداد ج ٣، مخروم من آخره قليلاً.

٧٢- مختصر الفتاوى المصرية، لعبد الله بن محمد البعلي، الشهير بابن أسبلا، وهو مأخوذ من الدرر المضيئة، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٧٣- منتقى الأحكام عن خير الأنام، لأبي البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية.

متابعة الشيخ لطلابه وحرصه عليهم:

لقد اهتم الشيخ حفظه الله بطلابه، وحرص على تذليل الصعاب التي تواجههم في مسيرتهم العلمية، وذلك أنه خصص لهم سكناً مجانياً متوفرة فيه جميع سبل الراحة، زيادة على ذلك أنه افتتح لهم مطعماً داخل السكن، وفرّغ له عاملاً، يعد لهم الطعام في الوجبات الثلاثة اليومية، كما هيأ لهم مكتبة حافلة بالمراجع، والكتب النادرة، والمخطوطات الأصلية، التي تصل إلى أكثر من سبعين مخطوطة أصلية، ومعها مكتبة سمعية من أشرطة لدروس الشيخ، وصالة للقراءة، وكل ذلك في السكن نفسه.

كما يقوم الشيخ بمتابعة طلابه، لا سيما المغتربون، وبالأخص الذين يقطنون في السكن المعد لهم، الذين يفتقرون إلى مساعدات مالية لمواصلة مسيرتهم العلمية، فيخصص لهم مكافآت مالية. كما يحرص الشيخ على تزويدهم ببعض الكتب التي يستفيدون منها، ويحتاجون إليها في البحث، ومن الكتب المجانية التي زودنا الشيخ بها من خلال ملازمتي له:

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم.

٣- مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، خمسة عشر مجلداً.

٤- الصراع بين الإسلام والوثنية - مجلدان - لعبدالله القصيمي.

٥- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد.

٦- التنكيل لما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، لعبد الرحمن المعلمي، مجلدان.

٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، سبعة وثلاثون مجلداً .

٨- المغني، لابن قدامة المقدسي.

٩- غريب الحديث للخطابي، ثلاثة مجلدات.

١٠- المنتقى من أخبار المصطفى، لمجد الدين ابن تيمية، مجلدان.

وغيرها من المراجع التي يفتقر إليها طالب العلم.

وهناك من الكتيبات الصغيرة، التي لا أستطيع إحصاءها؛ لكثرتها، لا سيما مؤلفـ
الشيخ نفسه، فإن كل من يقوم بطباعة كتاب من كتبه أرسل إلى الشيخ المئات من النسـ
من الكتاب المطبوع له، فيقوم الشيخ بتوزيعها على طلابه. وإذا كانت الكتب المرسلة
الشيخ قليلة لا تكفي إلا القليل من الطلاب، فإن الشيخ حفظه الله يستعمل أسلو
الأقدمية في ملازمته، وذلك بتقديم الطالب الأقدم فالأقدم، فيقول من له خمس سنوا
فإنه يعطى، ثم ينتقل إلى من له أربع سنوات، وهكذا...

ولقد لمست حرص الشيخ على طلابه منذ بداية ملازمتي له، وذلك عندما قصدت هـ
البلاد المباركة - المملكة العربية السعودية - قبل ثلاث عشرة سنة، وقد صحبت مـ
القليل من المال حتى نفد، ولم يبق عندي منه شيء فصبرت نفسي، وأيقنت أن الله سيف
هذا الضيق :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت و كنت أظنها لا تفرج

حتى إذا ما مضى أسابيع، وأنا أعيش هذا الضيق، فإذا بالشيخ يناديني بعد صـ
الفجر، وبيده مبلغ من المال ليس بالقليل، ويعلم الله أنني لم أشك له حالي، ولكنه الفـ
من الله.

وبعد مدة من الزمن نفد ما عندي من المال، فخشيت أن أكون قد أحرجت الشيخ
مساعدته لي، أو يظن أنني لازمته من أجل المال، فقررت أن أرحل، وأترك الشيخ لأعمـ
وأجمع مالاً أتقوى به على طلب العلم، فرحلت إلى الدمام، حيث معارفي، وتركت رسـ
للشيخ بينت له فيها سبب ارتحالي، فساءه ذلك جداً، وحاول أن يتعرف عنواني، فتيسر
الحصول عليه وعلى رقم هاتفي، واتصل بي هاتفياً، وألزمني بالرجوع، وألح علي، فأجـ

إلى طلبه، وأنا في حرج، واستأنفت ملازمتي له.

وكان حفظه الله لا يبخل علي وعلى زملائي من المغتربين بالإنفاق علينا، ومتابعة أحوالنا، وتذليل الصعاب التي تواجهنا.

ومن الجوانب المثالية التي تشير إلى اهتمام الشيخ، وحرصه على طلابه، هو تكليفهم بالبحوث، وتحرير المسائل المشكلة.

بل إنه يكلف حتى المبتدئين في علمهم؛ ليزرع الهمّة والحرص في نفوسهم. ويحاول الشيخ أن لا يفرض رأيه، وينفرد به في الأمور التي تحتاج إلى مشورة، بل يحاول جاهداً أن يجعل الطلاب يشاركونه الرأي والمشورة، وربما قدم رأي الطالب على رأيه؛ لقربه من الصواب، ولا شك أن مثل هذا فيه تعويد للطلاب على التجرد للحق.

وإن رجوع الشيخ عن رأيه واجتهاده إلى قول تلميذه لا يعد عيباً، بل هي منقبة عظيمة، يشكر عليها.

كما يستعمل الشيخ حفظه الله أسلوباً مثالياً في تدريب طلابه على إلقاء الكلمات الوعظية والدروس العلمية، فيكلف الطلاب بإعداد كلمة، وإلقائها أمام الطلاب، بحضور الشيخ، ثم توجه الملاحظات من قبل الشيخ، أو الطلاب للطالب، ليجيب الطالب عليها.

كما جعل الشيخ حفظه الله دروساً مسندة لدروسه من قبل بعض طلابه من ذوي الكفاءات العلمية، فيكلفهم في تنظيم دروس علمية للطلاب المبتدئين؛ فقد قام الأخ الفاضل الشيخ محمد بن عبد الرحمن الإسماعيل بتدريس الفرائض علم المواريث، والأخ الشيخ عبد الرحمن بن صالح الدهش بتدريس النحو، والأخ الشيخ خالد بن عبدالله المصلح بتدريس كتاب التوحيد، والأخ الشيخ سامي بن محمد الصقير بتدريس الفقه، والأخ الشيخ خالد المطرفي بتدريس النحو.

هذا ما تيسر جمعه وتدوينه عن حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله، والله أسأل أن يطيل في عمره، ويحسن عمله، وينفع المسلمين بعلمه، وأن يجعلنا نحذو حذوه

فيما سار عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

منح الشيخ جائزة الملك فيصل العالمية

قررت لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية منح جائزة هذ العام (١٤١٤هـ) لخدمة الإسلام إلى فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، وذكرت لجنة الاختيار في حيثيات فوز الشيخ بالجائزة ما يلي:

أولا: تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر وقول الحق والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيا: انتفاع الكثيرين بعلمه تدريساً وافتاءً وتأليفاً.

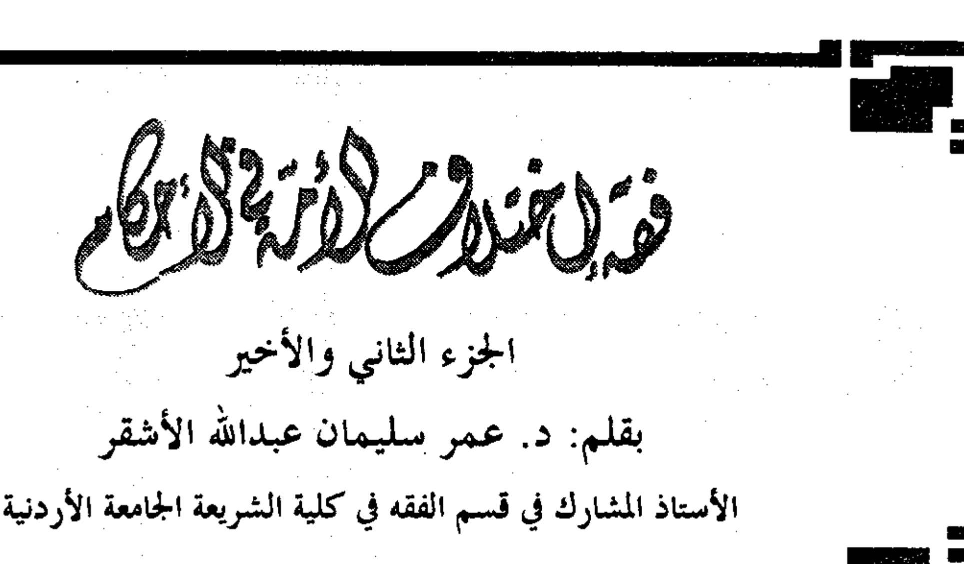
ثلاثا: القاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة.

خامسا: اتباعه اسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. وتقديمة مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح فكراً وسلوكاً.

هذا ما ذكرته لجنة الاختيار في حيثياتها، ومما لا شك فيه أن الشيخ أهل لهذه الجائزة، ولا نزكي على الله أحداً.

والله أسأل أن يمد في عمره، ويحسن عمله، وينفع به المسلمين عامة وطلاب العلم خاصة.



الجزء الثاني والأخير

بقلم: د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

الأستاذ المشارك في قسم الفقه في كلية الشريعة الجامعة الأردنية

معالم هادية

إلى طريقة تلقي التشريع والعمل به

في نصوص الكتاب والسنة معالم هادية إلى كيفية تلقي التشريع والعمل به، وهذه المعالم ذات أهمية كبيرة، فهي منارات تضيء لطلبة العلم والعلماء الطريق حتى لا ينحرفوا عن المسار الذي ينبغي أن يسلكوه وهم يتلقون هذه الشريعة المباركة ويعملون بها، والجهل بهذه المعالم من قبل بعض الذين تصدروا للفتيا والتعليم أضر بالمسلمين كثيراً، وحرم المسلمين خيراً كثيراً، وجلب العداوة والبغضاء للأمة التي أوجب عليها دينها التحاب والتآزر.

وسنحاول أن نبصر بمعالم هذا المنهج آملين أن يسترشد بها أهل العلم، ويرشدوا إليها من يتربون على أيديهم، ويتفقهون بعلمهم، والله الموفق.

المعلم الأول

الاقتصار على الشريعة المباركة دون غيرها

التشريع حق الله وحده، وما دامت هذه الشريعة من عند الله فيجب اتباعها دون سواها، ونبذ ما عداها من الشرائع والعادات والأعراف التي تخالفها، وقد فرض الله على من علم شرعه اتباعه، وليس للعباد في ذلك خيار ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ [الاحزاب:٣٦]، وشعار المسلم تجاه شريعة الله السمع والطاعة ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾[النور:٥١].

فهذه النصوص وأمثالها تحرم على العباد اتباع تشريع غير التشريع الرباني، سواء أكانت شريعة سماوية منسوخة أم شريعة وضعية، فشريعة التوراة المغيرة وشريعة الإنجيل المبدلة وشريعة القانون الفرنسي والإنجليزي والروماني وغير ذلك من التشريعات، سبل مخالفة لسبيل الله وشريعته، والله يقول: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣] وقد خط الرسول ﷺ لأصحابه خطاً، ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: (هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)، وقرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ...﴾ [الأنعام:١٥٣] رواه أحمد والنسائي والدارمي[1].

فهذه الخطوط المنحرفة عن الصراط هي السبل، وهي تمثل اليوم هذه الشرائع المنحرفة الضالة، وعلى رأس كل طريق داعية يدعو إليه، فشياطين اليهود يدعون إلى دينهم

(١) مشكاة المصابيح: ٥٩/١، وقال محقق المشكاة: واسناده حسن وصححه الحاكم وغيره.

المنسوخ المحرف، وكذلك النصارى، وشياطين الشيوعيين يدعون إلى شرعة قامت على الكفر والإلحاد، وشياطين الغرب والشرق يدعون لتحكيم الشرائع التي وضعها البشر، التى تحل الحرام وتحرم الحلال، وتضاد حكم الله.

ولقد غضب الرسول ﷺ غضباً شديداً، عندما جاءه عمر بالتوراة يستجيد ما فيها، فقد روى الدارمي عن جابر: أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًا.

فقال رسول الله ﷺ (والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتى لاتبعني) رواه الدارمي[1].

وفي رواية عند أحمد في مسنده، والبيهقي في شعب الإيمان: (أمتهوكون[2] أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي).[3]

(١) مشكاة المصابيح: ٦٨/١. والحديث حسن.

(٢) أي متحيرون أنتم في دينكم.

(٣) يقول الشيخ ناصر الدين الالباني في الحديث في تعليقه على المشكاة: ٦٣/١: فيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي لأن له طرقا كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما.

المعلم الثاني

عدم تقديم الرأي على الشرع وترك معارضة الرأي بالشرع

قد يثقل على المسلم العمل بالنص في بعض المواقف، ويظن المرء أن الخير يتحقق بفعل مخالف لما أمر به القرآن، أو بترك لما أمر بفعله، وقد كان الصحابة يأمرون الناس بأن يتهموا رأيهم في مواجهة النصوص، فهذا سهل بن حنيف يقول: ((يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته)) رواه البخاري[1].

وقد أمر عمر بمثل قول سهل، ولفظه: ((اتقوا الرأي في دينكم)) أخرجه البيهقي[2] في المدخل هكذا مختصراً، وأخرجه هو والطبري والطبراني[3] مطولاً بلفظ: ((اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر الرسول ﷺ برأيي اجتهادا))[4].

وأخرج البيهقي من طريق الشعبي عن عمرو بن حريث عن عمر قال: ((إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا))[5]، رواه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) من طرق[6].

وخطب عمر بن الخطاب على المنبر فقال: ((أيها الناس إن الرأي إما كان من الرسول

---

(١) فتح الباري: ٢٨٩/١٣.

(٢) فتح الباري: ٢٨٩/١٣.

(٣) فتح الباري: ٢٨٩/١٣.

(٤) فتح الباري: ٢٨٩/١٣.

(٥) فتح الباري: ٢٨٩/١٣.

(٦) جامع بيان العلم: ١٦٤/٢.

ﷺ مصيبا، لأن الله كان يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف))[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ((إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن قال بعد ذلك شيئا برأيه فما أدري أفي حسناته يجده أم في سيئاته))[2].

والرأي الذي حذر منه الصحابة الكرام هو الرأي المجرد الذي لا يستند إلى أصل من الدين، والرأي العجول الذي يبادر بالجواب غير مكلف صاحبه نفسه بالبحث عنه في مظانه، وأسوأ الآراء رأي الذين يعرفون النصوص، ويعملون بما يعارضها، ويحتالون في تأويلها وإخراجها عن ظاهرها لتوافق آراءهم الفاسدة.

المعلم الثالث

تقدير الرأي قدره

احتاج الصحابة إلى الإفتاء بآرائهم في بعض النوازل التي وقعت في عصرهم، ولكنهم لم يجعلوا آراءهم ديناً يتبع بمنزلة الكتاب والسنة، فقد كانوا يصرحون بأنهم حكموا بهذا بالرأي، وأنه قابل للخطأ والصواب، ولم يكونوا يلزمون غيرهم من علماء الصحابة بالمصير إلى رأيهم.

يقول ابن سيرين: ((إذا نزلت بأبي بكر قضية، فلم يجد لها في كتاب الله منها أصلاً، ولا في السنة أثراً اجتهد رأيه، ثم قال: هذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان))[3].

---

(١) جامع بيان العلم: ١٦٤/٢.
(٢) جامع بيان العلم: ٣٢/٢.
(٣) أعلام الموقعين: ٥٧/١.

وكتب كاتب لعمر بن الخطاب: هذا ما رأى الله ورأى عمر، فقال عمر: ((بئس ،
قلت، قل: هذا ما رأى عمر، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر))[1].

وقال ابن مسعود في مسألة سئل عنها: ((أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن ال
وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريء))[2].

ولقي عمر بن الخطاب رجلاً فقال: ((ما صنعت؟ قال قضى علي وزيد بكذا، قال: ا
كنت أنا لقضيت بكذا، قال: فما منعك والأمر إليك ؟ قال لو كنت أردك إلى كتاب ا
أو سنة نبيه ﷺ لفعلت، ولكني أردك إلى رأي، والرأي مشترك، فلم ينقض ما قاله عل
وزيد))[3].

وقد نقل ابن القيم نصوصاً كثيرة عن الصحابة في هذه المسألة، ثم بين منهج الصحا
ووضحه في هذه القضية فقال: ((فهؤلاء الصحابة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب
وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعب
ا لله بن عمر، وزيد بن ثابت، وسهل بن حنيف، ومعاذ بن جبل، ومعاوية خال المؤمني
وأبوموسى الأشعري - رضي الله عنهم - يخرجون الرأي عن العلم، وينهون عن الفت
به، ومن اضطر منهم إليه أخبر أنه ظن ، وأنه ليس على ثقة منه، وأنه يجوز أن يكون م
ومن الشيطان، وأن الله ورسوله بريء منه، وأن غايته أن يسوغ الأخذ به عند الضرو
من غير لزوم لاتباعه، ولا العمل به))[4].

---

(١) أعلام الموقعين: ١/٥٨.
(٢) أعلام الموقعين: ١/٦٠.
(٣) أعلام الموقعين: ١/٦٨.
(٤) أعلام الموقعين: ١/٦٤.

المعلم الرابع

عدم متابعة من خالف النص الشرعي مهما علت منزلته

لم يكن الصحابة يقدمون على النصوص قول أحد مهما علت منزلته، فهذا ابن عمر يسأل عن متعة الحج[1] فيأمر بها، فيقول له السائل: أتخالف أباك؟ فيبين للسائل أن عمر لم يرد هذا، فلما أكثروا عليه قال: فكتاب الله أحق أن يتبع أم عمر ؟، وفي رواية: أمرَ رسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا أم عمر؟ إن عمرلم يقل ذلك[2].

وهذا ابن عباس رضي الله عنه يقول له عروة بن الزبير: ((تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر وليس فيهن عمرة ؟ فيقول له ابن عباس: أولا تسأل أمك عن ذلك ؟ فيقول له عروة: فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك، فيقول له ابن عباس: هذا الذي أهلككم، والله ما أرى إلا سيعذبكم، إنى أحدثكم عن النبي ﷺ، وتحدثوني بأبي بكر وعمر))[3].

ويروي البخاري في صحيحه عن مروان بن الحكم، قال: ((شهدت عثمان وعلياً رضي الله عنهما، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما، فلما رأى علي ، أهل بهما: لبيك بعمرة وحجة، قال ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد))[4].

وقد خالف عمر بن الخطاب أبا بكر الصديق في عدة مسائل، فأبو بكر كان لا يفاضل

---

(١) متعة الحج: أن يحرم من أراد الحج بالعمرة، ثم يحل من إحرامه، ثم يحرم بالحج بعد ذلك.

(٢) روى هذين الحديثين البيهقي بإسناد صحيح، المجموع للنووي: ١٥٨/٧، وعمر رضي الله عنه لم ينه عن التمتع محرماً له، وإنما نهى عنه مفضلاً الإفراد.

(٣) رواه الخطيب البغدادي في كتاب الفقيه والمتفقه: ١٤٥/١.

(٤) البخاري فتح الباري: ٤٢١/٣، وقال ابن حجر في (فتح الباري) في شرحه للحديث: ٤٢٥/٣: ((إنما نهى عنهما ((إي الإفراد والقران)) ليعمل بالأفضل كما وقع لعمر، لكن خشي عليه أن يحمل غيره النهي على التحريم، فأشاع جواز ذلك وكل منهما مجتهد مأجور)).

بين الناس في العطاء، فلما تولى عمر خالفه في ذلك، وخالفه في حياته في إعطاء المؤل
قلوبهم، فأبو بكر رأى إعطاء هم، وعمر لم ير ذلك، ورجع أبو بكر لرأي عمرفي ذلك
وسبى أبو بكر نساء أهل الردة، ولم ير عمر ذلك، فردهن إلى أهلهن في خلافته، إلا ه
ولدت منهن .

وقسم أبو بكر الأراضي المفتوحة عنوة بين الفاتحين، وخالفه عمر فوقفها لمص
المسلمين.

طاعة الذين أوجب الله علينا طاعتهم مقيدة بطاعة الله

الذين أمرنا الله باتباعهم وطاعتهم كالوالدين والعلماء والحكام طاعتهم مقيدة بما
يخالف الشريعة، فإذا أمروا أمراً مخالفاً للشريعة فطاعة الله ورسوله مقدمة، بل نتقرب
ا لله – جلَّ وعلا – بمخالفتهم فيما خالفوا فيه الله ورسوله ﴿ووصينا الإنسان بوالد
حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهد
على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع س
من أناب إلي﴾ [لقمان:١٤/١٥].

وأمرنا بطاعة الحكام الذين يحكمون شريعة الله، فإن اختلفنا معهم فالمرجع هو ه
الشريعة الربانية ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ف
تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خ
وأحسن تأويلا﴾ [النساء:٥٩].

المعلم الخامس

الرجوع عن الرأي إلى الدليل

إذا حكم الحاكم بحكم، أو اجتهد المجتهد برأي في مسألة ما ثم بلغه نص حكم ف

الرسول ﷺ بخلاف حكمه، فإنه يجب عليه أن يعود إلى حكم الرسول ﷺ، ويبطل حكمه.

وقد عنون الخطيب البغدادي في كتابه: ((الفقيه والمتفقه)) لهذه المسألة بقوله: ((ذكر ما روي من رجوع الصحابة عن آرائهم التى رأوها إلى أحاديث النبي ﷺ إذا سمعوها ووعوها))، وساق تحته عدة وقائع منها:

١- كان عمر بن الخطاب يقول:((الدية للعاقلة، لاترث الزوجة من دية زوجها شيئاً، حتى قال الضحاك بن سفيان - رضي الله عنه - كتب إلي رسول الله ﷺ أن أورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها)) فرجع عمر.

٢- عن ابن المسيب قال: قضى عمر بن الخطاب في الأصابع بقضاء، ثم أخبر بكتاب كتبه النبي ﷺ لابن حزم: (في كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل)، فأخذ به، وترك أمره الأول.

٣- حديث أبي بن كعب أنه روى عن الرسول ﷺ حديثاً يفيد أن غسل الجنابة إنما يكون من الإنزال ((الماء من الماء))، ثم رجع عن ذلك عندما بلغه أن الرسول ﷺ قال ما ينسخ حديثه الأول: (إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل).

٤- كان ابن عباس يفتي الحائض التى أفاضت قبل أن تحيض، ثم حاضت بعد طوافها أن تنطلق بدون طواف وداع، فأنكر عليه زيد بن ثابت، فقال له ابن عباس: سل فلانه الأنصارية:هل أمرها بذلك النبي ﷺ، فرجع زيد بن ثابت يضحك، ويقول: ما أراك إلا قد صدقت.

٥- وهذا عبدالله بن عمر كان يكري أرض آل عمر، فسأل رافع بن خديج، فأخبره أن رسول الله ﷺ نهى عن كراء الأرض، فترك ذلك ابن عمر.

٦- وسأل أبو الجوزاء ابن عباس عن الصرف، فقال له: يداً بيد لا بأس به، ثم حج أبو الجوزاء مرة أخرى، فجاء ابن عباس فسأله فقال: وزناً بوزن، فقال أبو الجوزاء: أفتيتنى

اثنين بواحد، فلم أزل أفتي به مذ أفتيتني، قال ابن عباس: كان ذلك عن رأي، وهذا أب
سعيد الخدري يحدث عن النبي ﷺ، فتركت رأيي لحديث رسول الله ﷺ.

وفي رواية قال ابن عباس: ((أتوب إلى الله إنما كان رأيا رأيته، وها هو أبو سعيد يحد
عن رسول الله ﷺ))[1].

٧- وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعد بن إياس، عن ابن مسعود: ((أن رجـ
سأله عن رجل تزوج امرأة، فرأى أمها فأعجبته، فطلق امرأته ليتزوج أمها، فقال: لا بأس
فتزوجها الرجل، وكان عبد الله على بيت المال، فكان يبيع نفاية بيت المال يعطي الكثي
ويأخذ القليل، حتى قدم المدينة، فسأل أصحاب محمد ﷺ فقالوا: لا تحل لهذا الرجل هـ
المرأة، ولا تصلح الفضة، إلا وزناً بوزن، فلما قدم عبد الله الكوفة انطلق إلى الرجل، فلـ
يجده، ووجد قومه، فقال إن الذي افتيت به صاحبكم لا يحل ، وأتى الصيارفة، فقال:
معشر الصيارفة إن الذي كنت أبايعكم لا يحل، لا تحل إلا وزناً بوزن)).

المعلم السادس

الحذر من التعصب المقيت

يجب على الفقيه أن يحذر من الانسياق وراء العصبية المذهبية التي ابتلي بها المسلمو
دهورا متطاولة، تلك العصبية التي جعلت العلماء ينقسمون فرقاً وأحزاباً، يعظمون إما
من الأئمة ويتبعون كل ما يقول، وقد يهاجمون الأئمة الآخرين وأتباعهم، وينفرون منهـ
والواجب علينا أن نوالي الأئمة جميعاً ونحبهم، وذلك بأن نعدهم كلهم فقهاء الإسلا
قاموا بشرحه وتدوينه، ونعد أقوالهم كلها مجالاً للبحث والدراسة، ونقبل منهم ما اتفق

(١) الفقيه والمتفقه: ١/١٣٩، أعلام الموقعين: ٢/٢٨٣.

عليه، وما اختلفوا فيه اختلاف تنوع فلا بأس على من أخذ بقول واحد منهم، وما اختلفوا فيه اختلاف تضاد فننظر إلى أدلتهم، فالذي عنده الدليل أولى بالاتباع ممن لم يصل إليه الدليل أو خفي عليه.

ومما يدعو إلى مزيد من التحذير أن كثيراً من الذين صنفوا في الفقه صبغت كتبهم بالعصبية المذهبية المقيتة، فيخشى على الذين لم يشدوا في علم الفقه أن يتأثروا بتلك العصبية التي يتلبس بها المتعصبون، وليكن شعارنا: **اعرف الحق تعرف أهله.**

وقد بين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه «أضواء البيان» المنهج الذي سلكه في «بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة في هذا الكتاب»[1]، فقال: «فإننا نبين ما فيها من أحكام، وأدلتها من السنة، وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين، ولا لقول قائل معين»[2]، وقد علل منهجه هذا بقوله: «لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلامه ﷺ، ومعلوم أن الحق حق، ولو كان قائله حقيراً»[3].

واستشهد على صحة ما ذهب إليه بتصديق الله لقول ملكة سبأ في بعض قولها، يقول الشيخ: «ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها، لما قالت كلاماً حقاً

صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالته، وذلك في قوله فيما ذكر الله عنها: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ [النمل: ٣٤] فقد قال تعالى مصدقا لها في قولها: ﴿وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤] وقد

---

(١) أضواء البيان: ١/٦.

(٢) أضواء البيان: ١/٦.

(٣) أضواء البيان: ١/٦.

قال الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص))[1]

المعلم السابع

تجنب الاختلاف والجدال

أمرنا الله بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ونهانا عن الاختلاف والتنازع في دين الله، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ [الأنفال:٤٦]، وقال: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ [الأنعام:١٥٩]، وقال: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران:١٠٥]، وفي الحديث: أن مالك بن أنس – رضي الله عنه – بلغه أن رسول الله ﷺ قال: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله) رواه مالك في موطئه[2].

وحذر الرسول ﷺ من الجدال، فقد روى أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون﴾ [الزخرف:٥٨][3].

فإذا كان الاختلاف بسبب تفاوت العقول في فهم النصوص، أو بسبب عدم معرفة

(١) أضواء البيان: ٦/١.
(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول: ١٨٦/١. والحديث صحيح. [المجلة].
(٣) مشكاة المصابيح: ٦٣/١، وقال الشيخ ناصر الدين في تعليقه على الحديث: اسناده صحيح.

النص، فيجتهد العلماء في معرفة الحق، فهذا لا يعد من الخلاف المذموم.

وكذا الجدال إن كان بالتي هى أحسن لمعرفة الحق ودفع الباطل، فالآخذ به محمود مثاب.

المعلم الثامن

طلب الحكم في مظانه

لم يكن الصحابة يكتفون بعدم بلوغهم الحكم، بل كانوا يبحثون عن الحكم في مظانه، ومظان الحكم في وقتهم:محفوظات الصحابة، ونحن نعلم أن سنة الرسول ﷺ كانت محفوظة في صدور الصحابة في مجموعهم، ولم يجمع فرد من الصحابة السنة كلها، ذلك أنه من المعلوم بالضرورة أن الصحابة لم يكونوا يلازمون الرسول ﷺ كل الأوقات، بل يلازمه بعض الصحابة دون بعض، وذلك لانشغالهم في أمور كلفهم الرسول ﷺ بها كالسرايا التى كان يرسلها في الجهاد، وكالدعاة والولاة الذين كان يرسلهم إلى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، فقد أرسل علي بن أبي طالب ومعاذ ابن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن.

وقد قال عمر بن الخطاب في أمر الاستئذان ثلاثاً حيث لم يعلمه وعلمه من دونه: ((خفي علي هذا من أمر النبي ﷺ، ألهاني الصفق بالأسواق))[1].

وبين أبو هريرة السبب في كثرة حفظه عن الرسول ﷺ فقال: ((إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث على رسول الله ﷺ، والله الموعد، إني كنت امرءاً مسكيناً ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق، وكانت

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحجة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة، فتح الباري: ١٣/٣٢١.

الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، فشهدت من رسول الله ﷺ ذات يوم قال: (من يبسط رداءه حتى أقضي مقالتي ثم يقبضه، فلم ينس شيئاً سمعه مني، فبسطت بردة كانت علي، فوالذي بعثه بالحق ما نسيت شيئا سمعته عنه)[1].

هذه ناحية، وناحية أخرى فإن القضايا التي لم تكن موجودة في العصر الأول قد يكون حكمها موجوداً في النصوص القرآنية والحديثية، وقد دونت السنة وبوبت وفهرست، ومهدت الطرق للوصول لأحاديث في شتى الأبواب والموضوعات، فالواجب على أهل العلم البحث والتقصي لمعرفة النصوص في الموضوعات التي يريدون تبيين حكمها.

المعلم التاسع

عليك بالكتب التي تدور مع الدليل

عليك باقتناء الكتب الفقهية التي تبحث عن الدليل وتدور مباحثها عليه، وقد كانت كتب الأوائل مؤلفة على هذا النحو، وانظر إلى الكتاب العظيم الذى هجره كثير من طلبة العلم، كتاب «الأم» للشافعي – رحمه الله تعالى – تجد الدليل محور الكتاب.

ومن كتب المذاهب التى اعتنت بالدليل وحرصت عليه كتاب «المغني» لابن قدامة الحنبلي، و«المجموع» للنووي الشافعي، و«فتح القدير» لابن الهمام الحنفي، و «الذخيرة» للقرافي المالكي، وقد ألف ابن رشد المالكي كتاب: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو كتاب نافع جداً، إذ هو بعيد عن روح التعصب أثبت فيه: «مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها، ونبه على نكت الخلاف فيها، ما يجري مجرى الأصول والقواعد لما عسى أن يرد على المجتهد من المسائل المسكوت عنها في الشرع».

---

(١) المصدر السابق.

وقد وضعه مؤلفه لمن استشرفت نفسه الوصول إلى مرتبة الاجتهاد، كما يدل عليه العنوان.

ومن خير ما ينبغي لطلبة العلم الحرص عليه المؤلفات في آيات الأحكام وأحاديث الأحكام، فهي الأساس الذي قام عليها بناء الفقه.

المعلم العاشر

التثبت والتروي في الاجتهاد وعدم التسرع بالفتيا

كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتثبتون في اجتهادهم ولا يسارعون في الحكم ويرددون النظر، هذا عبدالله بن مسعود يسأل عن رجل تزوج امرأة، فمات عنها، ولم يدخل بها، ولم يفرض لها صداقاً، فاختلفوا إليه شهراً، أو قال مرات قال: ((فإني أقول فيها: إن لها صداقاً كصداق نسائها لا وكس ولا شطط[1]، وإن لها الميراث، وعليها العدة، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان.

فقام ناس من أشجع فيهم الجراح وأبو سنان فقالوا: يا ابن مسعود، نحن نشهد أن رسول الله ﷺ قضاها فينا في بروع بنت واشق، وإن زوجها هلال بن مرة الأشجعي كما قضيت، قال: ففرح عبد الله بن مسعود فرحاً شديداًحين وافق قضاء رسول الله ﷺ))[2].

وهذا الذي سلكه ابن مسعود هو المنهج الذي أخذ به الصحابة أنفسهم، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: ((كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى أنها تعينت عليه بذل اجتهاده في

---

(١) الوكس: النقصان، والشطط: الزيادة.

(٢) رواه الخمسة، منتقى الأخبار ص٥٨٥. والسياق لأبي داود في سننه، كتاب النكاح، باب فيمن تزوج ولم يسم صداقاً حتى مات: ٢/٣١٩.

معرفة حكمها من الكتاب والسنة، وأقوال الخلفاء الراشدين، ثم أفتى)).

وقال عبد الله بن المبارك: حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: ((أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ أراه قال في المسجد، فما كان منهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث، ولا مفت إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا)).

وقال الامام أحمد: حدثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى، قال: ((أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ ما منهم رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه، ولا يحدث حديثا إلا ود أن أخاه كفاه))[1].

وقال مالك عن يحيى بن سعيد، قال ابن عباس: إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون.

قال مالك: وبلغني عن ابن مسعود مثل ذلك[2].

قال محمد بن عجلان: إذا أغفل العالم: ((لا أدري)) أصيبت مقاتله، ونحوه عن ابن عباس.

وسئل القاسم بن محمد بن أبي بكر عن شيء، فقال: لا أحسنه، فقال السائل: إني جئت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم: تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم. فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي.

وقال سفيان بن عينيه، وسحنون بن سعيد صاحب المدونة: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً.

---

(١) انظر أعلام الموقعين: ١/٣٤.

(٢) المصدر السابق: ١/٣٥.

وسأل رجل مالك بن أنس أياماً عن شيء، فقال: إني إنما أتكلم فيما احتسب فيه الخير، ولست أحسن مسألتك هذه.

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لاأدري.

وكان ربما يسأل مالك عن خمسين مسألة، فلا يجيب في واحدة منها، وسئل عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب، وقال: ليس في العلم خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ [المزمل:٥]، فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامه[١].

وقال ابوداود في مسائله: ما أحصي ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم، فيقول: لا أدري.

قال أبوداود: وسمعت أحمد يقول: ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتيا منه، كان أهون عليه أن يقول: لا أدري.

وقال عبد الله ابنه في مسائله: سمعت أبي يقول: قال عبد الرحمن بن مهدي: سأل رجل من أهل الغرب مالك بن أنس عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله، تقول: لا أدري؟ قال: نعم، فأبلغ من وراءك أني لا أدري[٢].

وقد فقه الرعيل الأول هذا النهج من تعليم الله إياهم بأن الفتوى من غير علم قول على الله بغير علم، وأنه من الجرائم الكبار، التي حذرت منها النصوص أشد التحذير في مثل قوله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير

---

(١) صفة الفتوى: ٦/٧.

(٢) مدخل لابن بدران: ٤٤.

الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[1]، وق تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على ا الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾[2].

وقال بعض السلف: «ليتق أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم كذا، فيقول ا له: كذبت، لم أحل كذا ولم أحرم كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المب بتحليله وتحريمه: أحله الله، وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل»[3].

يقول ابن القيم: «وقد نهى الرسول ﷺ أميره: بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم عل حكم الله، وقال: فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم، أم لا، ولكن أنزلهم عل حكمك، وحكم أصحابك، فتأمل كيف فرق بين حكم الله، وحكم الأمير المجتهد، ونه أن يسمى حكم المجتهد حكم الله»[4].

المعلم الحادي عشر

الإكثار من مشاورة أهل العلم والفقه والرأي

كان الخلفاء يشاورون الناس فيما يجد من قضايا لا يجدون لها حكماً في الكتاب والس وقد نقلت لنا كتب السنة الحوار الذي جرى بين عمر بن الخطاب وبين أبي بكر وزيد ب ثابت في جمع القرآن.

---

(١) سورة الأعراف: ٣٣.
(٢) سورة النحل: ١١٦..
(٣) أعلام الموقعين: ٤/١.
(٤) المصدر السابق.

وقد ثار نقاش بين الصحابة حول قتال المرتدين الذين منعوا الزكاة وهم ينطقون الشهادتين، ثم اتفقوا على وجوب قتالهم.

وعمر بن الخطاب كان له جمع يضم كبار الصحابة يشاورهم في أمره، وقد أدخل في هؤلاء ابن عباس مع صغر سنه، فلما اعترض من اعترض على تقديمه ابن عباس على غيره ممن هم في سنه، سألهم سؤالاً لم يجب عليه إلا ابن عباس، وغرضه أن يدلهم على علمه وفقهه، واستحقاقه لأن يكون من أهل الشورى.

ومن القضايا التى استشار فيها عمر – رضي الله عنه – أراضي البلاد التى فتحها المسلمون، هل توزع على المقاتلين، أم تترك وقفا على بيت المال ؟

قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: ((وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله).

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذا كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال النبي ﷺ: (من بدل دينه فاقتلوه)، وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهؤلاء كهولاً أو شباباً، وكان وقافا عند كتاب الله، وقد كان الصحابة في ذلك متبعين لنبيهم ﷺ فقد ((شاور أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لامته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: (لا ينبغى لنبي يلبس لامته، فيضعها حتى يحكم الله).

وشاور علياً وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمع منهما، حتى نزل القرآن

فجلد الرامين، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله))[1].

وقد ألزم أبو بكر ومن بعده عمر فقهاء الصحابة بالبقاء في المدينة حتى يسهل الرجوع إليهم عندما تجد قضية، أو تعرض معضلة، هذا أبو بكر الصديق تعرض له المسألة لا يدري لها حكماً عن الله وعن رسوله، فيسأل أصحاب الرسول ﷺ، فيجد عندهم في ذلك علماً.

سئل رضي الله عنه عن ميراث الجدة، فقال: مالك في كتاب الله من شيء، وما علمت لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء، ولكن أسأل الناس، وعندما سألهم أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطاها السدس.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده إلى رفاعة بن رافع قال: بينما أنا عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إذ دخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا زيد بن ثابت يفتى الناس برأيه في الغسل من الجنابة، فقال عمر: علي به، فجاء زيد فلما رآه عمر فقال: أي عدو نفسه قد بلغت أن تفتي الناس برأيك ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما فعلت، ولكن سمعت من أعمامي حديثاً، فحدثت به من أبي أيوب، ومن أبي بن كعب ومن رفاعة بن رافع، فقال عمر: علي برفاعة بن رافع، فقال: قد كنتم تفعلون ذلك إذ أصاب أحدكم المرأة فأكسل أن يغتسل ؟ قال: قد كنا نفعل ذلك على عهد رسول الله ﷺ فلم يأتنا عن الله فيه تحريم، ولم يكن فيه عن رسول الله ﷺ شيء، فقال عمر: ورسول الله ﷺ يعلم ذلك ؟ قال: ما أدري.

فأمر عمر بجمع المهاجرين والأنصار، فجمعوا، فشاورهم، فشار الناس أن لا غسل، إلا من كان من معاذ وعلي، فإنهما قالا: ((إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل))، فقال عمر: هذا وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم، فمن بعدكم أشد اختلافاً.

فقال علي: يا أمير المؤمنين، إنه ليس أحد أعلم بهذا من شأن رسول الله ﷺ من

(١) صحيح البخاري، انظر فتح الباري: ٣٣٩/١٣.

أزواجه، فأرسل إلى حفصة، فقالت: لا علم لي، فأرسل إلى عائشة، فقالت: إذا جاوز الختان الختان، فقد وجب الغسل. فقال: لا أسمع برجل فعل ذلك إلا أوجعته ضرباً))[1].

فالواجب على الحكام أن يكون لهم جمع من أهل العلم والفقه والرأي والبصيرة يستشيرونهم فيما يعرض من مسائل ومشكلات كما كان يفعل الخلفاء من قبل، وكذا يجب على أهل العلم أن يشاور بعضهم بعضاً، كي تتضح المسائل، وتتبين الأدلة والبراهين التي يمكن أن يعتمد عليها في معرفة الحق.

المعلم الثاني عشر

اعذر المخطىء من أهل الفقه

لا يكن في صدرك غل على أحد من أئمة الفقهاء والعلم إذا رأيته خالف حديثاً، أو خالف الأدلة التي تبين لك صوابها، ذلك أنه قد بذل جهده، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد أخبر الرسول ﷺ أنه (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد).

والذي ليس له عذر هو ذلك الرجل الذي بلغه الدليل الصحيح فتركه اتباعاً لأقوال الرجال، كما يفعله بعض المقلدين الذين يتابعون أئمتهم فيما خالف النصوص الصحيحة.

ومن أكبر أعذار الأئمة أن السنة لم تدون في عصورهم، ولذلك احتاطوا لأنفسهم، وأمروا الناس بترك أقوالهم لقول الرسول ﷺ.

وقد بينا فيما سبق الأسباب التي أدت إلى الاختلاف السائغ المقبول الذى يعذر أهل العلم في اختلافهم فيه.

---

(١) أعلام الموقعين: ١/٥٩.

المعلم الثالث عشر

الابتعاد عن المسائل التي عابتها الشريعة المباركة

قال الرسول ﷺ لأصحابه: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه م استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم) رو البخاري ومسلم[1].

وهذا الحديث يرسم منهجاً للمسلم الحازم، وهو أن ينظر في دين الله، فما نهاه الله ع تركه، وما أمر به فعله على قدر طاقته، وهذا المنهج يقتضي أمرين:

أ- العلم بدين الله من كتابه وسنة نبيه، لأن هذا هو السبيل لمعرفة الواجبات والمنهيات

ب - الالتزام بذلك في الواقع العملي.

وبذلك تكون حياة المسلم تعلم وتطبيق، وبذلك تزكو نفسه، ويصلح عمله، ويرضـ عنه ربه.

وحذر الرسول ﷺ من الانحراف عن هذا المنهج، وذلك بالإكثار من السؤال، وأخبر أ الإكثار من الأسئلة سبب في هلاك الأمم الماضية.

المواطن التي كرهت الشريعة السؤال عنها:

من جملة النصوص التى تتحدث في هذا الموضوع نستطيع أن نبين المواطن التى كرهـ الشريعة السؤال وعابته:

١- الأسئلة التى يقصد بها التعنت والتعجيز:

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٨٣.

وكل الأمم واجهت رسلها بمثل هذا، ومن ذلك أسئلة بني إسرائيل لنبي الله موسى، وقد ذم الله بني إسرائيل بسبب ذلك، وحذر هذه الأمة أن تسلك مع نبيها هذا المسلك ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ [البقرة:١٠٨].

وقد أخبرنا الله ببعض الأسئلة التى ألقوها على موسى، وألقوا ما يشبهها على نبي الله محمد ﷺ: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ [النساء:١٥٣].

وقد سأل الكفار الرسول ﷺ شيئاً كثيراً من أمثال هذا، ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولاً﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

٢- السؤال على وجه السخرية والاستهزاء:

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يا أيها الذى آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم...﴾ [المائدة:١٠١] الآية.

ولا تعارض بين سبب النزول هذا وبين السبب الذى ذكرناه في موضع آخر في نزولها، لأن الآية الواحدة قد تنزل لأكثر من سبب.

٣- الأسئلة التى يريد صاحبها التدقيق في الأمور، وتحديدها تحديداً مفصلاً قد يؤدي إلى زيادة التكاليف:

ومن أمثلة هذه الأسئلة أن بني إسرائيل جاؤوا يسألونه عن قتيل لم يعرفوا قاتله، واتهم فيه طائفتان، كل ترمي الأخرى به، فقال لهم: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ [البقرة:٦٧]، وكانوا يستطيعون أن يحققوا أمر الله لهم في مدة وجيزة، بأن يأتوا ببقرة مهما كان لونها أو عمرها، سواء كانت سمينة أو ضعيفة، قارة في البيت أو تعمل في الحقل، ولكنهم، أخذوا يستفصلون عن ذلك كله استفصالا جعل الأمر عليهم شديداً: لأن البقرة التى وصفت وحددت قليل وجودها: ﴿بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك..﴾ [البقرة:٦٨]، ﴿صفراء فاقع لونها تسر الناظرين...﴾ [البقرة:٦٩] ﴿لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها...﴾ [البقرة:٧١].

ومن هذا أن الرسول ﷺ أمر الصحابة بالحج، فقال لهم في خطبة خطبها: (يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا)، وتحقيق أمر الرسول ﷺ هذا يتحقق بالحج مرة واحدة، فكان ينبغي أن يكتفى بهذا، إلا أن أحد الصحابة أراد أن يحدد الأمر تحديداً دقيقا، فقال: أفي كل عام يا رسول الله، فسكت الرسول ﷺ، وردد السائل سؤاله ثلاث مرات، فقال الرسول ﷺ:(لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم)، ثم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم)[1].

ومثل هذا يجري مع الأمراء والحكام الذين ألزم الله بطاعتهم، فإذا أمروا بأمر ترى بعض المتحذلقين يكثرون في الاستفصال، فيشق ذلك على المأمورين.

٤- السؤال عن الأمور المغيبة المخفية:

وبعض هذه الأمور مما اختص الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه كالسؤال عن الساعة، ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها﴾

(١) رواه مسلم في صحيحه، جامع العلوم والحكم: ٨٤.

[النازعات: ٤٢-٤٤]، وبعض هذه الأمور لا يطيق العقل الإنساني إدراك كنهه وحقيقته، كالسؤال عن الروح، ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

والذين سألوا عن الروح هم اليهود، كما جاء ذلك صريحا فيما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: «كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة، وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم، سلوه عن الروح، وقال بعضهم، لاتسألوه لا يسمعكم ما تكرهون، فقاموا إليه :فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، ثم قام، ثم قال: ﴿يسألونك عن الروح﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

وبعض هذه الأمور المغيبة التي يطلب المرء بالسؤال إظهارها، قد يسوؤه معرفته لها ومعرفة الناس إياها، والله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠١].

وقد روى البخاري سبب نزول هذه الآية عن أنس بن مالك قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر، فقال: لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم)، قال أنس: (فجعلت انظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه، فقال يا نبي الله، من أبي؟ فقال: (أبوك حذافة)، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: (ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط).

---

(١) رواه البخاري، فتح الباري: ١٣/٤٣.

قال قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عـن أشيـ إن تبد لكم تسؤكم﴾[١].

ورواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة بأتم من هذه الرواية وفيه ((فقام إلـ رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله ؟ (قال النار) فقام عبد الله بـن حذافـة، فقـال: مـ أبي يا رسول الله؟ فقال (أبوك حذافة)[٢].

وقد صرح أنس في رواية البخاري في الاعتصام[٣] أن هذه الأسئلة كـانت سـبب نـزو الآية ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة:١٠١].

فهذا الذي قال له الرسول ﷺ: مدخلك النار استاء كثيراً ولا شك، وفضـح نفسـه بـ الورى، وعبد الله بن حذافة الذي كان يتشكك في أبيه لو قدر أن الأمـر علـى خـلاف مـ كان لفضح نفسه، وفضح أمه، ولذلك جاء في بعض الروايات أن أمه قالت له: ((ما رأيـ ولداً أعق منك قـط، أكنـت تـأمن أن تكـون أمـك قـد قـارفت مـا قـارف أهـل الجاهليـ فتفضحها على رؤوس الناس؟))

٥- الأسئلة التي يوسوس بها الشيطان:

ففي حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لن يـبرح النـاس يتسـاءلون حتـ يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟)[٤]. وفي رواية للبخاري ومسـلم: (يـأتـ الشيطان العبد أو أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا، حتى يقول: من خلق ربـك)[٥]. وا

---

(١) رواه البخاري، فتح الباري: ٤٣/١٣.
(٢) فتح الباري: ٣٦٥/١٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رواه البخاري، فتح الباري: ٢٦٥/١٣.
(٥) فتح الباري: ٢٧٣/١٣.

رواية للبخاري:(فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[1]. وفي لفظ لمسلم: (فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله)[2].

وإنما أرشد الرسول ﷺ إلى هذا الأسلوب في معالجة مثل هذه الأسئلة، لأن وساوس الشيطان لا تنتهي، فكلما جئت بحجة فإنه يجد مسلكاً للمغالطة والاسترسال، فيضيع الوقت، وقد لا يسلم المرء من فتنته، فلا تدبير في دفعه أقوى من الالتجاء إلى الله، والاستعاذة با لله ﴿واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ با لله إنه سميع عليم﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وهذا هو الذي يحزن الشيطان ويبكيه ويجعله خاسئاً ذليلاً، والله المستعان.

٦- السؤال عما لم يقع تكلفاً وتنطعاً:

قال القرطبي رحمه الله تعالى: ((روى مسلم عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله ﷺ قال: إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال). قال كثير من العلماء: المراد بقوله: ((وكثرة السؤال، وإضاعة المال)) التكثير من المسائل الفقهية تنطعاً، وتكلفاً فيما لم ينزل، والأغلوطات وتشقيق المولدات، وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف، ويقولون: إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها، قال مالك: أدركت أهل هذا البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل، وقد كرهها رسول الله ﷺ))[3].

وقال ابن رجب: ((كان كثير من الصحابة يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير القرطبي: ٦/٣٣٦.

ولا يجيبون عن ذلك، قال عمرو بن مرة: خرج عمر على الناس فقال: أ حرج عليكم أن تسألونا عما لم يكن، فإن لنا فيما كان شغلاً، وعن ابن عمر قال: لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعت عمر -رضي الله عنه- لعن السائل عما لم يكن.

وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول: كان هذا ؟ فإن قالوا: لا، قال: دعوه حتى يكون.

وقال مسروق: سألت أبي بن كعب عن شيء فقال: أكان بعد ؟ فقلت: لا. فقال: أجمنا يعني: أرحنا حتى يكون، فإذا كان اجتهدنا لك رأينا.

وقال الشعبي: سئل عمار عن مسألة، فقال: هل كان بعد ؟ قالوا: لا، قال: فدعوه حتى يكون، فإذا كان تجشمناه لكم.

وعن معاذ بن جبل قال: يا أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فيذهبكم ها هنا وها هنا، فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله لم يزل المسلمون أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، أو قال وفق))[1].

وقد نهى الصحابة عن السؤال عما لم يقع لأن في ذلك إضاعة الوقت وانشغالاً عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما حدث من أهل العلم بعد ذلك، إذ انشغلوا بتوليد المسائل، وتكلفوا الإجابة عليها، فكثر الخصام، والجدال بينهم، فافترقت القلوب، وكثر الخصام والعداوة والبغضاء، وصارهم كثير من هؤلاء غلبة الخصوم وطلب العلو والمباهاة، وانقسم الناس فرقاً يتعصب كل منهم لآراء لم يقم على صحتها دليل، والواجب على المسلم؛ أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية

---

(١) انظر هذه النصوص في كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب: ٨٧، وقد ساق مثلها ابن حجر في فتح الباري: ٢٦٦/١٣.

بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما ينهى عنه، فتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره))[1].

وقد يظن بعض الناس أن في هذا حجراً على الفكر، وتجميداً له، فيصبح المسلم مجرد راوية للنصوص، وليس هذا بصواب.

فإن المنهج الذي أمرنا الرسول ﷺ به، وسار عليه الصحابة، هو الاشتغال بطلب النصوص وحفظها وضبطها، ثم الاشتغال بفقه معانيها وتبين مدلولاتها، والعلم بما تضمنته من أحكام، واستنباط ما يمكن استنباطه منها.

وهذا المنهج يجمع القلوب، ويصلح النفوس، ويوجه المسلمين إلى الكتاب والسنة، فيكون شغلهم الشاغل، وبذلك تكون لهم نوراً وحياة.

وأما المنهج الآخر الذي اشتغل بتوليد المسائل والبحث فيما لم يقع فقد سار بعيداً عن الكتاب والسنة، وأخرج الأحكام الى دائرة الفكر المجرد عن الكتاب والسنة، وشغل الناس في أمور لم ينزلها في كتابه، فأهملت النصوص بسبب ذلك، وخسر المسلمون بهذا خسراناً عظيماً.

قال ابن رجب في هذا: ((واعلم أن كثرة وقوع الحوادث التى لا أصل لها في الكتاب والسنة إنما هو من ترك الاشتغال بامتثال أوامر الله ورسوله، واجتناب نواهي الله ورسوله، فلو أن من أراد أن يعمل عملاً سأل عما شرعه الله في ذلك فامتثله، وعما نهى عنه فاجتنبه وقعت الحوادث مقيدة بالكتاب والسنة، وإنما يعمل العامل بمقتضى رأيه وهواه، فتقع الحوادث عامتها مخالفة لما شرعه الله، وربما عسر ردها إلى الأحكام المذكورة في الكتاب والسنة لبعدها عنها.

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٨٦.

وفي الجملة فمن امتثل ما أمر به النبي ﷺ... وانتهى عما نهى عنه، وكان مشتغلاً بذلك عن غيره حصل له النجاة في الدنيا والآخرة، ومن خالف ذلك واشتغل بخواطره وما يستحسنه وقع فيما حذر منه الرسول ﷺ من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسلهم»[1].

المواضع التي يحمد فيها السؤال

ليس كل سؤال في الدين بمذموم، فقد قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾ [النحل:٤٣] ومن ذلك السؤال عن الأحكام التي أنزلها الله للتعلم والتفقه، والسؤال عما لم يفهمه المسلم من معاني كتاب الله، والسؤال عن النوازل التي وقعت، ويحتاج العبد أن يعرف حكمها ليتقي ربه، ويعمل بشرعه، فقد سأل الصحابة الرسول ﷺ عن الأنفال، وعن اتيان النساء في المحيض، وسألوه عن الذي واقع أهله في نهار رمضان، وعن التوضؤ بماء البحر، وسألوه عن الصيد ما يحل منه وما لايحل، وعن الآلة التى يصاد بها، وعن استعمال الأواني التى كان يشرب فيها الخمر، وعن زكاة المرأة الغنية لزوجها الفقير، وغير ذلك من الأسئلة، ولم يكن الرسول ﷺ يكره شيئاً من هذا.

ومن الأسئلة التي يحمد سائلها تلك الأسئلة التي يريد صاحبها أن يتعرف على ما أنزله الله في كتابه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ [المائدة:١٠١]، ويكون السؤال عنها بالاستفصال عن آية تحتمل معنيين، ولا مرجح لأحدهما على الآخر، أو يكون بالاستفصال عن أمر خفي على السائل المراد منه، يقول ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ [المائدة:١٠١] «أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله

---

(١) جامع العلوم: ٩٠.

قد ينزل بسبب السؤال تشديد وتضييق...، ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة، فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها))[1].

وهذا الذي بيناه هنا له أمثلة كثيرة، فهذه عائشة تسأل الرسول ﷺ عن قوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون:٦٠]، فتقول: يا رسول الله، أهم الذين يذنبون وهم مشفقون ؟ فقال: (لا، بل هم الذين يصلون وهم مشفقون، ويصومون وهم مشفقون، ويتصدقون وهم مشفقون، ألا يتقبل منهم)[2].

ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه: ((أنه أنزلت: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ [البقرة:١٨٧]، ولم ينزل (من الفجر) وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد من الفجر فعلموا أنه إنما يعني: الليل والنهار))[3].

المعلم الرابع عشر

النهي عن التشدد في التدين

بينا فيما سبق أن الله جعل هذه الشريعة المباركة شريعة سمحة ميسرة، وأن التكاليف التي كلفنا بها في وسع الإنسان وطاقته، وإذا كان الامر كذلك فإن الإسلام لم يبح لأتباعه

---

(١) تفسير ابن كثير: ٦٦٣/٢.

(٢) قال محقق زاد المسير: ٤٨٠/٥ ((رواه أحمد في ((المسند)) والترمذي وابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي))أ.هـ وقد نقل ابن الجوزي الرواية بالمعنى ولم نجد هذه اللفظة فيما بين أيدينا من المصادر، ولفظ أحمد وغيره: ((لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل)) وهناك الفاظ أخرى والله أعلم [المجلة].

(٣) الحديث رواه البخاري: فتح الباري: ١٣٣/٣.

أن ينحرفوا عن هذا النهج باختراعهم طرقا يشددون بها على أنفسهم وعلى الناس الذين يقتدون بهم ويخالطونهم.

وقد حذر الله المؤمنين من هذا الاتجاه في قوله: ﴿يا أيها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله﴾ [المائدة:٨٧-٨٨].

يقول الشاطبي في هذه الآية: ((روي في سبب نزولها أخبار جملتها تدور على معنى واحد: تحريم ما أحل الله من الطيبات تديناً أو شبه التدين، والله نهى عن ذلك، وجعله اعتداء، والله لا يحب المعتدين))[1].

وقد ساق ابن كثير في تفسيره الأسباب التي نزلت الآية فيها.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: (لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني) رواه ابن أبي حاتم وروى العوفي من طريق ابن عباس نحواً من ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها – أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (ما بال أقوام يقول أحدكم كذا وكذا، ولكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

---

(١) الاعتصام للشاطبي: ٢/٥٩.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم...﴾[1] وكذا رواه الترمذي وابن جرير...، وقال الترمذي حسن غريب، وروي مرسلاً وموقوفاً على ابن عباس[2].

قال الشاطبي: «وهذا كله واضح في أن جميع هذه الأشياء تحريم لما هو حلال في الشرع، وإهمال لما قصد الشارع إعماله – وإن كان بقصد سلوك طريق الآخرة – لأنه نوع من الرهبانية في الإسلام»[3].

وقال: «وعلى ذلك جرت الفتيا في الإسلام: ان كل من حرم على نفسه شيئاً مما أحل الله فليس ذلك التحريم بشيء، فليأكل إن كان مأكولا، وليشرب إن كان مشروباً، وليلبس إن كان ملبوساً، وليملك إن كان مملوكاً»[4].

والنصوص والأحاديث التي سقناها تدل بوضوح على أن مراد الذين أرادوا تحريم الطيبات على أنفسهم أو قيام الليل كله وصيام الدهر كله هو الإغراق في العبادة، وهو منهج خاطىء حذر منه الرسول ﷺ أشد التحذير.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها[5]، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !! قال أحدهم: أما أنا

---

(١) سورة المائدة: ٨٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦٢٦/٢.

(٣) الاعتصام: ٦٣/٢.

(٤) الاعتصام: ٦٤/٢.

(٥) تقالوها: استقلوا هذا المقدار من العبادة لأنفسهم، فأرادوا أن يكثروا منه.

فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم قلتم كذا وكذا ؟ أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[1].

فالرسول ﷺ لم يرد هذا الغلو في التعبد، وجعل المقياس في هذا هو هديه ﷺ، وأخبر أن خلاف هديه يعد انحرافاً عن سنته.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص قد أقسم أن يصوم النهار، ويقوم الليل ما عاش، وكان يختم القرآن في كل ليلة، وكان شأنه أن زوجه أبوه امرأة، فسألها والده يوما عنه، فأخبرته بفعله، فشكاه إلى الرسول ﷺ، فلم يقره الرسول ﷺ على منهجه، وقال له: (لا تفعل، صم وأفطر، ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزوَّرِك[2] عليك حقاً).

وقال له: (إنك لتصوم النهار، وتقوم الليل؟) قال: نعم، قال: (إذا فعلت ذلك هجمت[3] له العين،ونفهت[4] له النفس، لاصام من صام الأبد).

وأرشده إلى أن يصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فقال: يا رسول الله: إني أطيق أجد قوة، قال: (فصم يوماً، وأفطر يومين) قال: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال (فصم يوماً، وأفطر يوماً)، فلما قال: إني أطيق أفضل من ذلك، أبى الرسول ﷺ، وأخبره أنه لا أفضل من

---

(١) جامع الأصول: ١/٢٠٠.

(٢) الزور: الزائرون.

(٣) هجمت العين: إذا غارت، ودخلت في نقرتها، من الضعف والمرض.

(٤) نفهت: بكسر الفاء، إذا أعيت وكلت.

ذلك الصيام، وأنه كان صيام نبي الله داود.

وأمره أن يقرأ القرآن في كل شهر، فقال: إني أطيق أفضل من ذلك، فأمره أن يقرأه في عشرين ليلة، ثم في عشر ثم في سبع، ونهاه أن يزيد على ذلك.

وأرشده إلى أن أفضل الصيام والقيام صيام داود وقيامه (إن أحبَ الصيام إلى الله: صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً)[1]

والاغراق في التعبد يرهق النفس، ويشوش الفكر، ويجعل الميزان يميل إلى جهة واحدة، والاسلام إنما هو قيام بالتكاليف كلها على نحو متوازن، كيف يستطيع من استغرق وقته في جانب واحد من التكاليف أن يقوم ببقية التكاليف من الإنفاق على الزوجة والأبناء، ورعاية حقوقهم، ورعاية حقوق الجار والزوار، والنظر في مصالح المسلمين، وغير ذلك من الأعمال؟!

وقد تمل النفس فتترك العمل، وفي الحديث: (اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإن الله – تبارك وتعالى – لا يمل حتى تملوا، فإن أحب العمل إلى الله أدومه، وإن قل) رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود، واللفظ للنسائي.[2]

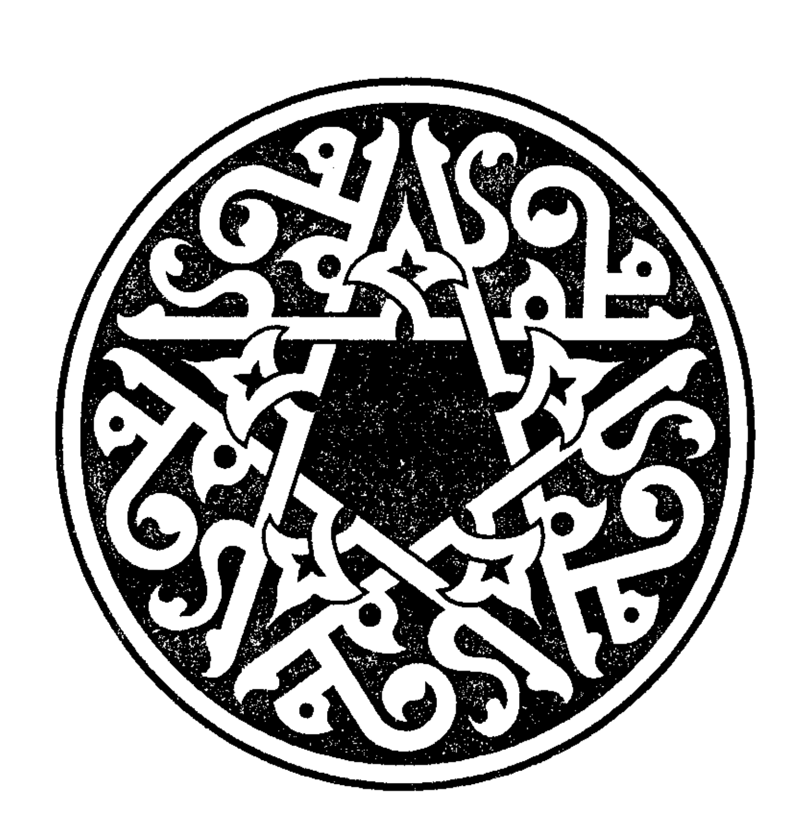
وهذا المنهج الذي هو التشدد في الدين منهج سلكته الأمم السابقة، وقد ذمها الله بهذا الفعل ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾ [الحديد:٢٧]، وحذر الرسول ﷺ أمته أن تسلك سبيل الأمم من قبلها في هذا، ففي سنن أبي داود عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ

---

(١) هذا الذي ذكرناه مأخوذ من مجموع روايات الحديث المروية في البخاري ومسلم، وقد ساقها ابن الأثير في كتابه جامع الأصول: ٢٠٣/١-٢٠٩.

(٢) جامع الاصول: ٢٠٩-٢١٣.

قال: (لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم، فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) رواه أبو داود[1].



(١) جامع الاصول: ١/٢١٥. الحديث رواه أبوداود وفيه ضعف، وله شواهد ومتابعات عند أبي يعلى والطبراني في الكبر والأوسط والبيهقي في شعب الإيمان يكون بها حسن أن شاء الله. [المجلة].

شهادة الإنجيل

على أن عيسى عليه السلام عبدالله ورسوله

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

الحلقة الثانية والأخيرة[1]

بقلم: الشيخ عبد الرحمن عبدالخالق

خلاصة معتقد أهل الإسلام في عيسى

ابن مريم عليه السلام كما دل على ذلك الكتاب والسنة

١- عيسى عليه السلام عبدالله، ورسوله أرسله الله - سبحانه وتعالى - إلى بني إسرائيل ليقيمهم على الدين الصحيح، بعد أن فسدت أحوالهم.

٢- أيد الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام بكثير من المعجزات؛ لتكون دليلاً على صدقه ورسالته، ومن ذلك إحياء الموتى، وإرجاع البصر إلى عيون العمي، والسمع إلى الصم، وإبراء المشلولين، ومن بهم عاهات تستعصي على علاج البشر، كشفاء الأبرص، وكذلك إخبار الناس بما يدخرون في بيوتهم، وما سيأكلونه في الغد، وتكثير الطعام القليل؛ ليشبع العدد الكبير من الناس، وجعل الله عيسى عليه السلام مباركاً في أي مكان يكون فيه.

---

(١) نشرت الحكمة في العدد السابق القسم الاول من هذه الدراسة، وننشر في هذا العدد القسم الثاني والاخير منها.

٣- دعا عيسى عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان هو عليه السلام نموذجاً، ومثلاً في العبادة والتقى، فلم يعرف عنه ذنب قط، وأمضى حياته بعد الرسالة في الدعوة وجهاد الكلمة، ولم يصرفه عن ذلك زوجة، ولا ولد، ولا مسكن، ولا تجارة، وكان كل همه أن يخلص الناس دينهم لخالق السموات والأرض، وأن يعملوا للآخرة الباقية، وأن يتمسكوا بحقيقة البر والتقوى، وليس بالظاهر فقط.

٤- كانت بداية عيسى عليه السلام نذراً نذرته امرأة عمران، حيث نذرت لله أن تجعل ما في بطنها خادماً لبيت الله، منقطعا للعبادة فيه، ولكنها وجدت أن حملها الذي وضعته أنثى، فاستمرت في الوفاء بنذرها كما نذرته، وسمت هذه الأنثى مريم، وكان من فضل الله عليها أن جعلها في كفالة نبي الله زكريا، الذي كان يسوس بني إسرائيل كما هي سنة الله فيهم، أن يكون النبي مرشداً ومعلماً، وكذلك متولياً لشؤونهم الحياتية.

وكان زكريا كلما دخل محراب مريم (والمحراب هو الخلوة التي تلحق ببيوت الله من أجل الانقطاع للعبادة) وجد عندها الفاكهة في غير أوانها، فإذا سألها زكريا عن ذلك قالت: هو من عند الله؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم لما كبرت مريم وبلغت مبلغ النساء أرسل الله إليها جبريل (روح القدس، وملاك الرب)، فدخل عليها محرابها في صورة رجل، فاستعاذت بالله سبحانه، فأخبرها أنه ملاك الرب، قد جاءها ليبشرها بأن الله قد قضى أن يهبها ولداً مباركاً، يكون نبياً لبني إسرائيل، ويدعوهم إلى الله، ويقيمهم على الحق، وأن الله سيعلمه التوراة، وينزل عليه الإنجيل، ويؤيده بالمعجزات. فاستعظمت أن يكون منها ولد، وليس لها رجل، فكيف؟!!

فأخبرها ملاك الرب جبريل، روح القدس، أن الله - عز وجل - قادر على كل شيء، وأنه يخلق ما يشاء مما يشاء، وأنه إذا قضى أمراً، فإنه يقول له: كن فيكون... ثم نفخ في جيب درعها، فحملت من تلك النفخة كما تحمل النساء.

ثم لما جاءها الوضع خرجت إلى مكان منعزل، بعيداً عن أعين الناس، فوضعت ابنها عيسى عليه السلام، وباتت في حال عظيمة من الخوف من الفضيحة والذل، والوحشة، والانكسار، فتمنت أن تكون قد ماتت قبل هذا الابتلاء، أو أن تكون شيئاً منسياً لا يأبه له أحد، ولا يتذكره أحد: قالت: ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ [مريم:٢٣].

فأنطق الله وليدها، وهو ما زال ملقى تحتها قائلاً: أماه لا تجزعي، ولا تحزني هذا جدول ماء، فاشربي منه، وهذه النخلة، هزي جذعها يهتز، ويسقط عليك من رطبها... وإذا رأيت أحداً فصومي عن الكلام، وسأتولى أنا الرد عنك.

وكانت هذه أول معجزاته عليه السلام فلما حملته مريم، وعادت إلى أهلها، استعظموا أمرها عندما وقعت أعينهم عليها، وهي تحمل غلاماً، وبادروها باللوم والتعنيف قائلين: يا مريم لقد جئت شيئاً فريا، لقد أتيت شيئاً منكراً أيتها العابدة الناسكة، لم يكن أحد من أهلك على هذا المسلك المشي؛ فلم يكن أبوك رجل سوء، ولا أمك بغية زانية، ولا أحد من إخوانك، فما كان منها –وقد نذرت لله صوماً عن الكلام– إلا أن أشارت إليه؛ أي اسألوا ابني عن نفسه، فاستنكروا منها ذلك، أن تشير إلى طفل رضيع؛ ليرد عنها، ويحدث الناس: ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ [مريم:٢٩].

فانتصب عيسى لبيان حقيقة نفسه، وتبرئة والدته فقال: إنني عبد الله، سأعيش لأعمل بالتوراة، ولأكون نبياً رسولاً من الله، وسينزل الله علي كتاباً يتلى هو الإنجيل، وسأكون مثلاً يحتذى في الخلق، والفضل والعلم والتقى، ورجلاً مباركاً في كل مكان، وسأكون مصلياً عابداً لله الذي أرسلني لأدعو الناس إلى عبادته: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت، ويوم أموت، ويوم أبعث حياً﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

٥- ولما بلغ عيسى عليه السلام مبلغ الرجال، آتاه الله علم التوراة، وأنزل عليه الإنجيل، وأرسله إلى بني إسرائيل رسولاً معلماً داعياً إليه، وأيده بصنوف من المعجزات.

ولكن بني إسرائيل وقفوا منه موقف التكذيب، شأنهم معه كشأنهم مع سائر أنبيائهم ورسلهم، فعارضوه، وأنكروه؛ عامتهم وجمهورهم، ولكن آمن به بعضهم. ثم اشتد مكر اليهود به وسعيهم في إبطال دعوته، وقطع رسالته، فوشوا به إلى الحاكم الروماني في فلسطين ليقتله. ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ [آل عمران:٥٤].

ولما جاء الوقت الذي أرادوا فيه تنفيذ جريمتهم، وأرادوا القبض على عيسى، وقتله وصلبه، ألقى الله شبهه على رجل آخر، وأصعده الله إلى السماء عنده، كما قال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ [آل عمران:٥٤-٥٥]. فقبض اليهود، وأعوان الحاكم الروماني، على من ألقى عليه شبهه، واقتادوه، وصلبوه، وقتلوه، فظن كثير من الناس أن المصلوب هو عيسى عليه السلام، ولكن الخاصة من تلاميذه هم الذين كانوا يعرفون حقيقة ما حدث.

٦- يعتقد أهل الإسلام أن عيسى عليه السلام حي موجود في السماء؛ وأنه سينزل في آخر الزمان في شرقي دمشق، فيصلي مع المسلمين من أمة محمد ﷺ، ويقود أهل الإيمان منهم في فترة عصيبة، بها فتن عظيمة، ومن هذه الفتن ظهور المسيح الدجال الذي يزعم أنه هو الله، والذي تجري على يديه أمور عظيمة من خوارق العادات، كأمره للسماء أن تمطر فتمطر، وللأرض أن تخرج كنوزها، ومعادنها، فتخرجها، وإحيائه لبعض الموتى. ولكنه مع ظهور هذه الخوارق فهو كافر ملعون، مدع للألوهية والربوبية، أعور العين اليمنى، لا يتبعه إلا الأشرار، والفجار، والكفار، ويفر منه كل مؤمن تقي...

ثم يكون من شأن عيسى المسيح الحقيقي، أن يلحق بهذا المسيح الكذاب، فيقتله ويطهر الأرض من شره وكفره، وعندما ينزل عيسى عليه السلام، يأمر بكسر الصلبان وقتل

عبدتها من أهل الأوثان، ويأمر بقتل الخنزير الذي استباح أكله المدعون للنصرانية وأتباع المسيحية، ويأمر الناس بالصلاة، ويحكم بين الناس بالقرآن.

٧- عيسى عليه السلام هو أحب الرسل إلى أهل الإسلام بعد محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه آخر نبي قبل نبينا محمد ﷺ، وهو آخر من بشر به من الرسل العظام، وهو الذي يقود أمة الإسلام في آخر الزمان، وقد قال فيه رسول الله ﷺ محمد بن عبدالله: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بيني وبينه نبي)[1].

٨- ويعتقد المسلمون أن النصارى القائلين إن عيسى عبدالله، ورسوله، وكلمته، والذين شهدوا في عيسى بما شهد به الإنجيل أنه عبد رسول، وأنه جاء مبشراً بمحمد ﷺ، فهؤلاء مسلمون مؤمنون، وأن من مات على ذلك قبل مبعث رسولنا محمد ﷺ فهو من أهل الجنة، ومن أدرك النبي محمداً وآمن به منهم، فله أجره مرتين؛ مرة للإيمان بعيسى عليه السلام، ومرة للإيمان بمحمد ﷺ.

وأما من اعتقد من النصارى أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله ذاته ذاته، أو أنه ثالث ثلاثة (أقنوم الرب، وأقنوم عيسى، وأقنوم روح القدس)، أو أن عيسى إله كامل، وإنسان كامل، فهؤلاء جميعاً عند المسلمين كافرون بالله، خالدون في النار خلوداً أبدياً، خارجون من دين الرسل جميعاً، ليسوا من أتباع عيسى، ولا مؤمنون بموسى، أو بأي نبي من الأنبياء. فإن أي نبي لم يقل إن ربه وإلهه الذي يدعو إليه هو عيسى بن مريم.

٩- ويعتقد المسلمون المؤمنون أن القائل إن عيسى عليه السلام مات مصلوباً، أو أن الله مكن منه اليهود ليقتلوه، ويصلبوه، ويبصقوا في وجهه أنه مؤمن بالباطل في شأن عيسى المسيح عليه السلام الذي لم يقتل، ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه، وطهره من الذين

---

(١) حديث صحيح. [المجلة].

كفروا، وألقى شبهه على غيره، وأن الذي قتلته اليهود لم يكن عيسى عليه السلام، وإن كان شبيهه.

١٠- يعتقد المسلمون أن ما ادعاه النصارى من أن عيسى هو ابن الله، أو الله، أو أن التقاء الناسوت باللاهوت، وأنه نزل ليخلص الناس من خطيئة آدم، وأنه فدى الناس بدمه، كل ذلك من الكذب والافتراء، وأن من ادعى ذلك واعتقده، فهو كافر مخلد في النار.

١١- يعتقد المسلمون أن النصارى هم أقرب الناس إلى أهل الإسلام، وأولى الناس بالإيمان بمحمد ﷺ، وأنهم لو تمسكوا بالإنجيل حقاً، وأقاموا ما بقي فيه من الحق، لآمنوا بالرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه. قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ [المائدة:٨٢].

هذه خلاصة ما يعتقده أهل الإسلام في عيسى ابن مريم عليه السلام، والذين انتسبوا إليه.

معنى أن عيسى كلمة الله:

ومعنى أن عيسى كلمة الله؛ أي إن الله - سبحانه وتعالى - قد خلقه بالكلمة، وهي (كن) كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران:٥٩]. وهذا الذي ذكره جميع المفسرين من السلف؛ أن تسمية عيسى بكلمة الله: أنه مخلوق بالكلمة، وأن الكلمة نفسها ليست ذات عيسى، أو أنه خلق منها، تعالى الله عن ذلك.

فكلمات الله غير مخلوقة، كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل؛ فكان عيسى عليه

السلام بإذن الله عز وجل؛ فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له: كـن فكـان، والـروح الـتي أرسل بها: هوجبريل عليه السلام)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فيمن زعم أن عيسى عليـه السـلام مخلـوق من الكلمة؛ أن الكلمة هي نفس عيسى قال: ((فلا ريب أن المصدر يعبر به عن المفعول بـه في لغة العرب، كقولهـم: هـذا درهـم ضـرب الأمير. ومنـه قولـه: ﴿هـذا خلـق الله﴾ [لقمان: ١١]، ومنه تسمية المأمور به أمراً، والمقدور قدرة، والمرحـوم بـه رحمـة، والمخلـوق بالكلمة كلمة. لكن هذا اللفظ إنما يستعمل مع ما يقترن به مما يبين المـراد، كقولـه: ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ [آل عمران: ٤٥]، فبين أن الكلمة هو المسيح.
ومعلوم أن المسيح نفسه ليس هو الكلام: ﴿قالت: رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قـال كذلـك الله يخلق مـا يشـاء، إذا قضـى أمـراً فإنمـا يقـول لـه كـن فيكـون﴾ [آل عمران: ٤٧]، فبين لما تعجبت من الولد أنه سبحانه يخلق ما يشاء؛ إذا قضى أمراً أن يقول له كن فيكون، فدل ذلك على أن هذا الولد مما يخلقـه الله بقولـه: (كـن! فيكـون)؛ فلهـذا قال أحمد بن حنبـل: ((عيسـى مخلـوق بـالكن؛ ليـس هـو نفـس الكـن، ولهـذا قـال في الآيـة الأخرى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثـم قـال لـه كـن فيكـون﴾ [آل عمران: ٥٩] فقد بين مراده أنه خلق بكن، لا أنه نفس كن ونحوها من الكلام))[1].

معنى أن عيسى عليه السلام روح الله:

وأما معنى أن عيسى روح الله، فهو أنـه – عليـه الصـلاة والسـلام – قـد خلـق بنفخـة الملك الذي أرسله الله إلى مريم. وهذا الملاك هـو جـبريل الـذي سماه الله روح القـدس،

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/٤٩٣، ٤٩٤.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل:١٠٢]. فمنزل القرآن على محمد ﷺ هو جبريل، وسمي روح القدس؛ أي الروح المقدسة؛ لأن الله نزهه وقدسه، وهو روح؛ لأنه نزل بالروح، كما سمى الله القرآن روحا، فقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى:٥٢].

وأما نسبة روح القدس إلى الله، فنسبة تشريف، كما قال تعالى لمريم: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ [مريم:١٧-١٩].

والنسبة إلى الله، إن كانت معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله سبحانه وتعالى، كما نقول سمع الله، وبصر الله، ورحمة الله، وإن كان المضاف إلى الله عيناً قائمة بنفسها، كما نقول بيت الله، وناقة الله، ورسول الله، فهذه مخلوقات أضيفت إلى الله، وإضافتها هنا إلى الله إضافة تشريف وتعظيم.

وكذلك الشأن في وصف عيسى بأنه روح الله، ومعلوم أن عيسى ذات إنسانية، فتسميته روح الله تسمية تشريف، كما سمي جبريل كذلك روح الله تشريفاً له، وتقديساً.

وبهذا نفهم معنى قول النبي ﷺ: (وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه)، وفي الحديث الآخر: (ائتوا عيسى عبدالله ورسوله وكلمة الله، وروحه).[١]

---

(١) صحيح البخاري: في كتاب التفسير، الباب الثاني: الحديث الاول.

الباب الثالث

النصارى أعظم الناس اختلافاً في دينهم

لا يوجد أمة عندها من الاختلاف في دينها كما عند النصارى في دينهم، وخلافهم لا يكاد ينحصر، وقد بدأ حول شخص المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وحقيقة الرب سبحانه وتعالى، وروح القدس، وتشعب إلى كل فروع دينهم، ولا يوجد فرقة منهم إلا هي تكفر الأخرى، وتلعنها.

١- الموحدون:

فمنهم من قال: إن المسيح عيسى ابن مريم هو رسول الله، فقط لم يزد على أنه رسول الله، خلق بأمر الله، وكلمته كن، وهو روح الله، أيده بالمعجزات، وأرسله إلى بني إسرائيل، يدعوهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته. وهذه عقيدة النصارى الأول الذين سلط قياصرة الروم العذاب عليهم، وأحرقوا كتبهم، وأناجيلهم، واضطهدوهم حتى أبادوهم إلا قليلاً.

وهذه الطائفة المؤمنة هي التي يوافق اعتقادها اعتقاد أهل الإسلام، وماجاء به محمد ﷺ، وهم الذين أثنى الله عليهم في القرآن كقوله تعالى: ﴿كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف: ١٤].

فالحواريون الذين وصفهم الله بأنهم أنصار الله والفئة التي آمنت من بني إسرائيل، وأظهرها الله بحجتها، ودعوتها إلى التوحيد، هم المؤمنون حقاً بعيسى ابن مريم عليه السلام.

ولقد تناقصوا بعد عيسى إلى ظهور النبي محمد ﷺ، وذلك للاضطهاد العظيم الذي وقع

عليهم، خاصة بعد أن دخل قسطنطين – القيصر الروماني – في النصرانية، وفرضها ممالك الدولة الرومانية الواسعة، ولكنه فرضها – يوم فرضها – وثنيه إلحادية كافرة، كـ جاء في مجمع نيقية الأول المنعقد في سنة ٣٢٥م، الذي وضع فيه (الأمانة النصرانيـ التي هي في حقيقتها أعظم خيانة لدين المسيح عليه السلام حين غير الدين الحق عقيـ وشريعة، وفرض دين باطل يقول : إن المسيح إله حق من إله حق، وجد مع الآب مـ الأزل.

اندراس التوحيد والدين الحق بسبب الاضطهاد وإحراق الكتب:

وبفعل الاضطهاد الشديد للقائلين بالتوحيد، ومنكري ألوهية المسيح بدأ الدين الصحـ يندرس شيئاً فشيئاً، فقد أحر قت الأناجيل الصحيحة، وكتب هذه الطائفة، وفرض الد الباطل بقوة السلاح والقانون.

وهكذا بدأ يتناقص أهل الإيمان الصحيح من النصارى، حتى إذا بعث رسول الله ﷺ يكن قد بقي منهم إلا عدد قليل، كما قال ﷺ: (إن الله نظر إلى أهل الأرض قبل أن يبعـ فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا غبرات من أهل الكتاب).

ومن هؤلاء الذين أدركهم الإسلام، وكانوا على الحق، النجاشي ملك الحبشة، الـذ تليت عليه الآيات الأولى من سورة مريم في شأن عيسى عليه السلام فأخذ عوداً مـ القش، وقال: لم يزد عيسى ابن مريم على هذا، ولا مثل هذه (أي العود)، فأنكر بطارقته ذلك. ولكنه بقي مؤمناً موحداً، ومات على ذلك، فصلى رسول الله ﷺ عليه يـ مات.

٢- مقالة آريوس:

ومنهم من رأى أنه ابن الله، ولكنه مخلوق مصنوع، وهذه مقالة آريوس الذي كـ يقول: (الآب وحده الله، والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب ولم يكن الابن). واتـ

مقالة آريوس جمع عظيم من النصارى في مصر، وفلسطين، ومقدونية، والقسطنطينية. ولكن بطريرك الإسكندرية عمد إلى لعن آريوس هذا، وطرده، وزعم أنه (رأى المسيح في النوم مشقوق الثوب، فقال له: يا سيدي من شق ثوبك؟ فقال له: آريوس)!!. وبهذه الرؤيا المكذوبة أصدر حكمه بوجوب طرد آريوس ولعنه، وإخراجه من الكنيسة. ولكن آريوس لم يستسلم، واستمر في نشر دعوته في أماكن كثيرة، وزاد أتباعه في كل مكان.

اختلاف النصارى حول حقيقة المسيح وعقد مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م:

ومن أجل ذلك عقد قسطنطين مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥م، من أجل الرد على مقالة آريوس.

يقول ابن البطريق: «بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطاركة، والأساقفة، فاجتمع في مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين في الآراء والأديان.

فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون الريميتيين.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، وهي مقالة سابليوس وشيعته.

ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مرّ في بطنها كما يمرّ الماء في الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة البيان وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت، كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي ابن الله، ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد،

وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس، وهي مقالة بولس الشمشاطي بطريرك أنطاكية وأشياعه، وهم البوليقانيون.

ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل، صالح، وطالح، وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس.

ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهي مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً)). أ.هـ.

ولما وجد قسطنطين أنهم مختلفون في حقيقة المسيح على هذا النحو، اختار من المجتمعين ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، من الذين ارتضى مقالتهم في ألوهية المسيح، وعقد لهم مجلساً خاصاً، وأصدروا القرارات التي أعلنت ألوهية المسيح عليه السلام أنه موجود في الأزل من جوهر أبيه، وأصدروا ما سموه (بالأمانة المسيحية)، وقد كان هذا - كما أسلفنا - أعظم خيانة للدين، الذي بعث به المسيح عليه السلام.

وهكذا استطاع قسطنطين أن يجعل دين القلة، وهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، هو الدين الرسمي، وينفي الكثرة المخالفة لألوهية المسيح ويضطهدها، وزاد قسطنطين أن أعطى خاتمه وسيفه إلى هؤلاء، وسلطهم على من يخالفهم في الاعتقاد. هذا مع أن قسطنطين هذا لم يعلن الدخول في المسيحية إلا وهو على فراش الموت.

وهكذا نشأ الحكم الكهنوتي الذي يحتكر فهم الدين وتفسيره، ويحرم من الجنة من يخالفه، ويطرد من الكنيسة والنصرانية من يضاده. وكان هذا من أعظم البلاء على دين النصرانية، حيث فرض عليهم الانحراف، والخروج عن تعاليم المسيح عليه السلام، وأمر هذا المجمع بتحريق جميع الكتب التي تخالف العقيدة، التي خرج بها مجمع نيقية.

وهذا هو نص ما سماه النصارى (بالأمانة)، وهي القرارات التي خرج بها المجمع الأول.

الأمانة النصرانية :

١- نؤمن بإله واحد، الله الآب، ضابط الكل، خالق السموات والأرض، ما يرى وما لا يرى.

٢- ونؤمن برب واحد، يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء.

٣- الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاص نفوسنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس.

٤- وصلب عن البشر على عهد بيلاطس البنطي، وتألم، وقبر.

٥- وقام من الأموات في اليوم الثالث، كما في الكتب.

٦- وصعد إلى السموات، وجلس على يمين الآب.

٧- وأيضا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء.

ولأن هذه (الأمانة) هي خلاصة المعتقد الذي فرضته الكنيسة المؤيدة بالسلطان، وجعلت من لا يؤمن بها كافراً خارجاً من دين المسيحية، فرضت كذلك تلاوته في بداية كل قداس وصلاة، وفرضت حفظها وتلاوتها على كل مسيحي.

الخلاف حول روح القدس ومقالة (مقدونيوس) :

خرج مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م كما ذكرنا بألوهية المسيح، ولم يتعرض لحقيقة روح القدس، وقام في النصارى من يقول: إن روح القدس ليس بإله، وإنما الإله هو الآب والابن فقط في زعمهم، وكان صاحب هذه المقالة رجل يقال له (مقدونيوس)، فخشي أصحاب التأليه منهم أن تنتشر هذه المقالة، وتمتد إلى القول إن المسيح كذلك مخلوق

مصنوع، فعقد من أجل ذلك مجمع في مدينة القسطنطينية، اجتمع فيه(١٥٠) مائة وخمسون أسقفاً، وقام فيهم بطريرك الاسكندرية (ثيموثاوس) قائلاً: ((ليس لروح القدس عندنا معنى إلا أنه روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا: روح القدس مخلوق، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإن قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي، وإذ زعمنا أنه غير حي، فقد كفرنا به، ومن كفر به، وجب عليه اللعن)).

واتفق الحاضرون بعد هذه المقالة على لعن (مقدونيوس) الذي قال: إن روح القدس مخلوق، وليس هو الإله، وطردوا كذلك جميع البطاركة الذين يقولون بمقالته.

وزاد الحاضرون على ما يسمونه بالأمانة التي خرجت عن المجمع الأول: ((ونؤمن بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب، الذي هو مع الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص وحدية في التثليث، وتثليث في وحدية، كيان واحد في ثلاث أقانيم؛ إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة)).

ولا يخفى ما في الأقوال من التخبط والضلال. والمقصود هنا بيان اختلافهم في دينهم وعقيدتهم.

ومثل هذا الكلام الذي لا يستند إلى نص في الإنجيل أو التوراة، ولا إلى عقل صحيح يفرق بين الخالق والمخلوق، وبين الرب الإله خالق السموات والأرض، وبين مخلوقاته ومصنوعاته، ومخترعاته، كروح القدس الذي هو جبريل، وعيسى عليه السلام الذي خلقه من أنثى بلا ذكر، أقول مثل هذا الكلام ما كان ليجتمع الناس عليه إلا بالتقليد والإرهاب، وهذا ما فعلته الكنيسة.

مقالة نسطور ومجمع أفسس الأول سنة ٤٣١:

ولما استقرت العقيدة النصرانية عبر المجامع الأولى على القول بالتثليث: في الآب والابن، وروح القدس، قام بطريرك القسطنطينية (نسطور)، فأعلن التفريق بين الأقنو

والطبيعة فقال: الأقنوم هو الآب، هو الإله، وأما الطبيعة، فهو الإنسان، وهو المسيح، ومريم ولدت الإنسان، ولم تلد الإله. فهي أم الإنسان، وليست أم الإله، وقال: ((إن المسيح متحد مع الله بالمحبة، وأخذ منه بالألوهية)).

وقامت قيامة الكنيسة لذلك، ورأت هذا البطريرك (نسطور) قد جاء بهرطقة[1] وإلحاد؛ لأنه بذلك أنكر ألوهية المسيح، وادعى أنه فقط إنسان مملوء من البركة والنعمة، فهو رسول من الله ملهم، لم يرتكب خطيئة. وبهذا رفع نسطور المسيح شيئا فوق مرتبة الإنسانية، ولم يقل إنه بذاته إله مع الله، أو متحد بالله.

ومن أجل ذلك انعقد مجمع في مدينة أفسس سنة ٤٣١م، وخرج بالقرار الآتي:

((إن مريم العذراء والدة الله، وأن المسيح إله حق، وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم)).

ثم لعنوا نسطور وأخرجوه من رحمة الكنيسة، والدين النصراني. ولكنه ذهب يدعو إلى مذهبه، فتبعه كثيرون في نصيبين، والعراق، وأرض الجزيرة.

ثم نشأ الخلاف جديداً حول كيفية اجتماع الإله مع الإنسان، أو ما يسمونه التقاء اللاهوت بالناسوت...هل أصبح بعد ذلك في عيسى عليه السلام طبيعة واحدة أم طبيعتان منفصلتان؟ وكيف أصبح عيسى عليه السلام إلهاً كاملاً؟ وإنساناً كاملاً؟ كيف؟

مقالة (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية وإعلان الطبيعة الواحدة للمسيح ومجمع أفسس الثاني:

وخرج بطريرك الإسكندرية (ديسقورس) برأي خالف فيه ما خرج به المؤتمرون في مجمع

---

(١) الهرطقة في لغة النصارى: معادلة لمعنى البدعة والالحاد عند المسلمين.

أفسس الأول، وهـو أن للمسـيح طبيعـة واحـدة، لا طبيعتـين منفصلتـين، وأن المسـيح امتزج فيه اللاهوت بالناسوت، كما يمتزج النار بالحديد.

وقام بطريرك القسطنطينية معارضـاً لهـذا القـول، ووصـل الخـلاف إلى أن أمـرت مل الرومان في ذلك الوقت بانعقاد مجمع لمناقشة هـذا الأمـر، فـانعقد مؤتمـر (خليقدونيـة ٤٥١ م)، وخرج بالقرار الآتي:

«إن مريم العذراء ولدت إلهنا، ربنا يسوع المسيح، الذي هو مع أبيه في الطبيعـة الإله ومع الناس في الطبيعة الإنسانية، وشهدوا أن للمسـيح طبيعتـين، وأقنومـاً واحـداً، وو واحداً، ولعنوا نسطور، ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالتهما».

ونفي ديسقورس (بطريرك الإسكندرية) إلى فلسطين، فدعا لدعوته، هناك، فاتبعه جم أهل فلسطين وبيت المقدس.

وانشقت تبعاً لذلك الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأوربية، وكان سبب الاختلاف أسلفنا حول: أللمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟

ولقد لخص صـاحب كتـاب تـاريخ المسـيحية في مصـر عقيـدة الكنيسـة المصريـة فق «كنيستنا المستقيمة الرأي، التي تسلمت إيمانها من كيرلس، وديسقورس، ومعها الكنـا الحبشية والأرمنية، والسريانية الأرثوذكسية، تعتقد بـأن الله ذات واحـدة مثلثـة الأقا أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الـروح القـدس، وأن الأقنـوم الثـاني؛ أي أقنـوم الا تجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، فصير هذا الجسـد معـه واحـداً وحـدة ذ جوهرية منزهة عن الاختلاط، والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصـال، وبهـذا الا صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة».

القول بالمشيئة الواحدة وانفصال المارونية:

ظهـر في سـوريا راهـب يسـمى يوحنـا مـارون في القـرن السـابع، كـان يقـول بالمش

الواحدة، مع قوله بالطبيعتين. وخالف بذلك قرارات المجامع السابقة التي تقول بطبيعتين ومشيئتين، فاجتمع من أجل ذلك المجمع السادس بمدينة القسطنطينية سنة ٦٨٠م، وأقر لعن من قال: إن للمسيح مشيئة واحدة، كما لعن وكفر وقطع من قال: إن للمسيح طبيعة واحدة، وخرج بالقرار الآتي:

((إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد، الذي هو الكلمة الأزلية، الدائم المستوى مع الآب الإله في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تاماً بناسوته، تاماً بلاهوته في الجوهر، الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين، وفعلين ومشيئتين، في أقنوم واحد)).

((كما شهد المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ م أن الإله الابن في آخر الأزمان اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسداً إنسانياً بنفس ناطقة عاقلة، وذلك برحمة الله محب البشر، ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل. ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد، الكلمة الأزلية المتجسدة، التي صارت بالحقيقة لحما - كما يقول الإنجيل المقدس - من غير أن تنتقل من مجدها الأزلي، وليست بمتغيرة، ولكنها بفعلين، ومشيئتين، وطبيعتين؛ إله وإنسان، وبهما يكمل قول الحق. وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها، فتعملان بمشيئتين غير متضادتين)).

الاختلاف حول منشأ انبثاق روح القدس وانفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية:

علمنا أن المجمع الأول قرر ألوهية المسيح، ولعن من يقول بغير ذلك وكفره. ثم جاء المجمع الثاني وقرر ألوهية روح القدس، وأنها جزء من ثلاثة أجزاء - كما يدعون - ثم جاء المجمع الثالث فقرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله (اللاهوت والناسوت كما يقولون)، وأنه ليس إنساناً فقط، وأن مريم - عليها السلام - ولدت الإله، والإنسان.

وجاء المجمع الرابع فقرر أن المسيح له طبيعتان منفصلتان، لا طبيعة واحدة، ومشيئتان كذلك.

وعلمنا أن الكنيسة المصرية انفصلت عن كنيسة أوربا؛ لقولها بالطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة، وانفصلت الكنيسة المارونية السورية؛ لقولها بالمشيئة الواحدة، والطبيعتين.

وعلى مدار سبعة مجامع، آخرها مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ م، لم تناقش وتطرح قضية (كيفية وجود روح القدس)، الذي قرروا فيه أنه جزء أو أقنوم من الرب المثلث عندهم، وهل روح القدس هذا كان وجوده مع الآب، أم أن وجوده متأخر عن وجود الله؟! وهل وجد روح القدس من الآب وحده، أم من الابن وحده، أم منهما جميعاً، أم أنه واجب بذاته...؟!

وجاء بطريرك القسطنطينية (فوسيوس)، وأثار فكرة روح القدس، وحكم بأن روح القدس إنما انبثق (هكذا) من الآب وحده، فتصدى له بطريرك روما قائلاً: إن روح القدس انبثق من الآب والابن جميعاً.

وقام كل منهما بعقد مجمع، أو مؤتمر خاص. وقرر كل مجمع العقيدة التي اختارها بطريركهم.

وأعلن كل مجمع منهما لعن الآخرين وطردهم من الدين المسيحي والرحمة الإلهية، وكفر كل مجمع المجمع الآخر، وقام بطريرك روما بعزل بطريرك القسطنطينية، وعقد مجمعاً في القسطنطينية سنة ٨٦٩م، أصدروا فيه القرارات الآتية:

١- أن انبثاق روح القدس إنما كان من الآب والابن جميعاً.

٢- أن كنيسة روما هي الحكم والفيصل في كل خلاف يتعلق بالمسيحية.

٣- أن كنيسة روما هي مرجع المسيحية في كل مكان.

٤- لعن البطريرك (فوسيوس)، وجميع أتباعه، وحرمانه، وقطعه من الكنيسة.

ولكن (فوسيوس) هذا استطاع أن يعود إلى منصبه مرة ثانية (بطريرك القسطنطينية)، وكان أول أمر فعله أن يعقد مجمعاً آخر في القسطنطينية أيضاً سنة ٨٧٩م، وقد قرر هذا المؤتمر رفض جميع القرارات التي أصدرها المجمع السابق، وقرر أن روح القدس إنما كان انبثاقه من الآب وحكم كذلك بكفر الآخرين ولعنهم.

وهكذا انفصلت الكنيسة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية عن الكنيسة الغربية وعاصمتها روما.

ومن العرض السابق نستفيد أن النصارى اختلفوا في أصل دينهم على المقالات الآتية:

أولا : مقالة الحق والدين الصحيح:

وهم الذين اعتقدوا أن المسيح عبد الله ورسوله، وأنه مخلوق مصنوع، ولكن الله ملأه حكمة، وعلماً ورحمة، وجعله مباركاً أينما كان، وهذه هي العقيدة الصحيحة، ومن الذين كانوا على هذه العقيدة تلاميذ المسيح عليه السلام بشهادة الله سبحانه وتعالى لهم في القرآن، كما قال تعالى: ﴿فلما أحس...﴾ [آل عمران: ٥٢]، وأمة عظيمة على الحق كما جاء في الأحاديث النبوية الكثيرة. ومنها حديث: (**عرضت علي الأمم... ثم رفع لي سواد عظيم فإذا عيسى وأمته**) - الحديث.

ومن الموحدين المشهورين آريوس، وكان لأتباعه انتشار عظيم في فلسطين، ومقدونية، والقسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، وأسيوط بمصر، ويقول ابن البطريق المؤرخ: ((فأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريسيون)).

وكذلك غلب الأريسيون على بيت المقدس، وهذه المدن والأقاليم هي مهد النصرانية

الأولى... وكان ذلك قبل انعقاد أول مجمع للنصارى...

فلما عقـد المجمـع الأول في نيقيـة سـنة ٣٢٥ م، وخـرج بـالقول بألوهيـة المسـيح، بـ السلطان الغاشم يستعمل الاضطهاد، والقمع، والمصادرة لعقيدة التوحيـد، ويقـوم بتعقـ أفرادهـا في كـل مكـان، وقتلهـم، وتشـريدهم، فلـم يـأت الإسـلام إلا وهـم ملاحقـو مضطهدون مطيرون. ولعل كلمة الرسـول ﷺ لهرقـل: (اسـلم تسـلم، وإن لم تسـلم، فإ عليك إثم الأريسيين)، وهم أتبـاع آريوس الذين كـانوا مـا زالـوا ملاحقـين مـن قيـاص روما...

ثانيا : مقالات الباطل والشرك والضلال:

وهي متعددة جداً، وقد اختلفت النصارى على أقوال كثيرة في حقيقة الإله:

١- فمنهم من قال: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهم فرقة البربرانية.

٢- ومنهم من قال: إن المسيح كشعلة نار انفصلت من شعلة نـار، فلـم تنقـص الأولى وهي مقالة سابليوس وشيعته.

٣- ومنهم من قال: إن المسيح إنسان حلت فيه النعمة الإلهيـة بالمحبـة، والمشيئة، وسمـ ابن الله لذلك، وهذه مقالة (بولس الشمشاطي)، وقوله قريب من قول الموحدين...

٤- ومنهم من قال: إن المسيح إله كامل، وإنسـان كـامل، وأنـه اجتمـع فيـه اللاهـو والناسوت بإرادتين ومشيئتين. وهو ما خرج به مجمع نيقية الأول، وفرضه في الإمبراطور الرومانية.

٥- ومنهم من قال: إن روح القدس إله مع الله والابن، وكفر من قال بغير ذلك.

٦- ومنهم من قال: إن روح القدس مخلوق مصنوع، وليس بإله.

٧- ومنهم من قال: إن المولود من مريم هو الإنسان، وليس الإلـه، وأن المسـيح متحـ

مع الله بالمحبة والموهبة فقط؛ أي لم يجتمع فيه اللاهوت والناسوت، وهي مقالة نسطور.

٨- ومنهم من قال: إن المسيح لما اتحد فيه اللاهوت بالناسوت تحول إلى طبيعة واحدة، وهي مقالة ديسقورس بطريرك الإسكندرية ومن شايعه. وكفر من يقول بالطبيعتين والمشيئتين.

٩- ومنهم من قال: إن المسيح اجتمع فيه اللاهوت والناسوت، وأصبحا طبيعتين ومشيئتين، ووجه واحد، وأقنوم واحد. وهذه العقيدة هي التي خرج بها مجمع خليقدونية سنة ٤٥١ م.

١٠- ومنهم من قال: إن المسيح له طبيعتان، ولكن له مشيئة واحدة، وليس مشيئتان. وهي مقالة يوحنا مارون، ومن شايعه.

وأما اختلاف النصارى في الشرائع، والعبادات، فلا يوجد عندهم شيء من دينهم أجمعوا عليه، واتفقوا عليه، في صلاة أو صيام أو طعام...

العبرة التي نستفيدها من اختلاف النصارى في أصل دينهم:

١- أن الخلاف الذي نشأ في النصرانية كان أساسه حقيقة الإله.

٢- أن الذين غلبوا على أمرهم، وقرروا ألوهية المسيح عليه السلام، كانوا القلة، ولكنهم كانوا مؤيدين من السلطان الغاشم، بدءاً بقسطنطين ابن هيلانة. وتبعه على ذلك معظم أباطرة الرومان، الذين لاحقوا عقيدة التوحيد.

٣- أن النصرانية المثلثة إنما فرضت بالبطش والطغيان.

٤- أن الدين الحق الذي جاء به المسيح عليه السلام من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، وليس إلها مع الله. هذه العقيدة قد كانت عقيدة الأغلبية التي لاقت الاضطهاد، والنفي والتشريد، فانقرضت شيئاً

فشيئاً حتى جاء الإسلام، ولم يبق من أتباعها إلا القليل.

٥- أن الحكام الرومان الذين دخلوا في النصرانية لم يتنصروا، ولكن النصارى هم الذين ترومو، وحولوا النصرانية من عقيدة التوحيد إلى عقيدة وثنية شركية تؤله البشر وتعبدهم.

٦- أن هؤلاء النصارى المشركين بـا لله لا يستدلون على عقيدتهم بنص صريح من التوراة (التي يزعمون الإيمان بها، وأنها العهد القديم)، ولا من الإنجيل.

فالتوراة لم يأت فيها نص قط يذكر التثليث، ولا الصلب، ولا الفداء، ولا أن روح القدس إله مع الله، وإنما في التوراة التوحيد فقط...

وكذلك الإنجيل مملوء كما أسلفنا ببيان النصوص القطعية التي تثبت بشرية المسيح، وعبوديته لله رب العالمين.

٧- أن أصدق وصف يطلق على النصارى هو (الضالون)، وذلك أنهم قد ضلوا حقاً، وكان ضلالهم في أصل دينهم، وهو حقيقة الرب الإله الذي له العبادة والخضوع، الذي خلق السموات والأرض، وخلق المسيح وأمه، ويملك أن يهلك المسيح وأمه، ومن في الأرض جميعاً كما قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً و لله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة:١٧].

الباب الرابع

الأدلة على بطلان وفساد دين النصرانية

عرفنا في الأبواب السابقة أن عيسى عليه السلام قد جاء بالدعوة إلى توحيد الله وعبادته، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل الذين سبقوه، وأنه جاء مبشراً برسول يأتي من

بعده، وهذا الرسول هو محمد ﷺ الذي دعا إلى ما دعا إليه عيسى عليه السلام، وجميع الرسل الذين سبقوه. وبهذا يتبين أن جميع الرسل كانت دعوتهم واحدة، وأنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وعرفنا أن أصحاب عيسى عليه السلام والجمع العظيم من أتباعه كانوا على الدين الصحيح والتوحيد، وأن التبديل جاء بعد ذلك. وقد بدأه شاول اليهودي الذي تسمى ببولس، وادعى أنه رسول من عند المسيح، الذي جاءه في النوم، وأمره أن يدعو إلى النصرانية، فذهب يدعو إلى دين مبتدع جديد، مدعياً أن عيسى عليه السلام هو ابن الله لذاته، وأنه جزء من الله، وأن جوهره من جوهر أبيه، وأنه إله كامل.. ثم أبطل الشريعة التي عمل بها عيسى وأمر بها.

وكان هذا الدين المحرف هو الدين الذي أخذت به القياصرة، وفرضه الرومان، الذين أدخلوا النصارى في وثنيتهم، وعبادتهم للآلهة المتعددة، والتماثيل. ولم يدخل الرومان في دين المسيح والنصرانية الحقة. أعني أنهم لم يتنصروا، ولكن النصارى هم الذين تروموا، وذلك لقهر السلطان وملاحقة الموحدين...

ومن ثم اندراس الدين الحق شيئاً فشيئاً، وبقاء الدين الباطل الذي اعتنق هذه العقائد الوثنية، فقالوا بألوهية المسيح، وأنه إله حق من إله حق، وأنه إنسان كامل، وأنه روح القدس إله مع الله، فهؤلاء الثلاثة هم الإله - في زعمهم - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأن كل واحد منهم يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعذب ويرحم، ويغفر الذنوب، ويدعى، ويسجد له...

وأن كل من ادعى - حسب رؤية فردية رآها - أنه رأى المسيح، وأنه أرسله للدعوة، كان يبدأ بعد ذلك في دعوة النصارى وابتداع ما يشاء من الدين، وبذلك تعدد الرسل الذين بعثوا أنفسهم رسلاً من قبل المسيح بادعاء رؤيته في النوم... وذلك منذ أن رفع الله المسيح إليه إلى اليوم...

وهؤلاء المدعون الكاذبون بأن المسيح اختارهم، وأرسلهم إلى الناس، غيروا دين المسيح، وأعطوا للناس ما يشتهون من الدين، فأسقطوا عنهم التكاليف، وأباحوا لهم ما حرمه الله عليهم، واجتهدوا فقط في جمع أموالهم، وصرفها على ملذاتهم وشهواتهم، ولا يزال النصارى إلى يومنا هذا يكتشفون فساد أخلاق هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم عليهم باسم المسيح عليه السلام.

ونحن نعرض هنا في هذا الباب مجموعة من الأدلة القاطعة التي لا تُدْفَعُ على فساد الدين المحرف المبدل، الذي اخترعه هؤلاء الكذابون وابتدعوه، الذين زعموا أن المسيح عليه السلام جاءهم في النوم، وأمرهم بالدعوة إلى المسيحية، وبذلك نشروا التثليث والشرك، وأحلوا المحرمات، وأبطلوا شرائع الأنبياء، ووضعوا أنفسهم في خدمة الشيطان. بل جعلوا من أهم الأعمال النصرانية محاربة الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، الذي بشر به عيسى، والذي هو وعيسى أخوان يدعوان إلى دين واحد، شأنهما شأن جميع الرسل السابقين، وأن كلاً منهما من أبناء إبراهيم عليه السلام، محمد ﷺ من أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وعيسى بن مريم عليه السلام من أبناء داود من فرع يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

والشاهد أن هؤلاء الكذابين الذين زعموا أن عيسى عليه السلام جاءهم مناماً، أو ظهر لهم في السماء، وأمرهم بالدعوة إلى النصرانية، انطلقوا يحاربون الله، ورسالته، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويعملون لإطفاء نور الله في الأرض، ويجمعون الأموال لإبطال دعوة التوحيد، وصرف الناس عن العبودية له، تبارك وتعالى.

وقد صرح عدد من مجامعهم النصرانية أن هدفهم صرف المسلمين عن الإسلام، وإن لم يدخلوا في أي دين!!، فإن مقصودهم - كما يدعون ويفترون - صرف الناس عن الشر، وتحذيرهم من الإسلام الذي جاء به محمدﷺ .

وبعد هذه المقدمة الضرورية نأتي إلى الأدلة على فساد هذا الدين المحدث المبتدع الذي

هو في حقيقته تبديل للدين الصحيح، الذي بعث به عيسى عليه السلام :

١- النصرانية المحرفة دين مخترع مبتدع لم يعرفه أي نبي أو رسول قبل عيسى عليه السلام ولم يقله عيسى قط:

النصرانية بعد فسادها، ودعوتها إلى الشرك، والتثليث، والصلب، والفداء، والخطيئة... وكون عيسى في زعمهم إله من الله، وأن روح القدس إله مع الله، دين مبتدع، ومخترع. فلو كان هذا الدين حقاً، هو دين الله الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، لكان هذا معلوماً منذ بداية الإنسان على هذه الأرض، منذ خلق آدم، وإرسال الرسل. فهل كان من كلام الرسل الذين أرسلهم الله - والذين يدعي النصارى الإيمان بهم - أن عيسى إله حق من إله حق، وأنه ابن الله، وأنه موجود مع الآب حسب زعمهم - منذ الأزل، وأن روح القدس انبثق (هكذا) من الآب، والابن، أو من الآب وحده - حسب قول بعضهم منذ الأزل.

أين هذه العقائد في العهد القديم (التوراة والزبور..) الذي زعم النصارى الإيمان به؟! بل أي آية فيها أن الله يرسل ولده إلى أهل الأرض، ويحصل له القتل والصلب، إلى آخر ما افتروه؟!

لقد حدث الأنبياء قبل عيسى عليه السلام بما هو أقل من هذه الأحداث المزعومة بكثير... حدث كل منهم بالأنبياء الذين يأتون بعده، وبالمسيح الدجال، والأنبياء الكاذبين، وخراب أورشليم... والفتن التي تكون قبل يوم القيامة، فهلاحدثوا بما هو أعظم من هذه الأحداث كلها، نزول ابن الله من السماء ليقتل، ويصلب في الأرض، ويفدي البشرية كلها من خطيئة أبيهم آدم التي دنستهم جميعاً حسب زعمهم، ولم يستطيعوا الفكاك منها، ولا إرضاء الرب بالتكفير عنها، فلما عجزوا عن ذلك أنزل الله ابنه ليصلب تكفيراً عن خطايا البشر بسبب ذنب أبيهم آدم. وكان هذا - في زعمهم - حباً من الله للبشر وللناس، أن يفديهم بابنه، في مكن منه اليهود ليصلبوه، ويقتلوه، ويبصقوا في

وجهه، ويصفعوه على قفاه. وكل ذلك من محبة الله لعباده، الخ.

هذا الكفر والتخليط والإجرام في حق خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى... أين كل هذا التخليط والكفر الذي جعلوه قمة الاعتقاد، وغاية الدين، وهدف الحياة؟... أين كل ذلك في كلام الأنبياء، الذين سبقوا المسيح عليه السلام، والذين يزعم النصارى الإيمان بهم وبرسالاتهم؟!

٢- لو كانت النصرانية المحرفة حقاً لكان الأنبياء والرسل جميعاً كفاراً ضلالاً:

لو كان هذا الدين النصراني المزور الزائف حقاً، لكان الأنبياء الذين سبقوا المسيح ضلالاً أو كفاراً؛ لأنهم لم يؤمنوا الإيمان الحق، ولم يعبدوا العبادة الحقة، ولم يعلموا أن لله ابناً موجوداً قبل خلق السموات والأرض، وأنه إله مع الله يدعى كما يدعى الله، بل إن هناك إلها ثالثاً يدعى معهما وهو روح القدس. فكيف ضل الأنبياء السابقون جميعاً، ولم يدعوا، ولم يصلوا، ويسجدوا إلا لإله واحد خالق للسموات والأرض؟ لم يكن معه أحد، ولم يعلموا بتاتاً أن له ابناً ولا صاحبة، ولا انبثق منه أقنوم ثالث يسمى روح القدس، وأن روح القدس هذا إله مع الله؟...

والحق أن حقيقة قول النصارى في أن الله ثالث ثلاثة هو قول بالكفر على الأنبياء السابقين، المعاصرين للمسيح نفسه، كيحى بن زكريا الذي يسمونه (يوحنا المعمدان).

فإن يحيى عليه السلام أرسل إلى المسيح من يسأله: ((أأنت هو الآتي أم ننتظر غيرك؟)).

وقتل يحيى عليه السلام وهو لا يعتقد إلا أن عيسى نبي قد بشر به الأنبياء قبل ذلك، ولم يمت على عقيدة النصارى في أن عيسى عليه السلام هو ابن ا لله، وأنه كما تقول النصارى إله حق من إله حق.

فهل يقر النصارى أن الأنبياء جميعاً قبل عيسى عليه السلام كانوا بحسب عقيدتهم، كفاراً أو ضلالاً لم يعرفوا الحق، ولم يدعوا إليه؟ !

٣- كل الذين قالوا بألوهية المسيح يكفر بعضهم بعضاً ولا يتفقون على شيء أبداً، ولا يستطيع أحد منهم أن يدلي بحجة قاطعة على عقيدته، ولا أن يبطل دين غيره:

جميع الذين قالوا بالتثليث من النصارى، وأن الإله المعبود ثلاثة؛ هو الآب والابن، وروح القدس مختلفون أشد الاختلاف في حقيقة هذه الآلهة الثلاثة على أقوال متعددة، كل قول يناقض الآخر، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى .

فمن قائل: إن الابن مساو للآب في الجوهر والصفات.

ومن قائل: إنه دونه، ومشيئة الآب غالبة عليه.

ومن قائل: إن روح القدس منبثق من الآب وحده.

ومن قائل: بل انبثق روح القدس من الآب والابن جميعاً.

ومن قائل: إن المسيح إله فقط .

ومن قائل: إنه إله وإنسان، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بغير اختلاط، وبغير امتزاج، وبغير فساد.

ومن قائل: لا، بل أصبحا طبيعة واحدة، وعنصراً جديداً.

ومن قائل: إن للمسيح (الإنسان والإله) مشيئة واحدة.

ومن قائل: لا، بل مشيئتان: مشيئة للإنسان، ومشيئة للإله... إلى آخر تخليطهم الذي لا ينتهي عند حد .

وكل من أصحاب هذه المقالات - كما أسلفنا - يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ولا يستطيع أحد منهم أن يقيم دليلاً على معتقده، فليس في الأناجيل التي بأيدي القوم دليل واحد أصلاً على أي من هذه العقائد المختلفة.

ولا يوجد عقل سليم يؤمن بهذه الخرافات والخزعبلات، التي تسوي بين خالق السموات والأرض والإنسان المخلوق المصنوع الضعيف، الذي كان يأكل ويشرب وينام، ويخاف ويبكي ويتألم، ويهرب من أعدائه، بل يمكن منه أعداءه حسب زعمهم، ويستسقيهم ليشرب، فيسقونه خلاً، ويسترحمهم، فلا يرحمونه، إلى آخر هذياناتهم.

فحسبك من فساد عقيدة اختلاف أهلها فيها وتناقضهم، وعدم استطاعة أي قوم منهم أن يقيموا دليلاً على صحة معتقدهم، وإبطال ما سواه.

٤- لم يقل نبي قط قبل عيسى إن لله ولداً، أو أنه سبحانه يولد له:

العقائد ومسائل الإيمان التي بشر بها الأنبياء جميعاً قبل عيسى عليه السلام كلها تدعو إلى توحيد الله، وأن الله إله واحد، وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وليس هناك أي دليل قط في كلام الأنبياء على أن لله ولداً، أو أنه يولد له، أو أنه يتخذ زوجة. ولو كان التثليث هذا حقاً، لكان ما نشره الأنبياء وبشروا به عقيدة باطلة وكفراً وهرطقة على حد معتقد النصارى.

٥- الأناجيل شاهدة أن عيسى عليه السلام لم يدع إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قد عقدنا باباً كاملاً أتينا فيه بعشرات النصوص من الأناجيل التي يعتمدها النصارى الآن على أن عيسى عليه السلام كان يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولا يذكر عن نفسه إلا أنه رسول الله. وهذا وحده كاف في إبطال الدين المبتدع الذي اخترعه بولس، وأقرته المجامع النصرانية بعد ذلك. فالرد على هذه العقائد الباطلة من الإنجيل نفسه هو أبلغ الرد، والأناجيل الأربعة جميعها مليئة بالنصوص الواضحة الصريحة، التي تبين أن عيسى عليه السلام لم يكن إلا مجرد رسول اصطفاه الله، وأكرمه، وعلمه، وأيده بالمعجزات، وأرسله داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد أوردنا بحمد الله عشرات من النصوص في الباب الخاص بشهادة الإنجيل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

٦- لم يقل عيسى عليه السلام قط إنه إله مساو للرب جل وعلا، وأن على البشر أن يعبدوه ويسجدوا له:

لا يوجد في الأناجيل نص صريح قط على أن عيسى عليه السلام دعا الناس إلى عبادة نفسه، أو قال لهم: أنا لكم إله مع الله فاعبدوني، أو اعبدوا أمي، أو اعبدوا روح القدس، الذي هو إله معي ومع الله. نعم فيها أن عيسى دعا الناس إلى الإيمان به، والإيمان بالرب الإله خالق السموات والأرض، والإيمان بروح القدس. ومعلوم أن الإيمان بعيسى عليه السلام على أنه عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه، حق يجب على كل مؤمن الإيمان به، وإلا كان كافراً. وهذا يتناقض بالطبع مع القول إنه إله مع الله يعبد، كما يعبد الرب سبحانه وتعالى، أو أن له من الأمر شيئاً مع الله، أو أنه خالق ورازق مثل الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وكل هذا يدلك على أن النصارى إنما اخترعوا ديناً بأهوائهم، بل نقلوا دين بعض الوثنيين القدامى، وجعلوه ديناً لله كما قال تعالى: ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾[1]، وهذا الدين المخترع ليس في الإنجيل، ولا في أقوال عيسى عليه السلام ما يدل عليه. بل إن في الإنجيل ما يضاد ذلك ويبطله.

٧- عقيدة التثليث منقولة بحذافيرها من العقائد الوثنية قبل المسيح عليه السلام:

قدمنا أن عقيدة التثليث التي قال بها النصارى لم يأت أي خبر عنها في الرسالات الأولى. بل في رسالات الأنبياء جميعاً، وإنما جاء وصف الإله مثلثاً أو ثالث ثلاثة، وبأقانيم

(١) سورة التوبة: ٣٠.

ثلاثة عند كثير من الأمم الوثنية، قبل وجود المسيح عليه السلام.

٨- القرآن المنزل على خاتم الرسل أعظم شاهد على بطلان الدين المحرف الوثني للنصرانية:

أعظم شاهد على دين النصرانية المحرف هو القرآن الكريم، الكتاب الخالد المعجز، المنزل من الله سبحانه وتعالى على خير خلقه محمد ﷺ، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين أن يأتوا بسورة من مثل سوره، فهو شهادة الله القائمة إلى آخر الدنيا، وكلمته الباقية في عباده، وحجته الدائمة على خلقه، وقوله الفصل في كل خلاف سبق نزوله، أو تأخر عنه، ولا يشكك في هذا القرآن إلا من أعمى الله بصره وبصيرته، وطمس على قلبه، وأصم أذنيه عن سماع الحق، وأعرض، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، وإلا فكل من به أدنى إيمان، ومعرفة، وعقل، ونظر، يعلم يقيناً أنه كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى، وأن محمدا ﷺ الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، وقد نشأ في مكة لم يخالط أحداً من أهل الكتاب، ولم يسمع منهم، لم يكن له أن يعلم تاريخ النبوات الأولى، وتفاصيل ما جاءت به الرسل قبله، وأن يكون ما أخبر به هو عين ما عند أهل الكتاب مما يأثرونه وينقلونه...

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يأتي بمثل هذا التشريع الكامل، والشريعة المطهرة، التي لو اجتمع لها كل أساطين القانون والعدل، لما استطاعوا أن يصوغوا مثلها في العدل والقسطاس. بل إن أحكامها معجزة في إرساء العدل والرحمة والإحسان.

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يحيط علماً بكل هذه الأسرار العظيمة من أسرار الخلق في السماء، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والنبات، والحيوان، والمطر، والرياح، ودقائق الجسم الإنساني، والنفس البشرية، وأن يأتي في هذا من العلوم والحكم والأسرار مما لم يعرفه الناس إلى زمانه، ولا يزالون يجهلونه إلى زماننا، ولا يزال يظهر كل يوم من أسرار هذه العلوم المبثوثة في القرآن ما يقطع يقيناً أنه ليس من تأليف إنسان، ولو فرغ حياته للعلم المادي، وأوقف نفسه له.

وكذلك ما كان لرجل أمي أن يكتب في صفة الله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والغيب، والعوالم الأخرى خارج هذا العالم المشاهد، ما جاء به هذا النبي الكريم محمد بن عبدالله ﷺ.

وكذلك فقد أخبر هذا النبي الكريم بآلاف الغيوب والأحداث المستقبلية ما كأنه يراه رأي العين، ويطلع عليه... مما يدل أنه تكلم بنور الله، وبعلمه، ولم ينطق في شيء من هذا وغيره عن هواه وعن نفسه...

وكل هذا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم هو كتاب الله الحق، المنزل على عبده ورسوله محمد، سيد ولد آدم، وخير الرسل جميعاً، وأعظمهم أثراً وهداية في هذه الأرض، وإمام خير أمة أخرجت للناس إيماناً وصدقاً، ودعوة إلى توحيد الله وعبادته.

الفرقان بين عقيدة القرآن في عيسى عليه السلام وعقيدة النصارى الضالين:

وهذا القرآن الكريم قد أتى بالقول الفصل في شأن عيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنه لم يكن هو الله، ولا ابن الله نسباً وولادة، وذاتاً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً... وأن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه في السماء، منجياً له من مكر اليهود، وتآمرهم لقتله، وأن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان في دمشق، فيصلي مع أهل الإيمان من أمة محمد ﷺ، ويأمر بقتل الخنازير، وتكسير الصلبان، ولا يقبل من المشركين عبدة الصليب إلا الإسلام أو القتل، فلا يقبل منهم جزية...

وهذه العقيدة الحقة الواضحة الكريمة التي جاء بها القرآن، وبينها رسول الله محمد ﷺ تناقض ما زعمه النصارى من الرومان، وغيرهم بظنونهم الواهية، وعقولهم المريضة الفارغة في الوثنية والشرك، حيث زعموا أن عيسى هو الله، خلق نفسه في رحم مريم، وولد منها صغيراً، ونشأ وترعرع في الناصرة، وهرب إلى مصر، ثم عاد إلى الناصرة، واتهمت أمه

بالزنا، وسماه أهلها عيسى بن يوسف النجار... ثم تنبأ، ودعا إلى عبادة نفسه وأبيه وروح القدس، وأنهم الثلاثة إله واحد، ثم تعقبه اليهود فخاف منهم، واختبأ في بستان، ولما علم بأنهم سيقتلونه، تألم وتضايق، وأصابه الكرب حتى الموت، وظل يناشد أباه أن يصرف عنه كأس الموت، فما استجاب له، وبات ليلة الصلب يستعطف تلاميذه ألا يناموا حتى يؤنسوه، ويثبتوه، ويقووا من عزيمته، فما فعلوا!!.

ثم خانه أحدهم، وذهب، فأتى باليهود والشرطة؛ ليقبضوا عليه، فاستاقوه إلى رئيس الكهنة، فحققوا معه، وصفعوه على وجهه، ثم استاقوه صباحاً إلى مكان صلبه وقتله. فألبسوه ثوباً أحمر أرجوانياً، ووضعوا إكليل شوك على رأسه، وألزموه حمل الصليب الذي يقتل عليه، وجعلت جموع اليهود تتبعه مستهزئة وهي تقول له: (يا ملك اليهود أنقذ نفسك)، حتى وصل إلى مكان الصلب، فصلبوه، وسمروا رجليه في الصليب، ورفعوه عليه، ثم استسقاهم وهو على الصليب، فما سقوه إلا خلا، ثم أسلم الروح، وهذه الحال من الذل والقهر والعذاب، هي الحال التي صوروا بها الإله، خالق السموات والأرض، العزيز المتكبر، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وجعل هؤلاء الكذابون المعتوهون المشوهون هذا الفعل صادراً من الإله فداءً للبشر من خطيئة لم يرتكبوها، وإنما ارتكبها أبوهم آدم، وأنهم لما لم يستطيعوا أن يكفروا عنها أنزل الله ابنه ليهينه هذه الإهانة، حتى يكفر لأبيه عما صنع البشر من خطيئة ارتكبها أبوهم...

فمثل هذه العقيدة التي تخالف كل عقل وحكمة وتدبير، والتي تنسب إلى الله سبحانه وتعالى كل جهل وسفه وظلم، والتي تجعل الإنسان مذنباً بذنب أبيه، وبريئاً من الذنب بتوبة خالقه، وتجعل كفارة الذنب الصغير بجريمة من أعظم الجرائم... فلئن كان البشر قد أجرموا، وأذنبوا بذنب آدم الذي أكل من شجرة في الجنة، لم يسمح له بالأكل منها. فلذنب البشر بقتلهم ابن الله، وصلبه، والبصق في وجهه أعظم، وأشد جرماً، فأي شيء يمكن أن يكفر ذنب اليهود، الذين فعلوا ما فعلوا في ابن الله الوحيد كما يزعمون. إذ

تخليص اليهود من دم المسيح يحتاج إلى أن ينزل الرب بنفسه من السموات ليشنق نفسه حتى يبرئ اليهود من فعلتهم النكراء بابنه. وذلك قياساً على عقيدة النصارى أن الرب لم يجد من سبيل لتخليص البشر من ذنب آدم إلا أن يرسل ابنه ليقتل على الصليب، فداءاً للبشر!!

والعجيب حقاً أن هؤلاء النصارى موالون لليهود، وينصرونهم ويؤازرونهم، وهم حسب معتقدهم هم الذين قتلوا (ابن الله الوحيد الذي سر به أبوه كل سرور)، حسب ما افتروه في الإنجيل.

وهذه الموالاة لليهود لا يفعلها جهلتهم وعوامهم، بل قد أصدر البابا (المعصوم عندهم) قراره التاريخي بتبرئة اليهود من آثامهم، ومغفرة ذنوبهم، علماً أن اليهود لم يقدموا شيئاً يغفر لهم هذه الخطيئة، بل ما زالوا إلى اليوم يفتخرون أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله.

والخلاصة أن القرآن الكريم الذي نزل بالكلمة الإلهية الأخيرة إلى أهل الأرض، قد قرر الوحدانية لله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض، وأنه – جل وعلا – لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه – جل وعلا – لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وأنه خالق عيسى وأمه، وأنه يملك أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه، ومن في الأرض جميعاً، وأن المسيح عليه السلام ليس إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل، وأنه بشر كان يأكل ويشرب، وشهادة الله سبحانه في القرآن الكريم الذي جاء مصدقاً لما في الإنجيل والتوراة أعظم شهادة: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ [الأنعام:١٩]، وشهادة الله قد أثبتها القرآن على هذا النحو: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ [آل عمران:١٨].

وفي كل ما شهد الله به في القرآن في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام تكذيب وإبطال لعقيدة النصارى، الذين قالوا: المسيح ابن الله، والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم.

لا يوجد عقل سليم يؤمن بالنصرانية:

عقيدة التثليث التي اخترعها النصارى وابتدعوها وضاهئوا بها قول بعض الوثنيين قبل المسيح عليه السلام لا يوجد عقل سليم يؤمن بها، فهي تنافي وتضاد العقل كل المنافاة ومن هذا التضاد ومصادمة العقل ما يأتي:

١- جعل الإله الذي هو محل العزة، والكبرياء، والرفعة، والذي هو أهل للمجد والتقديس، والتنزيه، محلاً للذلة، والمهانة، والعجز، والنقص، وهذا غاية الفساد والتناقض.

فالرب المعبود خالق السموات والأرض القادر على كل شيء، والمحيط علماً بكل صغير وكبير، لا بد أن يكون منزهاً عن كل عيب ونقص، لأنه لو كان ناقصاً، لما استحق أن يكون إلهاً معظماً، مسجوداً له، تخافه الخلائق، وتمتثل أمره، وتهابه وتعظمه وتقدسه.

وهؤلاء النصارى جعلوا إلههم الذي يعبدونه بحال من الذل، والمهانة، والعجز، والفقر بحيث إنه يستدر رحمة الناس عليه، وإحسانهم إليه، وبكاءهم من أجل مصائبه ورزاياه وإشفاقهم من أجل آلامه... وهذا الإله الذي يستحق من البشر كل ذلك يثير رثاءهم له وعطفهم عليه، ولا يثير فيهم الانكسار إليه، وطلب إحسانه، والخوف من عقوبته، وامتثال أمره...

فعيسى عليه السلام الذي جعله النصارى إلهاً وعبدوه قد صوره النصارى بغاية الذل والهوان والعجز والفقر، فعندهم أن المسيح عليه السلام لما حملت به أمه مريم، وكانت في ذلك الوقت مخطوبة ليوسف النجار، فأراد أن يتركها، فرأى في النوم رؤيا تمنعه من ذلك وتأمره أن يأخذها إلى بيت لحم؛ لتلد هناك، حيث يقيد اسمه في الإحصاء العام الذي أمر به الرومان، وأن يوسف ومريم نزلاً في خان في الطريق، ولما كانا فقيرين فإنهما لم يجدا لهما مأوى إلا مكان الدواب، وأن أم عيسى لما ولدته قمطته، ووضعته في مذود البقر... وأن يوسف عاد بهما إلى الناصرة، ثم فر بهما إلى مصر خوفاً من (هيرودوس)، الذي كان ينوي قتل عيسى عليه السلام.

ونزلوا هناك بمكان في مصر يسمى (المطرية)، ثم عادوا بعد مدة إلى الناصرة، إلى أن بلغ عيسى ثلاثين سنة، عمده (يوحنا المعمدان) في نهر الأردن، وأن عيسى عليه السلام صام بعد ذلك أربعين يوماً، ثم شرع يدعو ويبشر بقيامة الأموات، فجاءه الشيطان ليجربه وقال له: اسجد لي وأنا أعطيك ممالك الأرض كلها، فقال له عيسى: (اذهب يا شيطان، فقد كتب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد)[1].

وأنه بعد ذلك بدأ خدمته ومواعظه في أنحاء الجليل، وأورشليم، فتآمر اليهود ضده وأرادوا قتله، ورشوا تلميذاً من تلاميذه؛ ليدلهم عليه. ولما علم عيسى ذلك بكى وتألم، وصلى من أجل أن يصرف عنه الرب هذه الكأس (الموت). ولكن الله لم يستجب لدعائه، فجاءه اليهود وجنود السلطان الروماني، فقبضوا عليه، وحققوا معه، وصفعوه على وجهه، ثم حكموا عليه بالإعدام صلباً، فألبسوه ثوباً أحمر أرجوانياً، ووضعوا تاجاً من الشوك على رأسه استهزاءاً به، وأرغموه على حمل صليبه الذي يصلب عليه على ظهره، واقتادوه مع لصين نكاية به ليصلب وسطهما، ثم أصعدوه على خشبة الصلب، وسمروا رجليه فيها، فاستسقاهم ليسقوه، فرفعوا إليه قطعة من القماش مبللة بالخل ليزيدوا في آلامه، وذله، وقهره، ثم طعنه جندي بحربة في جنبه فقتله ثم قبروه... وبقي في الأموات ثلاثة أيام، ثم قام وصعد إلى السماء...

وأقول: فهل الذي يصنع به ذلك، ويعيش هذه الحياة الذليلة البائسة، ويلاقي من أصناف الاضطهاد والتنكيل كل ذلك، يستحق أن يكون هو الرب الإله، خالق السموات والأرض، العزيز المتكبر المتصرف في الملك، الذي له المجد كله والأمر كله...

أم أن الذي يصنع به ذلك، وتكون هذه حالته منذ الولادة في مكان الدواب، وإلى

(١) انجيل متى: ٤/١١.

الموت على الصليب ذليلاً محتقراً، لا يمكن إلا أن يكون عبداً فقيراً، لا يستحق السجو له، ولا التقديس، ولا الخوف منه. إن الإله الذي يمكن أعداءه ليفعلوا به ذلك لا يستح أن يقول للناس خافوني، واسجدوا لي، ومجدوني، بل ربما يحسن منه أن يقول ارحموني وارزقوني، وعافوني، واحموني...

والنصارى القائلون بألوهية المسيح لا عقل لهم؛ إذ ألصقوا كل هذه الصفات التي ! تليق بالإله، ألصقوها بالإله الذي أوجبوا له الطاعة، والخضوع، وقالوا عنه: إنه يملك السموات والأرض.

٢- يصر النصارى على أن إلههم الذي يعبدونه مكون من ثلاثة أقانيم، أو ثلاث تجسدات، أو ثلاثة شخوص، ولكنه مع ذلك إله واحد، وذات واحدة... وإن جئت تقول لهم: كيف أصبح الثلاثة واحداً، والواحد ثلاثة، وفي أي حساب يكون ذلك، وأي عقل يستسيغ ذلك؟ فإما أن يأتوك بسفسطة لا تغني من الحق شيئاً، وإما أن يقولوا: آمن على هذا النحو، فالإيمان ينافي العقل والتفكير، وما لا تستطيع أن تدركه اليوم يمكن أن تدركه يوم القيامة. وأن حقيقة التثليث لا تظهر إلا يوم القيامة... وحقاً تظهر حقيقة شركهم يوم القيامة كما قال تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧]، وكما قال سبحانه: ﴿وإذ قال الله يا عيسي بن مريم...﴾ [المائدة:١١٦].

وسيرى القائلون بألوهية المسيح، وألوهية روح القدس، وألوهية مريم، التي يسمونها أم

الإله، سيرون أن المسيح يتبرأ منهم يوم القيامة، ويتبرأ منهم جبريل، ولا يكون أمامهم إلا النار.

والخلاصة أن التثليث الذي يدعون أنه هو التوحيد، وأن الثلاثة إله واحد قول مناقض للعقل، وهم مختلفون في كيفية كون الثلاثة إلهاً واحداً، كما بينا في الفصل الخاص باختلافهم في حقيقة دينهم، والشاهد هنا أن القول بالتثليث، وأنه عين التوحيد قول مناقض للعقل ومبادئ الحساب.

٣- من خصائص الإله الحق أن يكون هو الخالق والرازق والمبدع للكون، والمحيط علماً بكل شيء، ومن أجل ذلك يكون من حقه على العباد أن يعبدوه، لا يشركون به شيئاً؛ لأنه ربهم، وخالقهم، ورازقهم، ومدبر شئونهم، وهم الفقراء المحتاجون إليه.

وأما هو، فغني عنهم، لا يستطيعون أن يضروه، ولا يستطيعون كذلك أن ينفعوه؛ لأنهم إن كانوا يستطيعون نفعه، كان هو الفقير إليهم، المحتاج لهم، وهم المتفضلون عليه، وإن كانوا يستطيعون ضره، كان عاجزاً ضعيفاً لا يستحق العبادة. وهذه هي خصائص الألوهية وخصائص العبودية، فالعبودية محلها الذل والاحتياج، والفقر، والربوبية محلها الترفع، والكبرياء، والقهر، والغنى...

وإذا كان الأمر كذلك، فإن العبد يكون في مقام العبودية لإلهه، ومولاه فيعبده، ويصلي له، ويسجد له، ويخافه، ويهابه... والرب يكون في مقام المعبود..

وهؤلاء النصارى الوثنيون المشركون قلبوا الأمور، فجعلوا الرب في محل الذل، والفقر، والخدمة للعبد. فعيسى عليه السلام عندهم جاء ليخدمهم، وليحمل ذنوبهم، ويكفر بنفسه عن أخطائهم، ويستدر رحمتهم، وعطفهم عليه، وبكاءهم من أجله، ورثاءهم له.

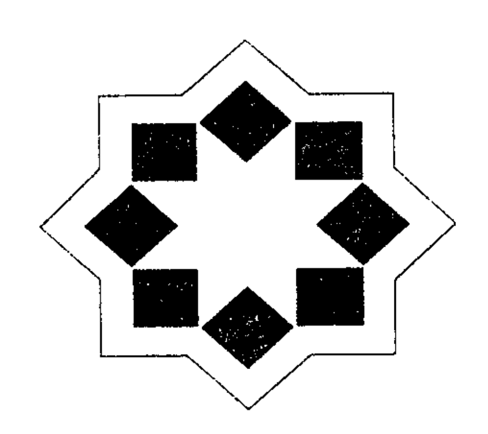
وجعلوا من شرط النجاة والخلاص، ودخول الملكوت في الآخرة أن ترحم أنت الإله، وتبكي من أجله، وتأسى لأحزانه، وتتألم لصراخه على الصليب، الذي كان - كما يقولون

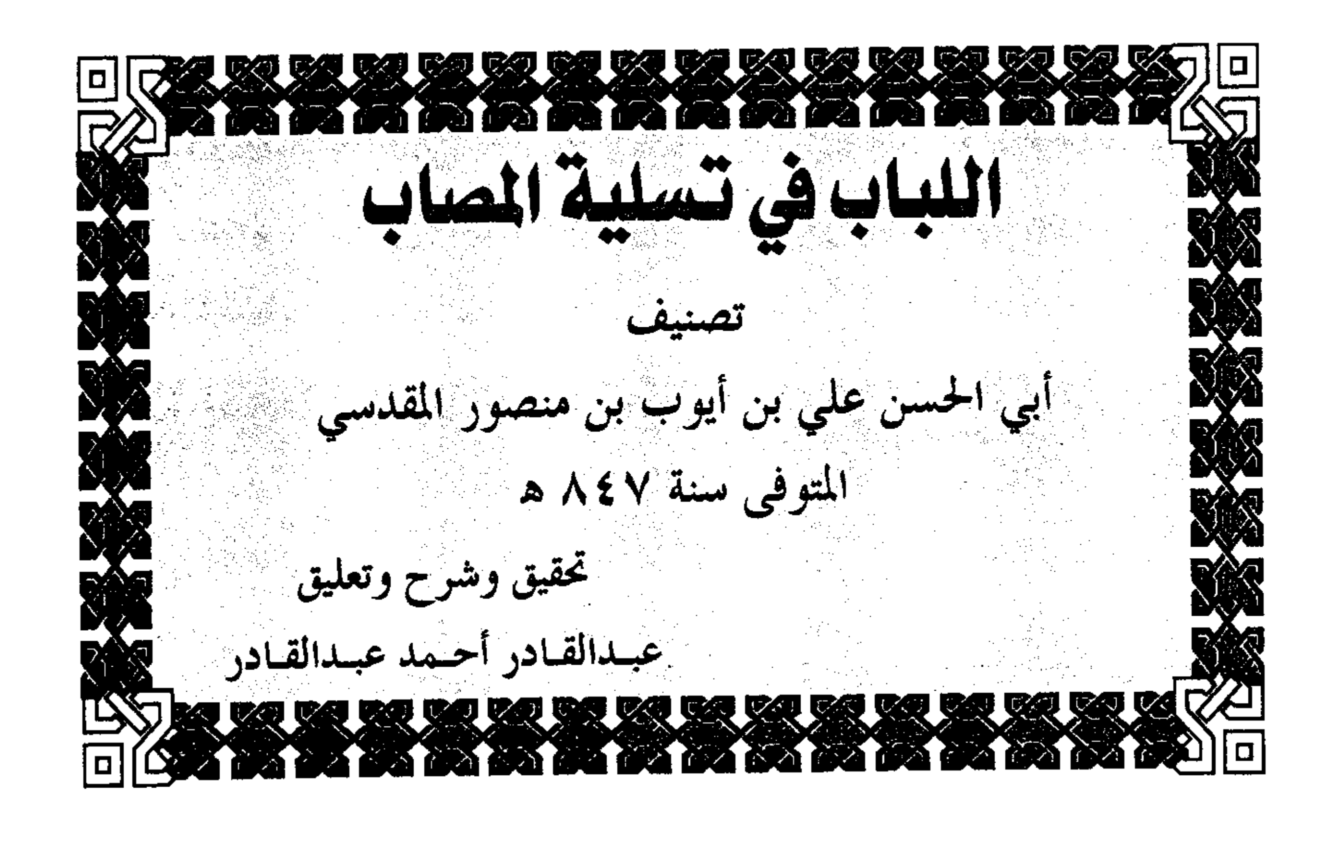
- يقطع القلوب، وتعترف بأن هذا الإله المصلوب جاء ليخدمك، ويتوب عنك، ويحمل أوزارك...

وأي عقل سليم يستسيغ مطلقاً أن يكون الذليل إلهاً، والذي يبكي على الصليب معبوداً، والذي يتوجع؛ لأنه لا يملك بيتاً يضع رأسه فيه - في حين تملك الطيور أعشاشاً، والثعالب أوكاراً - مالكاً للسموات والأرض متصرفاً في الكون؟!!!

فهل يستحق هذا الإله المصلوب إلا الرثاء، والبكاء لآلامه وأحزانه. وهذه ليست عبادة؛ لأن العبادة الحقة تعني الذل، والخضوع، والخوف، والرهبة، والإنابة،والتعظيم، والحب، وعيسى عليه السلام كما صوره النصارى لا يستحق إلا الشفقة عليه، والرحمة له، ومثل هذا لا يكون قط إلهاً ورباً.

والخلاصة أن دين النصرانية، وشركهم، وتثليثهم، وقولهم بالصلب والفداء والخطيئة والخلاص لم يأت به دليل في النبوات الأولى، وكل ما نقل عن عيسى عليه السلام يناقضه، ويخالفه، ولا يستسيغه عقل سليم قط، وهو دين ابتدعه بولس اليهودي، واخترعه الرومان، الذين أرادوا الدخول في النصرانية، دون أن يفارقوا عقائدهم الوثنية في تعدد الآلهة، وفي أن الإله يجب أن يكون في خدمة البشر، لا أن يكون البشر في خدمة إلههم، ومولاهم!!





الحمدلله حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في هذه الحياة، ووضعه في مواقف الاختبار، فينعم عليه طالباً منه الحمد على نعمه والشكر له، ويبتليه طالباً منه الصبر على ما أصابه، وفي الحالتين؛ حالتي الشكر والصبر فضل كبير وأجر عظيم.

ونعم الله كثيرة، لا يستطيع إنسان، مهما أوتي من القدرة، أن يحصي هذه النعم، لكننا نستطيع أن نقول: إن ما يصيب الإنسان من المحن والبلايا والأرزاء من أجل نعم الله علينا، وأجل هذه الأرزاء الموت، ففيه الراحة من عناء هذه الحياة الدنيا التي حفت بالمكاره، لمن جاءه الموت، واختطفه، وفيه الأجر العظيم، لمن فقد عزيزاً عليه، إن احتسبه عند الله وصبر.

وليس هدفنا هنا أن نعدد ذاكرين فوائد الموت، وإنم ا أردنا مما ذكرناه، أن في كل شيء خيراً للإنسان المؤمن بربه، وبقضائه وقدره، بين يدي كتاب تراثي، وجدنا فيه خيراً

لذلك، أردنا أن نخرجه بصورة واضحة بينة، كما كانت صورته يوم خطه مصنفه، وما ذلك إلا لأن فيه تسلية لمن أصيب برزء، وفيه تخفيف من وقع مصيبة قد تحل، مهما كان نوع هذه المصيبة.

فبالصبر يصل المرء إلى رضوان الله، وخاصة الصبر على فقد الابن بالموت، وما ذلك إلا لأن الموت نهاية مطاف الإنسان في الحياة الدنيا، ينتقل به إلى الحياة الأخرى، التي من أهم خصائصها الخلود.

وللدعوة إلى الصبر كتب أبو الحسن على بن أيوب بن منصور المقدسي هذه الرسالة الصغيرة حجماً، الكبيرة نفعاً، ليدغدغ بها فوح الإيمان، وشذا الصبر، على تقبل مصيبة فقد الأولاد، من خلال ما أورده فيها من آيات وأحاديث نبوية، وآثار عن السلف الصالح، وفضل الصبر على المصائب، وما ينبغي علينا أن نقوله يوم تحل المصيبة، ثم ذكر الأحاديث التي تزجرنا وتنهانا عن تلقي المصيبة بالجزع، أو بالأعمال التي تطمس بذرة الإيمان، أو تنشر في نفوسنا عدم اليقين بقضاء الله، أو عدم الرضا بقدره. ثم ختمها ببعض مواقف السلف الصالح عند تلقي المصائب، وبيان مدى صبرهم تجاهها.

كتب المصنف في هذا الموضوع رسالتين(١) :

الأولى: اللباب في تسلية المصاب، ذكره له حاجي خليفة، في كشف الظنون: ١٥٤٢، قال: اللباب في تسلية المصاب، للعلامة علاء الدين علي بن أيوب القدسي الشافعي، في أوراق.

الثانية: فوائد المصاب، ذكرها له حاجي خليفة، في كشف الظنون: ١٥٤٢، بلغ فيه إلى سبع وعشرين ورقة.

---

(١) الحجج التي ذكرها المحقق غير كافية لإثبات أن للمؤلف رسالتين. [المجلة].

نسبة الكتاب: نسبه له في «كشف الظنون»: ١٥٤٢، وذكره له السخاوي في كتابه: ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد.

تسمية الكتاب: جاء الاسم على غلاف الكتاب: الكتاب في تسلية المصاب، وجاء اسمه في «كشف الظنون» ١٥٤٢ اللباب في تسلية المصاب، ونرجح هذه التسمية التي وردت في كشف الظنون، وذلك لأن المخطوط الذي اعتمدنا عليه، ترجع كتابته إلى القرن العاشر الهجري، كما رجح ذلك في مجلة المورد العراقية، المجلد السابع، العدد الأول، صفحة: ٢٠١، فيكون من تحريف الناسخ، وهناك أمثلة كثيرة على تحريف النساخ لعناوين الكتب وأسماء المؤلفين، ومن عمل في التحقيق يدرك ذلك أكثر من غيره، كما ورد اسمه في مخطوط: ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد باسم اللباب في تسلية المصاب، نسخة المكتبة الظاهرية في دمشق.

النسخ المعتمدة في التحقيق :

اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة، على نسخة مكتبة شستربتي، رقم:٤٣٠٨، حصلنا على صورة لها من معهد المخطوطات العربية، التابع لجامعة الدول العربية، وتتكون النسخة هذه من تسع ورقات، كُتبت بخط نسخي جيد خلت من تاريخ النسخ، ومن اسم الناسخ، وخطها يشير إلى أنها ترجع إلى القرن العاشر الهجري، كما جاء في مجلة المورد العراقية مجلد ٧ العدد الأول، الصحفة ٢٠١ وكل صفحة فيها خمسة عشر سطراً، في كل سطر حوالي عشر كلمات، بعض الكلمات جاءت غير منقوطة أحياناً.

عملنا:

قمنا أولاً بقراءة المخطوط قراءة متأنية، ثم قمنا بنسخها ثانياً وفق المصطلح الكتابي في العصر الحديث، ووفق المصطلحات الإملائية المعاصرة، ثم قمنا بتصويب الأخطاء الموجودة فيها، من المصادر التي اعتمد عليها المصنف مشيرين إلى ذلك في الحواشي.

ثم قمنا بتخريج الآيات، بذكر السورة ورقم الآية، وخرجنا الأحاديث من المصادر الـ
ذكرها المؤلف، وما لم يذكر له مصدراً، خرجناه من المصادر التي أوردتها، وقمنا بشر
الألفاظ التي نرى أنها بحاجة إلى شرح.

ثم خرجنا أبيات الشعر التي ذكرها في أثناء المتن، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ثم عر فـ
بأسماء الأعلام التي وردت في المتن، ثم قمنا بعمل الفهارس الفنية للكتاب، فهرس الآيات
وفهرس الأحاديث، وفهرس الأشعار، وفهرس الأعلام، وفهرس الكتب.

وفي الختام نرجو أن يكون عملنا خالصاً لوجه الله، فما أردنا إلا وجهه الكريم، وهـ
مولانا، ونعم المعين.

المحقق

المصنفون في هذا الموضوع

هذا الموضوع كان مجالاً خصباً للمصنفين، حيث تركوا لنا كماً كثيراً من مصنفاتهم فيه، حتى إن بعضهم صنف فيه أكثر من كتاب، وهذا كشف بمن صنف فيه مع ذكر أسماء مصنفاتهم، رتبناه حسب الأسبقية في الوفاة.

١- أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) وكتابه: العزاء والصبر.

٢- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٦ هـ) وكتابه: التعازي والمراثي.

٣- أبو بكر المبارك بن كامل بن أبي غالب الخفاف (ت ٥٤٣ هـ) وكتابه: سلوة الأحزان.

٤- أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) وكتابه: سلوة الأحباب وترحمه الأحباب.

٥- أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر (٥٧١).

٦- أبو بكر محمد بن موسى الحازمي الهمداني (ت ٥٨٤ هـ)، كتابه: سلوة المحزون.

٧- أبو عبدالله محمد بن عبدالحق بن سليمان التلمساني (ت ٧٧٦ هـ)، كتابه: التسلي عن الرزية.

٨- سليمان بن بنين بن خلف الدقيقي (ت ٦١٤ هـ)، كتابه: سلوان الجلد عند فقدان الولد.

٩- عيسى بن عبد العزيز الاسكندري (ت ٦٢٩ هـ)، كتابه: التعزية لأهل المصيبة.

١٠- شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي (ت ٧٠٦ هـ)، كتابه: التسلي

والاغتباط بثواب من تقدم من الأفراط.

١١- أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (ت: ٧٤٦ هـ) له :

- التعزية الحسنة بالأعزة.

- كشف الكربة عند فقد الأحبة.

١٢- علاء الدين علي بن أيوب بن منصور المقدسي (ت ٧٤٦ هـ) له :

- اللباب في تسلية المصاب. وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

- فوائد المصاب.

١٣- شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم (ت ٧٥١ هـ)، كتابه عد الصابرين وذخيرة الشاكرين.

١٤- شهاب الدين أحمد بن يحيى بن حجلة التلمساني (ت ٧٧٦هـ). كتابه: تسلي الحزين في موت البنين، طبع الكتاب بتحقيق د. مخيمر صالح.

١٥- محمد بن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ)، كتابه: برد الأكباد عند فقا الأولاد. طبع الكتاب بتحقيقنا، نشر دار النفائس، في عمان.

١٦- عبد الرحمن بن أبي بكر الدمشقي (ت ٨٥٦ هـ) كتابه: تسلية الواجم في الطاعون الهاجم.

١٧- شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، كتابه: ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد.

١٨- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، له:

- فضل موت الأولاد. طبع الكتاب بتحقيقنا.

- سلوة الفؤاد في موت الأولاد.

- فضل الجلد عند فقد الولد. طبع الكتاب بتحقيقنا.

- التعلل والإطفا لنار لا تطفى. طبع الكتاب، وصدر عن دار المنار، الزرقاء.

- فتاح الأكباد عند فقد الأولاد.

- ثلج الأكباد عند فقد الأولاد.

- ثلج الفؤاد في فقد الأولاد.

١٩- مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي (ت ١٠٣٣ هـ) كتابه: سلوان المصاب بفرقة الأحباب.

٢٠- أبو نصر الهوريني المصري (ت ١٢٩١ هـ)، كتابه: تسلية المصاب عن فراق الأحباب.

٢١- أبو بكر بن محمد الحبشي البسطامي (؟) كتابه: تسلية النفوس الزكية بوفاة محمد خير البرية.

٢٢- محمد بن يحيى الهمداني المصري (؟)، كتابه: التعريف والتبيين في ثواب فقد البنين.

نسبه وكنيته:

هو علاء الدين، أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور بن الزبير المقدسي الشافعي، يلقب عليان، ولد سنة ست وستين وستمائة تقريباً.

قرأ على التاج الفزاري، وولده برهان الدين، وسمع الفخر ابن البخاري، وعبد الرحمن بن الزين.

برع في الفقه واللغة العربية، وسمع الحديث الكثير بدمشق و القدس ودرس بالأسدية وبحلقة صاحب دمشق.

سمع منه الذهبي، وذكره فقال: الإمام الفقيه البارع المتقن، المحدث، بقية السلف، قرأ بنفسه، ونسخ أجزاء، وكتب الكثير من الفقه والعلم بخطه المتقن، ثم تحول إلى القدس ودرس بالصلاحية، ثم تغير وجف دماغه في سنة اثنتين وأربعين، وكان إذا سمع عليه مع ذلك في حال تغيره يحضر ذهنه، ثم استمر إلى أن عانى من الفقر شدة شديدة.

قال الحافظ ابن حجر: قرأت بخط الحسيني أنه حدث بصحيح البخاري في مؤلفه، وذكر أنه لقيه في الجند، وأنه أجاز له روايته عنه.

مات فقيراً مدقعاً في شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله عدة للقائه

قال الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام، مفتي الأنام، قدوة العارفين، لسان المتكلمين، كنز الطالبين، إمام المحدثين، أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي، تغمده الله برحمته:

---

(١) مصادر ترجمته: لسان الميزان ٢٠٧/٤. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر: ٣٠/٣-٣١. شذرات الذهب في أخبار من الذهب، لابن عماد الحنبلي: ١٥٣/٦.

الحمد لله موفي الصابرين أجرهم بغير حساب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له [كبير][1] الثواب، شديد العقاب، وأشهد أن محمداً رسوله الذي أنزل عليه في الكتاب: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ [الرعد: ١٩]، ﷺ ما جرى سحاب، [وحلَّ][2] مصاب، ودفن حبيب في تراب.

أما بعد : فإن في الصبر على المصائب والبلايا والمحن والرزايا[3] ما يعقب الأجر ويشرح الصدر، وفي الجزع والتسخط[4] بالقضاء ما يحبط[5] الأجر، ويعظم الوزر[6]. وقد ابتلى الرب سبحانه عباده في هذه الدار بالسراء والضراء، وفرض عليهم الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء؛ ليجزيهم بذلك في دار البقاء بما كان منهم في دار الفناء.

وهذه كلمات سطرتها ترغيباً في تسلية مصاب؛ لأشاركه في الثواب:

عن عبدالله بن مسعود[7]، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (من عزي مصاباً، فله مثل أجره)[8].

---

(١) في الأصل: عبيد، وهو تحريف، والأشبه بالصواب ما أثبتناه.

(٢) في الأصل جل، ونظنها حل؛ لإنها أشبه بالصواب.

(٣) البلايا من البلاء، وأصله الاختبار بالمصيبة وكذا المحن، جمع المحنة، وهي الاختبار بالمصيبة، والرزايا جمع رزا، وهو المصيبة بفقد الأعزة.

(٤) التسخط: من السَخط، والسُخط، وهو الكراهية للشيء، وعدم الرضا به. النهاية: ٢/٣٥٠.

(٥) يحبط: من حبط عمله؛ أي أبطله، واحبطه غيره وهو من قولهم: حبطت الدابة حبطاً، بالتحريك إذا أصابت مرعى طيباً، فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. النهاية: ١/٣٣١.

(٦) الوزر: الحمل والثقل، وأكثر ما يطلق في الحديث على الذنب والاثم. النهاية: ٥/١٧٩.

(٧) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن صحابي من أكابرهم فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ﷺ أول من جهر بقراءة القرآن بمكة، كان صاحب سر رسول الله ﷺ وخادمه. الأعلام: ٤/١٣٧.

(٨) الحديث في سنن الترمذي: ٣/٣٨٥، في الجنائز، أجر من عزى مصاباً. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث علي بن عاصم، وروى بعضهم عن محمد بن سوقة، بهذا الاسناد مثله موقوفاً، ولم يرفعه، ويقال: أكثر ما ابتلي به علي بن عاصم، بهذا الحديث نقموا عليه. واسناده في سنن الترمذي: يوسف بن

=

وعن أبي (برزة)[1]، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (من عـزى ثكلى كسـي بـرداً في الجنة)[2]، رواهما الترمذي[3] وغيره.

وعن عمرو بن حزم[4]، عن النبي ﷺ قال: (ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبـة، إلا كسـا الله، عز وجل، مِن حُلل الكرامة يوم القيامة). إسناده حسن[5]، رواه ابن ماجه[6].

عيسى حدثنا علي بن عاصم قال: حدثنا والله محمد بن سوقة عـن إبراهيم عـن الأسود عن عبد الله عن النبي
والحديث في سنن ابن ماجة: ٥١١/١، في الجنائز، ما جاء في ثواب من عزى مصاباً، وفي اسناده حماد بن الوليد الأسدي الكوفي، قال ابن عدي: ما يرويه لا يتابع عليه وسأل أبو حاتم عنه فقال: شيخ، وقال ابن حبان: يسرق الحديث، ويلزق بالثقات ما ليس من أحاديثهم. وفي سنن البيهقي: ٥٩/٤، وتاريخ بغداد: ٤٥٣/١١-٤٥٤ والتخليص، لابن حجر: ١٣٨/٢، وعمل اليوم والليلة، لابن السني: ٢٧٦.

(١) في الأصل: هريرة، والتصويب من سنن الترمذي: ٣٨٥/٣، وأبو برزة هو نضلة بن عبيد، نـزل البصـرة، ثـم سا إلى خراسان، ثم مرو، وعاد إلى البصرة، توفي سنة ٦٠هـ، وقيل: ٦٤هـ. أسد الغابة: ٣١/٦.

(٢) الحديث في سنن الترمذي: ٣٨٥/٣، في الجنائز، أجر من عزى مصاباً. قال الترمذي: اسناد هذا الحديث ليس بالقوي، وفي مصابيح السنة: رقم: ١٢٣٧، وقال: غريب. واعله المباركفوري في تحفة الأحوذي: ١٦٥/٢ والحديث ذكره المنبجي في تسلية أهل المصائب: ١٥٥، وابن ناصر، في برد الأكباد: ١١، بتحقيقنا.

(٣) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي، البوغي، الترمذي، أبو عيسى (ت٢٧٩هـ)، من أئمة علما الحديث، وحفاظه من تصانيفه الجامع المعروف بصحيح الترمذي، والشمائل النبوية وغيرهما. الأعلام: ٣٢٢/٦.

(٤) هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري، أبو الضحاك (ت٥٣هـ)، والٍ من الصحابة، شهد الخندق وم بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران، وكتب له عهداً مطولاً، فيه توجيه وتشريع. الأعلام: ٧٦/٥.

(٥) الحديث في سنن ابن ماجه: ٥١١/١، في الجنائز، ما جاء في ثواب من عزى مصاباً، وإسناده فيه: حدثنا أبو بكر بـ أبي شيبة ثنا خالد بن مخلد، حدثني قيس ابو عمارة مولى الأنصار، قال: سمعت عبد الله بن أبي بكر بن محمد بـ عمرو بن حزم يحدث عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ به.
وفي سنن البيهقي: ٥٩/٤، من طريق قيس أبي عماردة عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزام عن أبيه عن جده مرفوعاً به.
وفي زوائد الوصيري: ٥٨٧، وقال: اسناد فيه مقال، قيس بن عمارة: ذكره ابن حبان في الثقات، قال الذهبي في الكاشف: ثقة، وقال البخاري: فيه نظر. وفي مصباح الزجاجة: ٥٠/٢، وفي فردوس الأخبار: ٣٢٢/٤، وسلسلة الأحاديث الضعيفة: ٧٧/٢، وقال الألباني: باقي رجال الاسناد على شرط مسلم، وضعيف الجامع: ١٢٥/٥، وفي المعرفة والتاريخ للفسوي: ٣٣١/١-٣٣٢.

(٦) هو محمد بن يزيد الربعي القزويني، أبو عبد الله ابن ماجة (ت٢٧٣هـ)، أحد الأئمة في علم الحديث، له السنن وتفسير القرآن، الأعلام: ١٤٤/٧.

واعلم أن التعزية هي التصبير[1]، وذكر ما يسلي صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وهي مستحبة؛ فإنها أمر بمعروف، ومعاونة على البر والتقوى، (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[2].

الفصل [الأول][3]

[آيات][4] في فضل الصبر

قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠]. وقال المفسرون: ((يوفى كل عامل أجر عمله بحساب إلا الصابرين، فإنهم يصب عليهم الأجر صباً بغير حساب))[5].

---

(١) جاء في تسلية أهل المصائب، ١٥٤-١٥٥ ((يقال: عزى الرجل عزاءً؛ إذا صبره على ما نابه، والتعزية: التصبر، وعزيته: أمرته بالصبر، والعزاء، بالمد: اسم أقيم مقام التعزية، ذكره النووي، وقال الأزهري: أصل التعزية: التصبر لمن أصيب بمن يعزى عليه، وقال غيره: التعزية: التسلية، وهو أن يقال له: تعزي بعزاء الله، وعزاء الله قوله تعالى: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ سورة البقرة: ١٥٦)).

أي تصبر بالتعزية التي عزاك الله بها.

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم: ٢٠٧٤/٤، في الذكر، فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وأبو ذواد: ٢٨٧/٤، في الأدب، في المعونة للمسلم، وابن ماجة: ٨٢/١، في المقدمة، فضل العلماء، والإمام أحمد في المسند: ٢٥٢/٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤، والترمذي: في الحدود، الباب الثالث.

(٣) في الأصل فصل والمثبت زيادة منا.

(٤) زيادة يقتضيها السباق.

(٥) في تفسير ابن كثير: ٨٤/٤، عن ابن جريج: أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك. وعن الأوزاعي: ليس يوزن لهم، وإنما يغرف لهم غرفاً. وفي تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٣ ((عن قتادة أنه قال: لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان))، وفي تفسير القرطبي: ٢٤١/١٥، (عن الإمام مالك: أنه قالك هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها، ثم قال: ولا شك ان من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه، فلا مقدار لأجره))، ذكر هذا المعنى في حديث ضعيف عن أنس بن مالك أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور.[المجلة].

وقال تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

[الأحاديث الحاثة على الصبر][1]

وقال ﷺ: (والصبر ضياء)[2].

وقال: (الصبر نصف الإيمان)[3].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق. هذا كلام غير صحيح والصواب أن يقول ما بين [ ] زيادة مني للتوضيح، [المجلة].

(٢) قطعة من حديث هو بتمامه كما جاء في صحيح مسلم: ٢٠٣/١، في الطهارة فضل الوضوء: ((الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)).

وأخرجه الترمذي: ٥٣٥/٥ن في الدعوات، باب: ٨٦، رقم: ٣٥١٧، والدارمي: ١٧٤/١، في الطهارة، ما جاء في الطهور، والنسائي: ٥/٥-٦، في الزكاة، باب وجوب الزكاة، والإمام أحمد في المسند: ٣٤٢/٥، ٣٤٣، وابن أبي شيبة في المصنف: ٥٤/١١، وصحيح الجامع: ٢١/٤.

(٣) الحديث رواه الديلمي في فردوس الأخبار: ٥٧٥/٢، عن ابن مسعود، وفي آخره زيادة: ((واليقين الإيمان كله)) قال في تسديد القوس: ((أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود)). وفي حلية الأولياء: ٣٤/٥، قال: ((تفرد به المخزومي

=

و[قال][1]: واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسريسراً)[2]

وقال ﷺ: (وما أعطي أحد عطاءً خيراً (وأوسع)[3] من الصبر)[4].

عن سفيان بهذه الاسناد))، والقضاعي في مسند الشهاب: ١٥٨، والخطيب في تاريخ بغداد: ٢٢٦/١٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية: رقم: ١٣٦٤، من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن محمد بن خالد المخزومي عن سفيان الثوري عن زبيد اليامي عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً به)).

قال ابن الجوزي: تفرد بروايته محمد بن خالد عن القوري، ومحمد بن خالد مجروح، قال يحيى بن معين والنسائي: ((يعقوب بن حميد ليس بشيء))، وفي لسان الميزان: ١٥٢/٥ نقلاً عن ابي علي النيسابوري أنه قال: هذا حديث منكر، لا أصل له من حديث زبيد، ولا من حديث الثوري، وعزاه في الجامع الصغير لأبي نعيم وتعقبه المناوي بأن البيهقي قال بعدما أخرجه: تفرد به يعقوب عن حميد عن محمد بن خالد المخزومي، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع. ويعقوب قال الذهبي: ضعفه أبو حاتم وغير واحد. فيض القدير: ٢٣٣/٤. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١٩٠/١.

(١) ساقطة من الأصل. والمثبت زيادة يقتضيها السياق، لأن ما بعدها حديث آخر.

(٢) جزء من حديث هو بتمامه: أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عباس: (ياغلام، ألا أعلمك كلمات تنتفع بهن؟ قال: بلى، يارسول الله، قال (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما هو كائن، فلو جهد العباد على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لما قدروا عليه، فإن لم تستطع فإن في الصبر على تكره خيراً كثيراً، واعلم أن النصر....) الحديث، رواه الإمام أحمد في المسند: ٣٠٧/١، والحاكم في المستدرك: ٥٤١/٥، من طريق شهاب بن خداش عن عبد الملك بن عمير عن ابن عباس، قال الحاكم: هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك ابن عمير عن ابن عباس، إلا أن الشيخين -يعني مسلم والبخاري- لم يخرجا لشهاب بن خداش ولا القراح. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات: ٧٥-٧٦.

(٣) في الأصل: خيراً أوسع. والمثبت من المصادر التي أوردت الحديث.

(٤) جزء من حديث هو بتمامه عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: (ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر).

والحديث رواه البخاري: ٢٥٦/٣، في الزكاة، الاستعفاف في المسألة، ومسلم في صحيحه: ٧٢٩/٢، في الزكاة، في الاستعفاف بلفظ: (عطاء خير) يرفع خير، وهو صحيح؛ على أن قوله خير: خبر لمبتدأ مقدر أي هو خير، والترمذي في سننه: ٣٧٣/٤، في البر والصلةن ما جاء في الصبر، وابو داود في سننه: ١٢١/٢، في الزكاة ، في الاستعفاف بلفظ: (من عطاء أوسع من الصبر)، والنسائي في سننه: ٩٦/٥، في الزكاة، الاستعفاف في المسألة، ومالك في الموطأ: ٩٩٧/٢، في الصدقة، التعفف عن المسألة، والإمام أحمدفي مسنده: ٣/٣، ١٢، ٤٧، ٩٣، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة : ٢٣، بلفظ (ولا أوسع).

وفي صحيح مسلم[1] عن صهيب[2]، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، [إن أمره كله][3] خير، وليس [ذاك][4] لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له)[5].

وعن أبي هريرة[6]، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى، وما عليه خطيئة)[7]

وقال ﷺ: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضى، ومن سخط، فله السخط).[8]

---

(١) هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسين (ت ٢٦١هـ)، حافظ من أئمة المحدثين، أشهر كتبه صحيح مسلم، وله المسند الكبير، والكنى والأسماء، وغيرهما، الأعلام: ٢٢١/٧.

(٢) هو صهيب بن سنان بن مالك النمري، قيل له: الرومي؛ لإن الروم سبوه صغيراً فنشأ بالروم، ابتاعته كلب منهم، ثم قدموا به مكة، فاشتراه عبد الله بن جدعان التيمي فأعتقه، كان من السابقين إلى الإسلام، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفي سنة ٣٨هن وقيل: ٣٩هـ. أسد الغابة: ٣٦/٣.

(٣) في الأصل «أمره كله له»، والمثبت من صحيح مسلم.

(٤) في الأصل: «ذلك»، والمثبت من صحيح مسلم.

(٥) الحديث في صحيح مسلم: ٢٢٩٥/٤ن في الزهد والرقائق، المؤمن أمره كله خير، وفي سنن الدارمي: ٤٠٩/٢، في الرقائق، المؤمن يؤجر في كل شيء، وجاء فيه: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك، فقال: (ألا تسألوني مم أضحك ؟) فقالوا: مم تضحك؟ قال: (عجباً من أمر المؤمن كله له خير، إن أصابه ما يحب حمد الله عليه، فكان خير، وإن أصباه ما يكره فصبر كان له خير، وليس كل أحد أمره خير له إلا للمؤمن)، وفي المسند ٢٤/٥.

(٦) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بأبي هريرة (ت ٥٩هـ)، صحابي، كان اكثر الصحابة حفظاً للحديث، ورواية له، لزم صحبه النبي ﷺ. الاعلام: ٣٠٨/٣.

(٧) الحديث في سنن الترمذي: ٦٠١/٤، في الزهد، ما جاء في الصبر على البلاء.

(٨) الحديث في سنن الترمذي: ٦٠٠/٤، في الزهد، ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: حسن غريب، وفي سنن ابن ماجة: ١٣٣٨/٢، في الفتن، الصبر على البلاء، فيه بلفظ: «عظم الجزاء...وان الله إذا...».

وجاء فيه السند: حدثنا محمد بن رمح، أنبأنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ به.

[الفصل الثاني][1]

فيما يقوله من مات له ميت من الاسترجاع والحمد والشكر

في صحيح مسلم: عن أم سلمة[2]، رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبدت تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله تعالى في مصيبته، وأخلف له خيراً منها). قالت: ((فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله تعالى لي خيراً منه؛ رسول الله ﷺ))[3].

وفي سنن أبي داود[4] عن أم سلمة أيضاً زوج النبي ﷺ، ورضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: (إذا (أصابت)[5] أحدكم مصيبة، فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم

---

(١) زيادة منا.

(٢) هي هند بنت سهيل، المعروف بأبي أمية، ويقال: اسمه حذيفة، ويعرف بزاد الراكب، ابن المغيرة، القرشية المخزومية، أم سَلمة، من زوجات النبي ﷺ،تزوجها في السنة الرابعة للهجرة، وكانت من أكمل الناس عقلا، توفيت سنة ٦٢ هـ. الاعلام: ٩٧/٨.

(٣) الحديث في صحيح مسلم: ٦٣٣/٢، في الجنائز، وفي سنن ابن ماجه: ٥٠٩/١، في الجنائز، ما جاء في الصبر على المصيبة، وجاء فيه بلفظ: ما من مسلم يصاب بمصيبة فيفزع الى ما أمر الله به من قوله انا لله وانا اليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي، فاجرني فيها، وعوضني منها، الا آجره الله عليها، وعاضه خيراً منها). وقالت: فلما توفي أبو سلمة ذكرت الذي حدثني عنه رسول الله ﷺ، فقلت: إنا لله وإنا اليه راجعون، اللهم، عندك احتسبت مصيبتي هذه، فاجرني عليها، فإذا أردت أن أقول: وعوضني خيراً منها، قلت في نفسي: أعاض خيراً من أبي سلمة ؟ ثم قلتها، فعاضني الله محمداً ﷺ، وآجرني في مصيبتي)).

(٤) هو سليمان بن الاشعث بن اسحق بن بشير الازدي السجستاني، أبة أبوداود (ت ٢٧٥ هـ)، إمام أهل الحديث في زمانه، له السنن، والمراسيل، والزهد، وغيرها. الاعلام: ١٢٢/٣.

(٥) في الاصل: أصاب، والمثبت من سنن أبي داود: ١٩١/٣.

عندك أحتسب مصيبتي، فأجرني فيها، (وأبدل[1] بها خيراً منها)».[2]

وفي كتاب[3] الترمذي وقال: إنه حديث حسن[4].

عن أبي موسى الأشعري[5] رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد[6] عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله سبحانه وتعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد)[7].

وفي صحيح البخاري[8]، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (يقول

---

(١) في الاصل: أبدلني، والمثبت من سنن أبي داود: ٣/١٩١.

(٢) الحديث في سنن أبي داود: ٣/١٩١، في الجنائز، في الاسترجاع، وفي عمل اليوم والليلة للنسائي: ٣٠٧، رقم: ١٠٧٨. بلفظ «فاجرني عليها» و«أبدلني»، ورقم: ١٠٧٩، ١٠٨٠، وفي عمل اليوم والليلة لابن السني: ٢٧٤ وفي ضعيف الجامع: رقمك ٤٧٦، قال الالباني: رواه أبو داود والحاكم عن سلمة، والترمذي وابن ماجة عن أبي سلمة، وهو حديث ضعيف. وانظر سنن الترمذي: في الدعوات، الباب: ٨٣، والمسند: ٦/٣١٣.

(٣) كذا في الاصل، والمقصود الجامع الصحيح للترمذي.

(٤) في سنن الترمذي: رقم: ١٠٢١، في الجنائز، فضل المصيبة إذا احتسب: حسن غريب.

(٥) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، أبو موسى، من بني الاشعر، (ت ٤٤ هـ) من الشجعان الفاتحين، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن، وولي لعمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ. الاعلام: ٤/١١٥.

(٦) في الاصل: قبضتم روح ولد، والمثبت من المصادر التي ذكرت الحديث.

(٧) الحديث في سنن الترمذي: حديث رقم ١٠٢١، في الجنائز، فضل المصيبة إذا احتسب، وفي المسند: ٤/٤٢٥، وموارد الظمآن رقم: ٧٢٦، وفي سنده أبو سنان، واسمه عيسى بن سنان القسملي، وهو لين الحديث، كما قال في التقريب، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الحافظ ابن حجر: حديث حسن، انظر الفتوحات الربانية: ٣/٢٩٦، وفي المنتخب لعبد بن حميد: ١/٤٨٧، ورواه السيوطي في فضل موت الاولاد: ٣٦، بتحقيقنا، وعمل اليوم والليلة، لابن السني: ٢٧٤.

(٨) هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله،(ت ٢٥٦ هـ)، حبر الاسلام، والحافظ لحديث رسول الله، صاحب الجامع الصحيح، المعروف بصحيح البخاري، والأدب المفرد، وغيرها. الاعلام: ٦/٣٤.

ا لله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه، إلا الجنة).[1]

وفي الصحيحين[2]، عن أسامة بن زيد[3]، رضي الله عنهما، قال: أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه تدعوه وتخبره أن صبياً لها، أو ابناً، في الموت، فقال للرسول: (ارجع إليها، فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب). وذكر تمام الحديث[4]

---

(١) الحديث في صحيح البخاري: ١١٢/٨، في الرقاق، العمل الذي يبتغي به وجه الله، وفي المسند: ٤١٧/٢، ٤٤٣/٣، ٢٣٧/٤، ٢٥٣/٥.

ورواه السيوطي في فضل الجلد: ٢٢، بتحقيقنا، وعزاه لابن زنجويه والبخاري عن أبي هريرة. ورواه الترمذي في الزهد، الباب ٥٨.

(٢) أي صحيح مسلم، وصحيح البخاري.

(٣) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، أبو محمد، مولى رسول الله ﷺ من أبويه، حب رسول الله. استعمله النبي وهو ابن ١٨ سنة، توفي ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ. أسد الغابة: ٧٩/١.

(٤) جزء من حديث هو بتمامه: عن أسامة بن زيد قال: كنا عند النبي ﷺ، فأرسلت اليه احدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً لها، أو ابناً لها في الموت، فقال للرسول: (ارجع اليها فأخبرها ان لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب)، فعاد الرسول فقال: إنها قد اقسمت لتأتينها، قال: فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وانطلقت معهم، فرفع اليه الصبي، ونفسه تقعقع، كأنها في شنة، ففاضت عيناه، فقال له سعد، ماهذا ؟ يا رسول الله، قال: (هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء).

رواه مسلم في صحيحه: ٦٣٦/٢، في الجنائز، البكاء على الميت، ورواه البخاري في صحيحه: ٢٢٢/١، في الجنائز، قول النبي: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، وفي: ٢٧٤/٤، في التوحيد، قول الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا﴾، وفي: ٢٨٨/٤، في التوحيد، ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إن رحمة الله قريب﴾، و ١٤٤/٤، في القدر، باب وكان امر الله قدراً مقدورا، و١٥٢/٤، في الايمان، قول الله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾. وفي سنن النسائي: ٢١/٤، في الجنائز، الامر بالاحتساب والصبر.

[الفصل الثالث][1]

فصل في فضل من مات له أولاد صغار فصبر

عن أنس[2]، رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحلم إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم).[3]

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فتمسه النار إلا تحلة القسم).[4]

هذان الحديثان متفق عليهما.[5]

وعن القسم قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[6].

---

(١) في الاصل: فصل، والمثبت زيادة منا.

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة أو أبو حمزة، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، آخر من مات من الصحابة بالبصرة. توفي سنة ٩٣ هـ. الاعلام: ٢/ ٢٤.

(٣) الحديث في صحيح البخاري: ١/ ٢١٧، في الجنائز، فضل من مات له ولد فاحتسب، وجاء فيه بلفظ (ما من الناس من مسلم....ثلاث .....الحنث....).

وسنن النسائي: ٤/ ٢٤، في الجنائز، من يتوفى له ثلاثة، بلفظ، (....يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث). ولم يخرجه مسلم.

(٤) الحديث في صحيح البخاري: ١/ ٢١٧، في الجنائز، فضل من مات له ولد فاحتسب، وجاء فيه لفظ: (لا يموت لمسلم...فيلج النار)، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٥، في الجنائز، من يتوفى له ثلاثة، والسنن الكبرى للبيهقي: ٤/ ٦٧.

(٥) الحديث الأول لم يخرجه مسلم.

(٦) سورة مريم: ٧١.

والورود :

هو العبور على الصراط[1]، وهو جسر منصوب على ظهرجهنم[2]، عافانا الله منها.

وعن أبي سعيد الخدري[3]، رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله، ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً فنأتيك[4] فيه، تعلمنا مما علمك الله، قال: (فائتين[5] يوم كذا وكذا)، فاجتمعن، فأتاهن النبي، ﷺ، فعلمهن مما علمه الله، ثم قال: (ما منكن من امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلاكانوا لها حجاباًمن النار)، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: (واثنين)[6]. متفق على صحته.[7]

---

(١) في شرح النووي لصحيح مسلم: ١٦/١٨٠ ((قال العلماء: تحلة القسم، ما ينحل به القسم، وهو اليمين، وجاء مفسراً في الحديث أن المراد قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ وبهذا قال أبو عبيد، وجمهور العلماء، والقسم مقدر، أي والله إن منكم إلا واردها.

وفي جامع الأصول: ٩/٥٩١-٥٩٢، قال ابن الأثير: ((تحلة القسم هي تحلة قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾، والقسم قوله تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾، والعرب تقسم وتضمر المقسم به، فوربك وإن منكم الا واردها ونحوه، وقيل معنى الحديث من قول العرب: ضربته تحليلاً وضربته تعزيراً، إذا لم يبالغ في ضربه، وهذا مثل في القليل المفرط القلة، وهو أن يباشر من الفعل الذي يقسم عليه المقدار الذي يبر به، مثل أن يحلف على النزول بمكان، فلو وقع بع وقعة خفيفة أجزاه، فتلك تحلة القسم، فالمعنى: لا تمسه النار إلا مسة يسيرة، مثل تحليل قسم الحالف. وانظر قول ابن الاثير في النهاية: ٢/٤٢٩-٤٣٠.

(٢) قال النووي: والمختار أن المراد به المرور على الصراط. شرح صحيح مسلم: ١٦/١٨٠، وفي النهاية: ٢/٤٣٠: ((ويريد بتحلته الورود على النار والاجتياز بها)).

(٣) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الانصاري الخزرجي، أبو سعيد، (ت ٧٤ هـ)، صحابي، كان من ملازمي النبي ﷺ. الاعلام: ٣/٨٧.

(٤) في صحيح مسلم: ٤/٢٠٢٨: نأتيك.

(٥) في صحيح مسلم: ٤/٢٠٢٨: اجتمعن في.

(٦) في صحيح مسلم: ٤/٢٠٢٨-٢٠٢٩: ((فقالت امرأة: واثنين واثنين واثنين)) فقال رسول الله ﷺ: (واثنين واثنين واثنين).

(٧) الحديث رواه البخاري في صحيحه: ١/٢١٧، في الجنائز، فضل من مات له ولد فاحتسبه، وجاء فيه بلفظ: أن النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يوماً، فوعظهن وقال: (أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كانوا حجاباً من النار)،

=

[الفصل الرابع] [1]

في النهي عن البكاء جزعاً، وفي تحريم النياحة على الميت، ولطم الخد، وتسخيمه بسواد، أو رماد، أو مداد، وشق الجيب، ونتف الشعر، وحلقه، أو نشره، أو قطعه، وعن الدعاء بالويل والثبور، ودعوى الجاهلية.

في الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه، قال مر النبي، ﷺ، بامرأة تبكي عند قبر، فقال: (اتقي الله واصبري)، فقالت : إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فلما ولى، قيل لها: إنه رسول الله، ﷺ، فأتت بابه، فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك، فقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[2].

وعن عمر بن الخطاب[3]، رضي الله عنه قال: قال رسول الله، ﷺ: (الميت يعذب في قبره بما نيح عليه). متفق عليه[4].

قالت امرأة: واثنان قال: (واثنان)ورواه أيضاً في صحيحه: ٢٦٣/٤، في الاعتصام بالسنة، تعليم النبي ﷺ أمته من النساء والرجال، ورواه مسلم في صحيحه: ٢٠٢٨/٤-٢٠٢٩، في البر والصلة، فضل من يموت له ولد، ورواه النسائي: ٢٣/٤-٢٤، في الجنائز، ثواب من احتسب ثلاثة، وجاء فيه بلفظ: من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة)، فقامت امرأة فقالت: (أو اثنان؟) قال: اثنان، قالت المرأة: يا ليتني قلت واحداً))، وابن أبي شيبة في المصنف: ٣٥٣/٣، والامام أحمد في المسند: ٣٤/٣، ١٢٢، ١٥٤/٤، ٢٧/٦، ٢٩.

(١) في الاصل: فصل والمثبت زيادة منا.

(٢) الحديث في صحيح البخاري: ٢١٨/١، في الجنائز، قول الرجل للمرأة عند القبر اصبري، وفي: ٢٢٢/١، في الجنائز، زيارة القبور، وفي صحيح مسلم: ٦٣٧/٢-٦٣٨، في الجنائز، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى.

والصبر عند الصدمة الاولى: أي عند قوة المصيبة وشدتها، النهاية: ١٩/٣.

(٣) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص (ت ٢٣ هـ)، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل الشجاع، صاحب الفتوحات، وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري، قتله أبو لؤلؤة الفارسي غيلة. الاعلام: ٤٥/٥.

(٤) الحديث في صحيح البخاري: ٢٢٤/١، في الجنائز، ما يكره من النياحة على الميت بلفظه، وفي صحيح مسلم ٦٣٩/٢، في الجنائز، الميت يعذب ببكاء أهله عليه، بلفظ: (الميت يعذب في قبره بما نيح عليه). وفي البخاري

=

وعن ابن مسعود، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)[1]. متفق عليه أيضاً.

دعوى الجاهلية: مثل قوله: واخلاه، واكهفاه، واعزاه، ويا لقيس، ويا لعامر، ويا للمهاجرين، ونحو ذلك.

وعن أبي بردة[2] قال: وجع أبو موسى الأشعري[3]، ورأسه في حجر امرأة من أهله، فأقبلت امرأته تصيح برنة، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: ((أنا بريء ممن برئ منه رسول الله ﷺ برئ من الصالقة، والحالقة، والشاقة))[4]. متفق عليه أيضاً.

الصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة والندب[5]. والحالقة: هي التي تحلق رأسها عند

١/٢٢٣، بلفظ: (إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه) وكذا في سنن أبي داود: ٣/١٩٤، في الجنائز،باب في النوح، وسنن النسائي: ٤/١٧، في الجنائز، النياحة على الميت.

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه: ١/٢٢٥، في الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب بلفظ: (ليس منا من لطم....)، وفي باب ما ينهى من الويل ودعوى الجاهلية، بلفظه. ومسلم: ١/٩٩، في الايمان تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب، وابن ماجه: ١/٥٠٤، في الجنائز، النهي عن ضرب الخدود، والترمذي: ٣/٣٨٠، في الجنائز، النهي عن ضرب الخدود والنسائي: ٤/١٩، في الجنائز، دعوى الجاهلية، و٤/٢٠، في الجنائز، ضرب الخدود، ورواه عنهم السيوطي في كتابه اسبال الكساء: ٦٣، بتحقيقنا.

(٢) هو أبو بردة بن قيس الاشعري، أخو أبي موسى الاشعري، واسمه عامر. وهو أبو بلال بن أبي بردة، أمير البصرة وقاضيها. أسد الغابة: ٦/٢٩.

(٣) مرت الترجمة

(٤) الحديث رواه البخاري: ١/٢٢٥، في الجنائز، ما ينهى من الحلق عند المصيبة، وجاء فيه بلفظ: ((وجع أبو موسى وجعاً فغشي عليه، ورأسه في حجر امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا بريء ممن بريء منه رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة))، ومسلم: ١/١٠٠، في الايمان، تحريم ضرب الخدود، والنسائي: ٤/٢٠، في الجنائز، السلق، بلفظ: ((أبرأ اليكم كما بريء الينا رسول الله ﷺ، ليس منا من حلق ولا خرق ولا سلق))، وفيه أيضاً في باب الحلق، بلفظ: ((ألم أخبركم أني بريء ممن حلق وخرق وسلق))، وأبو داود: ٣/٤٩٦، في الجنائز، ما جاء في النوح.

(٥) في النهاية: ٣/٤٨٠ ((الصلق: الصوت الشديد، يريد رفعه في المصائب وعند الفجيعة بالموت، ويدخل فيه النوح، ويقال بالسين، وفي النهاية: ٢/٣٩١، ((سلق: رفع صوته عند المصيبة، وقيل: هو أن تصك المرأة وجهها وتمرشه)).

المصيبة[1]، والشاقة: هي التي تشق ثوبها.[2]

وعن أم عطية[3] قالت: ((أخذ علينا رسول الله، ﷺ، عند البيعة ألا نـوح))[4]. متفق عليه.

وعن المغيرة بن شعبة[5]، رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: (من نيح عليه، فإنه يعذب بما نيح[6] عليه يوم القيامة).[7]

وعن النعمان بن بشير[8]، رضي الله عنهما: قال: أغمي على عبدالله بن رواحة[9]،

---

(١) النهاية: ١/٤٢٧.

(٢) اسبال الكساء للسيوطي، بتحقيقنا: ٦٤.

(٣) هي أم عطية نسيبة بنت الحارث، وقيل بنت كعب، صحابية، مشهورة باسمها وكنيتها، روت عن النبي ﷺ وعمر، وعنها أنس بن مالك ومحمد وحفصة ابنا سيرين وغيرهم، وقد غزت مع النبي ﷺ سبع غزوات، حديثها في الكتب الستة.

(٤) الحديث في صحيح البخاري: ١/٢٢٧، في الجنائز، ما ينهى عن النوح والبكاء، وجاء فيه: عن أم عطية قالت: أخذ علينا النبي ﷺ عند البيعة الا ننوح، فلما وفت منا امرأة غير خمس نسوة، أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، امرأة معاذ وامرأتين أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة اخرى، صحيح مسلم: ٢/٦٤٥، في الجنائز، التشديد في النياحة.

(٥) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، يكنى أبا عيسى، أسلم عام الخندق، وشهد الحديبية، ولي البصرة لعمر، (ت ٥٠ هـ). أسد الغابة: ٥/٢٤٧.

(٦) في الاصل: من ينح عليه...بما ينح عليه، والمثبت من البخاري: ١/٢٢٤، ومسلم: ٢/٦٤٣.

(٧) الحديث في صحيح البخاري: ١/٢٢٤، في الجنائز، ما يكره من النياحة على الميت، وجاء فيه جزءاً من حديث هو بتمامه: عن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ان كذباً علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، سمعت النبي ﷺ يقول: (من نيح عليه يعذب بما نيح عليه)، وفي صحيح مسلم: ٢/٦٤٣، في الجنائز، الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

(٨) هو النعمان بن بشير بن ثعلبة بن سعد بن خلاس الانصاري، ولد قبل وفاة الرسول بثماني سنين وسبعة أشهر، أول مولود للانصار بعد الهجرة، لابويه صحبة، روى عنه ابناه محمد وبشير والشعبي وغيرهم. أسد الغابة: ٥/٣٢٦.

(٩) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الانصاري، من الخزرج، أبو محمد (ت ٨ هـ)، صحابي، يعد من الامراء والشعراء الراجزين، كان يكتب في الجاهلية، وكان أحد الامراء في وقعة مؤتة، واستشهد فيها. الاعلام: ٤/٨٦.

فجعلت أخته تبكي: و اجبلاه، واكذا، واكذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً[1] إلا قيل لي: آنت (كذلك؟)[2] رواه البخاري[3].

وعن أبي مالك الأشعري[4]، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (النائحة إذالم تتب، قبل موتها، تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)[5]. رواه مسلم.

وقال ﷺ: (إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن، يعذب بهذا)، وأشار إلى لسانه، [أو يرحم][6]. متفق عليه.

---

(١) في الاصل: قلت لي شيئاًنوالمثبت من البخاري: ٥٩/٣، في المغازي، غزوة مؤتة.

(٢) في الاصل: كذاك، والمثبت من البخاري: ٥٩/٣.

(٣) الحديث في صحيح البخاري: ٥٩/٣، في المغازي، غزوة مؤتة.

(٤) اختلف في اسمه فقيل كعب بن مالك، وقيل كعب بن عاصم، وقيل عبيد، وقيل: عمرو، وقيل الحارث، يعد في الشاميين، قدم في السفينة مع الاشعريين على النبي ﷺ، له صحبة، أسد الغابة: ٢٧٢/٦.

(٥) جزء من حديث رواه مسلم: ٦٤٤/٢، في الجنائز، التشديدفي النياحة، والحديث بتمامه: قال رسول الله ﷺ: (أربع في أمتي من أمور الجاهلية، الفخر في الاحساب، والطعن في الانساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، وإن النائحة إذا لم تتب قبل موتها...) ورواه ابن ماجه: ٥٠٣/١، في الجنائز، النهي عن النياحة، ولفظه: (النياحة من الجاهلية، وان النائحة إذا ماتت، ولم تتب، قطع الله لها ثياباً من قطران، ودرعاً من لهب النار)، والحاكم في المستدرك: ٣٨٣/١، وأبو يعلى في المفاريد: ٨٧، والترمذي: ٣٨٢/٣، في الجنائز، كراهية النوح، والديلمي في فردوس الاخبار: ٦١/٥، بدون ((لم تتب))، والمنذري في الترغيب والترهيب: ٣٥١/٤، والسيوطي في اسبال الكساء: ٥٩، بتحقيقنا.

(٦) الحديث في صحيح البخاري: ٢٢٦/١، في الجنائز، البكاء عند المريض، وجاء فيه: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله، فقال: (قد قضى؟) قالوا: لا، يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا، فقال: (ألا تسمعون، إن الله لا يعذب..وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه)، وفي صحيح مسلم: ٦٣٦/٢، في الجنائز، البكاء على الميت، وبدون (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه).

وعن أسيد بن أبي أسيد[١] التابعي، عن امرأة من المبايعات قالت: ((كان فيما أخذ علينا رسول الله، ﷺ، في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجهاً، ولا ندعو ويلاً، ولا نشق جيباً، ولا ننشر شعراً))[٢]. رواه أبو داود بإسناد حسن.[٣]

وعن أبي موسى، رضي الله عنه، أن رسول الله، ﷺ، قال: (ما من ميت يموت، فيقوم باكيهم، فيقول : واجبلاه، واسيداه، ونحو ذلك، إلا وكل به ملكان يلهزانه[٤]: أهكذا كنت؟)[٥]. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.[٦]

اللهز: الدفع بجمع اليد في الصدر.[٧]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (اثنتان في

---

(١) هو أسيد بن مالك بن ربيعة بن البدن الخزرجي.

(٢) الحديث في سنن أبي داود: ١٩٤/٣، في الجنائز، في النوح، وجاء فيه بلفظ: ((وأن لا ننشر)) بدل ((ولا ننشر))، وفي الترغيب والترهيب: ٤٥٣/٤، والسنن الكبرى، للبيهقي: ٦٤/٤، وفي التهذيب: ٢٣٨/٣، قال بعد أن ذكر رواية أبي داود: أظنه غير البراد، فإن البراد ليس له شيء عن الصحابة، وإن يكنه، فإن روايته عن المرأة منقطعة، وفي تفسير ابن كثير: ١٢٨/٨، أنه البراد، وذكره السيوطي عن أبي داود في اسبال الكساء: ٦٣.

(٣) اسناده عند أبي داود: حدثنا مسدد، ثنا حميد بن الاسود ثنا الحجاج عامل لعمر بن عبد العزيز على الربذة، حدثني أسيد بن أبي أسيد...به)).

(٤) في الاصل: يلهذانه، والمثبت من سنن ابن ماجه، ومن الترمذي.

(٥) في الاصل: أنت، والمثبت من الترمذي.

(٦) الحديث بلفظه في سنن ابن ماجة: ٥٠٨/١، في الجنائز، ما جاء في الميت يعذب بما نيح عليه، وسنن الترمذي: ٣٨٣/٣، في الجنائز، كراهية البكاء على الميت، وجاء فيه بلفظ: باكية بدل باكيهم، وبلفظ: ((أهكذا كنت)) بدل ((أهكذا أنت)). ((أو نحو ذلك)) بدل: ونحو ذلك، وكذا في الفتح الكبير: ١٢٢/٣، والترغيب والترهيب: ٣٤٩/٤.

والحديث في التلخيص لابن حجر: ١٤٠/٢، بلفظ: ((إلا ويلزمه ملكان ((بلهازمه)) بدل: ((يلهزانه)).

(٧) في النهاية: ٢٨١/٤، ((اللهز: الضرب بجمع الكف في الصدر، ويلهزانه: يدفعانه ويضربانه، ولهزه بالرمح؛ إذا طعنه به)).

الناس هما بهم كفر؛ الطعن في النسب، والنياحة على الميت).[1]

والنياحة: رفع الصوت بالندب، وكذا تعديد النادبة بصوتها محاسن الميت، وقيل: هو البكاء عليه مع تعديد محاسنه.

واجتمعت الأمة على تحريم النياحة، وما ذكر معها عند المصيبة.

والذي ينفع الميت (قضاء)[2] دينه، والترحم عليه، والاستغفار والتصدق عنه، وقضاء حقوق الله من حج وزكاة ونحوها.

ومما يسلي عن الميت أيضاً التأسي بالأكابر، وكثرة من مات لهم، ولم يجزعوا، بل صبروا، فأوجروا، ورضوا وسلموا، فرضي عنهم، وسلموا من محبطات الأجور.

فلقد مات في طاعون كان في زمن ابن الزبير[3] في سنة تسع وستين من الهجرة[4] ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفاً، ومات لعبد الرحمن بن أبي (بكرة)[5] فيه أربعون ابناً[6]، ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ابناً، وقيل: ثمانية وسبعون ابناً[7]، فصبروا

---

(١) صحيح مسلم: ٨٢/١، في الايمان، اطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب، وفردوس الاخبار: ١٣٨/٢، ١٦٣/٢، والترغيب والترهيب: ٤٣٩/٤، واسبال الكساء: ٦٠. بتحقيقنا.

(٢) في الاصل: قضي.

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الاسدي، أبو بكر (ت ٧٣ هـ)، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ، عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق، كانت له مع الامويين وقائع هائلة، قتل في مكة، الاعلام ٨٧/٤.

(٤) في المعارف: ٢٥٩، وتاريخ الطبري: ٣٢٥/٦، وتاريخ ابن خياط: ٢٦٥، والعبر: ٧٦/١: ((سمي هذا الطاعون بالطاعون الجارف)). وجاء في تاريخ الطبري ٣٢٥/٦ أنه وقع سنة ٨٠ للهجرة.

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي بكرة، ((نفيع بن الحارث)) الثقفي، من أعيان التابعين، استخلفه زياد أمير البصرة على بعض أعمالها، وتوفي فيها سنة ٩٦ هـ. الاعلام: ٣٠٢/٣.

(٦) التعازي والمراثي: ٢٠٩، وسلوة الحزين: ٨١.

(٧) في سلوة الحزين: ٨١، ((ثلاثة وثلاثون. وفي احدى المخطوطات: ٨٣، والتعازي والمراثي: ٢٠٩، وفي تاريخ ابن خياط: ٢٦٥، قال: ((مات فيه أولاد لأنس بن مالك كثير عددهم)).

وشكروا، وحمدوا واسترجعوا، فسلموا وأجروا.

وعن معاوية بن قرة بن إياس[1] عن أبيه رضي الله عنه: أن النبي ﷺ، فقد بعض أصحابه، فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله، بنيه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي ﷺ، فسأله عن بنية، فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال: (يا فلان، أي ما كان أحب إليك، أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً باباً[2] من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه، يفتحه لك؟) قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى (باب)[3] الجنة، فيفتحها لي، (فلهو) أحب إلي[4]، قال:(فذاك)[5]. رواه النسائي، بإسناد حسن[6].

---

(١) هو معاوية بن قرة بن إياس.

(٢) في الاصل: باباً الا وجدته، والمثبت من النسائي: ٤/١١٨.

(٣) ساقط من الاصل، والزيادة من النسائي: ٤/١١٨.

(٤) في الاصل: بل هو أحب الي، والمثبت من النسائي: ٤/١١٨.

(٥) في الاصل: فذلك لك، والمثبت من النسائي: ٤/١١٨.

(٦) الحديث في سنن النسائي: ٤/١١٨، في الجنائز، في التعزية، وجاء فيه: السند: أخبرنا هرون بن زيد وهو ابن أبي الزرقاء قال: حدثني أبي قال: حدثنا خالد بن ميسرة قال: سمعت معاوية بن قرة عن أبيه قال: كان نبي الله ﷺ إذ جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: (ما لي لا ارى فلاناً؟) قالوا: يا رسول الله بنيه الذي رأيته هلك، فلقيه...). وفي السنن الكبرى للبيهقي: ٤/٥٩-٦٠، وفي المستدرك: ١/٣٨٤، وصححه وفي المسند: ٥/٣٥.

وفي الصحيحين عن أنس، رضي الله عنه قال: كان ابن يشتكي لأبـي طلحـة[1]، رضـي الله عنه، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة، قال: مـا (فعـل)[2] ابـني؟ (قالت:[3] أم سليم)[4]، وهي أم الصبي: هو أسكن ممـا[5] كـان، فقربـت (إليـه)[6] العشـاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ، قالت: (واروا)[7] الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتـى رسول الله، ﷺ، فأخبره، فقال: أعرستم الليلـة؟ قـال: نعـم، قـال: (اللهـم بـارك لهمـا)، فولدت غلاماً، فقال لي أبو طلحة: احمله حتـى نـأتي بـه النبـي ﷺ، وبعثـت معـه بتمـرات، [فأخذه النبي][8] فقال: (أمعه شيء؟) قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي، ﷺ، فمضغها، ثـم أخذها من فيه، فجعلها في في الصبي، ثم حنكه، وسماه عبدالله))[9].

وفي رواية البخاري: قال ابن عيينة[10]: فقـال رجـل مـن الأنصـار: ((فرأيـت (لهمـا)[11]

---

(١) هو زيد بن سهل بن الاسود البخاري الانصاري، أبو طلحة (ت ٣٤ هـ)، صحابي من الشجعان الرمـاة المعدوديـن في الجاهلية والاسلام، ولما ظهر الاسلام كان من كبار أنصاره. الاعلام: ٥٨/٣.

(٢) ساقطة من الاصل، والمثبت من صحيح مسلم: ١٦٩٠/٣.

(٣) في الاصل: قالت أم الصبي، والمثبت من صحيح مسلم: ١٦٩٠/٣.

(٤) هي أم أنس بن مالك، قيل اسمها سهلة، وقيل رميلة، وقيل رميثة، وقيل: مليكة، والغميصاء والرميصاء بنت ملحان بن خالد بن زيد الانصارية، كـانت تحت مـالك بـن النضر في الجاهليـة، فغضـب عليهـا فخـرج ومـات في الشـام، وخطبها أبو طلحة، وهو مشرك، فكان مهره إسلامه، أسد غبة: ٣٤٥/٧

(٥) في الاصل: ما، والمثبت من صحيح مسلم

(٦) في الاصل: له، والمثبت من صحيح مسلم

(٧) في الاصل: وار، والمثبت من صحيح مسلم.

(٨)ساقط من الاصل، والزيادة من صحيح مسلم: ١٦٩٠/٣.

(٩) الحديث بلفظـه في صحيـح مسـلم: ١٦٩٠/٣، في الاداب، اسـتحباب تحنيـك المولـود عنـد ولادتـه. وفي صحيـح البخاري: ٢٢٦/١، في الجنائز، من لم يظهر حزنه، وفي صحيح مسلم: ١٩٠٩/٤، في فضائل الصحابة، من فضائل أبي طلحة.

(١٠) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد (ت ١٩٨ هـ)، محـدث الحـرم المكي، مـن المـوالي، ولـد بالكوفة، وسكن مكة، وتوفي بها، كان حافظاً ثقة، واسع العلـم، كبـير القـدر. لـه الجـامع في الحديـث، وكتـاب في التفسير. الاعلام: ١٠٥/٣.

(١١) زيادة من صحيح البخاري: ٢٢٦/١.

تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن[1]، يعني من أولاد عبدالله المولود)).

وفي رواية لمسلم: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت: (لأهلها)[2]: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه، حتى أكون أنا أحدثه، (قال) فجاء[3]، فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما (كان)[4] تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن (قوما)[5] أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت : فاحتسب ابنك، قال: فغضب (وقال)[6] تركتيني حتى تلطخت[7]، ثم أخبرتيني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: (بارك الله لكما في [غابر][8] ليلتكما)، قال: فحملت)). وذكر باقي الحديث[9].

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢٢٦، في الجنائز، من لم يظهر حزنه.

(٢) ساقط من الاصل، والزيادة من صحيح مسلم: ٤/١٩٠٩.

(٣) ساقط من الاصل، والزيادة من صحيح مسلم: ٤/١٩٠٩.

(٤) في الاصل: كانت، والمثبت من صحيح مسلم: ٤/١٩٠٩.

(٥) في الاصل: قوم.

(٦) في الاصل: ثم قال.

(٧) في الاصل: حتى إذا تلطخت.

(٨) ساقط من الاصل، والزيادة من صحيح مسلم.

(٩) صحيح مسلم: ٤/١٩٠٩، في فضائل الصحابة، من فضائل أبي طلحة، وتتمة الحديث فيه: ((قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر، وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفر لا يطرقها طروقا، فدنوا من المدينة، فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ، قال: يقول أبو طلحة: إنك وقد احتسبت بما ترى. قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، انطلق، فانطلقنا، قال: وضربها المخاض حين قدما، فولدت غلاما، فقالت لي أمي: يا أنس، لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به الى رسول الله ﷺ، فصادفته ومعه ميسم، فلما رآني قال: (لعل أم سليم ولدت؟) قلت: نعم، فوضع الميسم، قال: وجئت به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكها في فيه، حتى ذابت، ثم قذفها في في الصبي، فجعل الصبي يتلمظها، قال: فقال رسول الله ﷺ: (انظروا الى حب الانصار التمر) قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله.

وعن جويرية (بن)[1] أسماء عن عمه أن إخوة ثلاثة شهدوا يوم تستر[2]، فاستشهدوا، فخرجت أمهم يوماً إلى السوق لبعض شأنها، فتلقاها رجل حضر تستر[3]، فعرفته، فسألته عن أمر بنيها، فقال : استشهدوا، فقالت: مقبلين أو مدبرين؟[4] فقال: مقبلين[5]. (فقالت)[6]: الحمدلله، نالوا الفوز، وحاطوا الذمار، بنفسي هم وأبي وأمي[7].

الذمار: أهل الرجل وعشير هم مما يحق عليه أن يحميهم؛ أي حفظوا ورعوا، فحصلت لهم الشهادة[8]

وعن ميمون بن مهران[9] قال: عزى رجل عمر بن عبد العزيز[10]، رضي الله عنه، على ابنه عبد الملك[11]، فقال عمر: ((الأمر الذي نزل بعبد الملك أمر كنا نعرفه[12]، فلما

(١) في الاصل: بنت، وهو تحريف، فهو جويرية بن أسماء بن عبيد بن مخارق أبو مخارق الضبعي. التهذيب: ٥/١٧٢.

(٢) تستر أعظم مدينة بخوزستان. معجم البلدان: ٢/٢٩.

(٣) في التعازي: ٤٦، ((قد حضر امرهم)).

(٤) في التعازي: ٤٦، ((أمقبلين أم مدبرين)).

(٥) في التعازي: ٤٦، ((بل مقبلين)).

(٦) في التعازي: ٤٦، ((فقالت)).

(٧) في التعازي: ٤٦،((وأمي وأبي)) والقصة فيه.

(٨) الذمار: ذمار الرجل هو كل ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته، وإن ضيعه لزمه اللوم، ويقال: ما وراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه. تاج العروس: ١١/٣٨٨.

(٩) هو ميمون بن مهران الرقي، أبو أيوب (ت ١١٧ هـ)، فقيه من القضاة، كان مولى لامرأة بالكوفة، واعتقته، ثم استوطن الرقة، واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة. الاعلام: ٧/٣٤٢.

(١٠) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الاموي القرشي، ابو حفص، (ت ١٠ هـ)، الخليفة الصالح، والملك العادل، أخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، نشأ في المدينة، الاعلام: ٥/٥٠.

(١١) هو عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، أمير أكموي، عاش ملازما لأبيه، كان من أحب الناس اليه، مات قبل وفاته سنة ١٠١ هـ الاعلام: ٤/١٦١.

(١٢) في التعازي: ٥٨ ((ننتظره)).

وقع لم نكرهه))[1]

وقام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه هذا فلما دفن قال: ((رحمك الله يا بني، قد كنت ساراً مولوداً، وباراً ناشئاً، وما أحب أني دعوتك فأجبتني))[2]

وعن مسلمة[3] قال: ((لما مات عبد الملك بن عمر، كشف أبوه عن وجهه، وقال: رحمك الله يا بني، لقد سررت بك يوم بشرت بك، ولقد عمرت مسروراً بك، وما أتت علي ساعة أنا فيها أسر من ساعتي هذه[4]، أما والله إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة))[5]

ومات ابن للشافعي[6]، رضي الله عنه فقال :

وما الدهرُ إلا هكذا فاصطبر له رزيةُ مالٍ أو فراقُ حبيب[7]

---

(١) الخبر في التعازي: ٥٧-٥٨. وفي تسلية أهل المصائب: ١٦٨، معزوا لابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران، وفي ارتياح الاكباد: ق ١٢٧، وفيه ق: ١٣٢، ومات لبعض الصالحين ولد فلم يجزع عليه، فقيل له في ذلك، فقال: هذا امر كنا نتوقعه. فلما وقع لم نكرهه.

(٢) الخبر في تسلية أهل المصائب: ١٦٦، وفي التعازي: ٥٨، وفي ارتياح الاكباد: ق: ١٢٦، ((رحمك الله يا بني فقد كنت براً بأبيك، والله ما زلت مسروراً بل منذ وهبك الله لي)).

(٣) هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت ١٢٠ هـ)، أمير قائد، من أبطال عصره، له فتوحات مشهورة، ولي إمرة العراقين ثم أرمينية، الاعلام: ٢٢٤/٧.

(٤) في التعازي:٥٨ ما أتت علي ساعة أنا بك فيها أسر مني بك من ساعتي هذه.

(٥) في التعازي: ٥٨-٥٩، وفي ارتياح الاكباد: ق ١٢٤، وجاء فيه عن آخر، وبلفظ: ولقد عمرت بك مسروراً، أنا بك فيها أسر مني بك من ساعتي هذه.

(٦) هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله (ت ٢٠٤ هـ)، أحد الأئمة الاربعة عند أهل السنة، واليه نسبة الشافعية كلها، له: الأم والمسند في الحديث، وغيرها كثير، الاعلام: ٢٦/٦.

(٧) في مناقب الشافعي للبيهقي: ٨٩/٢، وفي تسلية أهل المصائب: ١٦٤، وجاء فيه: ومات ابن للشافعي رحمه الله فجاؤوا يعزونه فأنشد.ولم نجد البيت في ديوانه، وفي برد الاكباد بتحقيقنا:٥٣.

وبلغ الشافعي، رضي الله عنه، أن عبد الرحمن بن مهدي مات ابن له، فجزع عليه عبد الرحمن جزعاً شديداً[1]، فبعث إليه الشافعي، رضي الله عنه[2]: يا أخي[3]، عز نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن (أمض)[4] المصائب فقد سرور وحرمان[5] أجر، فكيف إذا اجتمعا مع[6] اكتساب وزر؟ فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه، وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً، وكتب إليه[7]:

إني معزيك لا أني على ثقة ... من الخلود ولكن سنة الدين
فما المعزّى بباق بعد ميته ... ولا المعزِّي ولو عاشا إلى حين[8]

---

(١) في فضل الجلد بتحقيقنا: ٥٦، فجزع عليه جزعاً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب.

(٢) في فضل الجلد: ٥٦: فبلغ ذلك محمد بن ادريس الشافعي فكتب اليه: أما بعد.

(٣) في فضل الجلد: ٥٦، أما بعد، فعز نفسك.

(٤) في الاصل: أقض والمثبت من فضل الجلد: ٥٦: ومن برد الاكباد: ٥١.

(٥) في فضل الجلد: ٥٦ ((مع حرمان)).

(٦) في فضل الجلد: ٥٦ ((على)).

(٧) في فضل الجلد: ٥٦ ((وأقول)).

(٨) الخبر في فضل الجلد : ٥٦-٥٧ معزواً للبيهقي في الشعب عن محمد بن عيسى الزاهد، ففي تسلية اهل المصائب:١٦٤، معزواً للبيهقي في مناقب الشافعي وبلفظه كما جاء في كتابنا هذا وفي برد الاكباد: ٥١، وجاء فيه الخبر معزوا للحاكم ابي عبد الله عن ابي عبد الله محمد بن ابي ابراهيم المؤذن. وفيه : وفي غير رواية الحاكم: ((فتناول حظك يا اخي اذا قرب منك قبل ان تطلبه، وقد بعد عنك الهمك الله عند المصائب صبرا، واجزل لنا ولك بالصبر أجرا)).

ومناقب الشافعي: ٢/٩٠-٩١، وفي المستطرف: ٢/٣٠٣، وفي سلوة الحزين :١١٦- ١١٧، معزوا للبيهقي.

وفي معجم الادباء ٦/٣٨٥، وفي العقد الفريد : ٣/٣١٠، ونسب فيه البيتين لمحمد ابن عبد الله الظاهر يعزي المتوكل بولده.

والبيتان في ديوان الشافعي :١٤٨.

وكتب رجل إلى بعض إخوانه يعزيه بابنه: ((أما بعد، فإن الولد على والده، ما عاش، حزن وفتنة، فإذا قدمه (فصلاة)[1] ورحمة وهداية[2]، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله، عز وجل، من صلاته ورحمته وهدايته[3]، وفي تعزية الخضر، عليه السلام، لبيت النبي ﷺ، ورضي الله عنهم حين سمعوا الصوت، ولم يروا الشخص، وكانوا يرون أنه الخضر، أبلغ تسلية، وهي: ((إن في الله (عزاء من كل مصيبة و)[4] خلفاً من كل فائت، ودركاً من كل هالك، فبالله ثقوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب))[5].

و لله در قول بعض الأدباء الألباء:

صبراً جميلاً على ما فات من حدث ... فالصبرُ ينفع أقواماً إذا صبروا
والصبرُ أفضل شيء يستعانُ به ... على الزمان إذا ما مسَّك الضرر

وعن أبي قدامة الشامي قال: كنت آمراً على الجيش في بعض الغزوات، فدخلت بعض البلدان، فدعوت الناس إلى الغزاة، ورغبتهم في الجهاد، وذكرت فضل الشهادة، وما

---

(١) في الاصل: صلاة ، والمكبت بتسليك اهل المصائب: ١٦٩.

(٢) كلمة هداية غير مذكورة في تسلية اهل المصائب.

(٣) الخبر في تسلية اهل المصائب: ١٦٩-١٧٠.

(٤) زيادة من مسند الشافعي: ٢١٦/١، دلائل النبوة: ٢٦٨/٧.

(٥) اخرجه الشافعي في مسنده: ٢١٦/١، ونقله البيهقي عنه في دلائل النبوة: ٢٦٨/٧، وجاء فيه: عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده به. قال البيهقي : هذان الاسنادان وان كانا ضعيفين فاحدهما يتاكد بالاخر، ويدلك على ان له اصلاً من حديث جعفر. حيث اخرجه ايضا قال: وحدثنا ابو عبد الله الحافظ، قال اخبرنا ابو جعفر البغدادي: حدثنا عبد الله بن المرتعد الصنعاني، قال: حدثنا ابو الوليد المخزومي حدثنا انس بن عياض عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جابر بن عبد الله به ، ولمستدرك : ٥٨/٣، قال : ونقله بدون عزو في سلوة الحزين: ١١٦. وفي السيرة النبوية لابن كثير : ٥٥٠/٤، ((وهذا الحديث مرسل، وفي اسناده ضعف في حال القاسم العمري، فانه قد ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه بالكلية اخرون)).
وجاء اسناده فيه: أخبرنا أبوجعفر.

لأهلها، ثم تفرق الناس، وركبت فرسي، وسرت إلى منزلي، فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي: يا أبا قدامة، فقلت: هذه مكيدة من الشيطان، فمضيت، ولم أجب، فقالت : ما هكذا كان الصالحون، فوقفت فجاءت، ودفعت إلي رقعة وخرقة مشدودة، وانصرفت باكية، فنظرت في الرقعة، فإذا فيها مكتوب: أنت دعوتنا إلى الجهاد، ورغبتنا في الثواب، ولا قدرة لي على ذلك، فقطعت أحسن ما في، وهما ضفيرتاي، وأنفذتهما إليك، لتجعلهما قيد فرسك، لعل الله يرى شعري قيد فرسك في سبيله، فيغفر لي.

فلما كان صبيحة القتال، أخرجت الضفيرتين فقيدت بهما فرسي، وباكرنا القتال، فإذا بغلام بين يدي الصفوف يقاتل حاسراً، فتقدمت إليه، فقلت: يا فتى، أنت غلام غر راجل، ولا آمن أن تجول الخيل، فتطأك بأرجلها، فارجع عن موضعك هذا. قال: أتأمرني بالرجوع، وقد قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ [الأنفال: ١٥]، وقرأ الآية إلى آخرها.

فحملته على هجين كان معي، فقال: يا أبا قدامة، اقرضني ثلاثة أسهم، فقلت : هذا وقت قرض؟ فما زال يلح علي حتى قلت: بشرط، إن من الله عليك بالشهادة، أكون في شفاعتك، قال: نعم، فأعطيته ثلاثة أسهم، فوضع سهماً في قوسه، وقال: السلام عليك، فأنا قدامه، ورمى به فقتل رومياً، ثم رمى بالآخر، وقال: السلام عليك، فأنا قدامه، فقتل رومياً، ثم رمى بالآخر، وقال: السلام عليك، سلام مودع، فجاءه سهم، فوقع بين عينيه، فوقع رأسه على قربوس سرجه، فتقدمت إليه، وقلت: لاتنسها، فقال: نعم، ولكن لي إليك حاجة، إذا دخلت المدينة، فائت والدتي، وسلم خرجي إليها، وأخبرها، فهي التي أعطتك شعرها، لتقيد به فرسك، وسلم عليها، فهي العام الأول أصيبت بوالدي، وفي هذا العام بي، ثم مات، فحفرت له ودفنته، فلما هممت بالانصراف عن قبره، قذفته الأرض، فألقته على ظهرها، فقال أصحابه: إنه غلام غر، ولعله خرج بغير إذن أمه، فقلت: إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا، فقمت فصليت ركعتين، ودعوت الله عز وجل ،

فسمعت صوتا يقول: يا أبا قدامة، اترك ولي الله، فما رحت حتى نزلت عليه طيور فأكلته.

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى دار والدته، فلما قرعت الباب، خرجت أخته إلي، فلما رأتني عادت، وقالت : يا أماه، هذا أبو قدامة، وليس معه أخي، وقد أصبنا العام الأول بأبي، وفي هذا العام بأخي.

فخرجت أمه فقالت: أمعز يا أم مهنئاً؟ فقلت: ما معنى هذا؟ فقالت: إن كان قد مات فعزني، وإن كان استشهد فهنئني.

فقلت: لا، بل مات شهيداً، فقالت: له علامة، فهل رأيتها؟ قلت : نعم، لم تقبله الأرض، ونزلت الطيور، فأكلت لحمه، وتركت عظامه، فدفنتها، فقالت: الحمدلله، فسلمت إليها الخرج ففتحته، فأخرجت منه مسحاً وغلاً من حديد، وقالت: إنه كان إذا جنه الليل، لبس هذا المسح، وغلَّ نفسه بهذا الغلّ، وناجى مولاه، وقال في مناجاته: ((إلهي، احشرني من حواصل الطير))، فاستجاب الله سبحانه دعاءه. رحمنا الله وإياه.

وفي ذكر الموت، ونقص الأمل أعظم مصطبر ومزدجر، وأحسن معتبر وأرجى مدخر.

قال الله (تعالى)[1]: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل

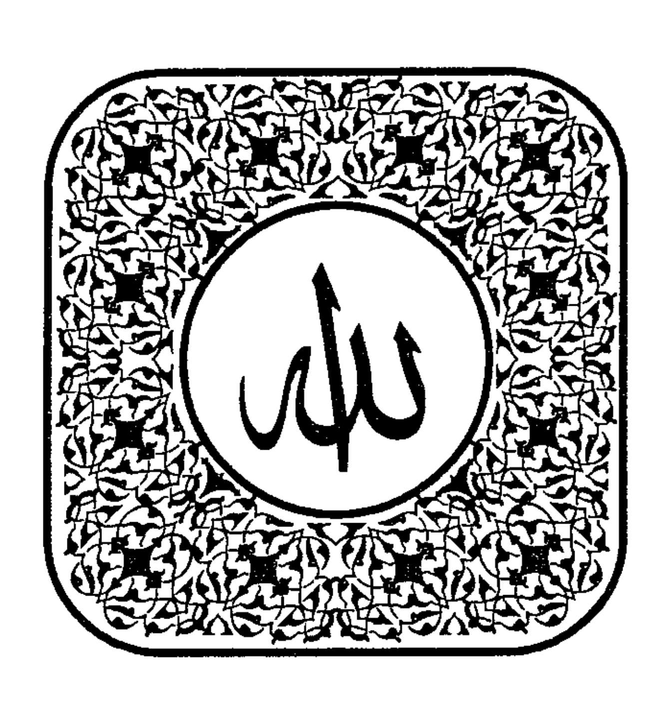
(١) زيادة يقتضيها السياق.

نفس ذائقة الموت، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وقال ﷺ: (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك (نعله)[1]، والنار مثل ذلك)[2]

أيقظنا الله من رقدة الغافلين، وجعلنا من الصابرين الشاكرين الحامدين المستيقظين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) في الاصل: نعليه، والتصويب من صحيح البخاري: ٤/١٢٧.

(٢) الحديث في صحيح البخاري: ٤/١٢٧، في الرقاق، الجنة اقرب الى احدكم، وفي المسند: ١/٣٨٧، ٤١٣، ٤٤٢، وفي فردوس الاخبار: ٢/١٨٩.



ماذا في قصة موسى

بقلم الدكتور – مصطفى السيد

رئيس قسم الأدب بجامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية

فرع القصيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وسلم، أما بعد فإن مكتبة علوم القرآن معجزة أخرى لهذا الكتاب العظيم، الذي خلد العربية وحمى كيانها.

وتتمثل هذه المعجزة في نهر المعرفة المتدفق، الذي فجرته آياته وكلماته منذ اللحظة الأولى لنزوله حتى النصف الأول من الألف الثانية من عمره المبارك، هكذا كان في المضمار الثقافي.

أما في الميدان العملي، فما زال يبعث في الأمة أملاً متجدداً، وعزة قعساء[1]، لا ترى فيما يجابهها أكثر من كبوة عابرة ومحنة زائلة؛ لأنها تجد في تاريخ البشرية الممتد فوق جباه القرون لوحات ناطقة مواعظ وعبراً، إنشاء وخبراً. وكم أرخت هموم الحياة سدولها على واقع المسلمين حتى قال أعداؤهم: ((هذه مهلكتهم))، فيقيض الله لهذه الغمة رجالاً، ينكشف بهم الضر، ويصححون العلاقة بين الأمة والقرآن، بتقديم الدراسة الواعية، والقراءة العميقة، التي تجعل منه سوراً منيعاً أمام محاولات الاجتياح الثقافي، والانكسار الحضاري.

(١) قعساء: يقال قعساء: ممتنعة ثابتة، المعجم الوسيط: ٧٤٩/٢.

ولقد كان القرآن الكريم مصحوباً بالحديث الشريف أمام كل انتصار، ووراء كل وثبة للأمة الإسلامية، وكان العلماء هم الطليعة في كل الزحوف، ولم يكن أعداء الدين جاهلين مصدر قوة المسلمين وتماسكهم، ففكروا وقدروا، ثم فكروا وقدروا، فرأوا أن لا مكنة[1] لهم في إدخال الزيادة أو النقصان على حروفه وكلماته وسوره وآياته؛ لأنه محفوظ في حرز حريز، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه، حيث يقول: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩]، فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: ﴿والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾ [المائدة:٤٤]؛ أي بما طلب إليهم حفظه.

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه[2]، «وكم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق كل عام لمحو هذا القرآن، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [الأنفال: ٣٦] ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا[3].

ولكن أعداء الدين في الداخل والخارج لم يستيئسوا، وخلصوا نجياً، وجاسوا خلال الصفوف، وتترسوا خلف دراسات مشبوهة، لن يكون آخرها كتاب (القرآن قراءة

(١) المكنة (بضم الميم): القدرة والاستطاعة، والقوة والشدة، المصدر السابق: ٨٨٢/٢.
(٢) النبأ العظيم: ١٤/١٣.د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٠-١٩٧٠.
(٣) النبأ العظيم: ٤٤.

معاصرة)[1]، ممثلاً للطابور الخامس في عالم الثقافة الإسلامية.

إن أكبر مصيبة تحل بالمسلمين أن يحال بينهم وبين كتاب ربهم وسنة نبيهم، وذلك عندما يقرأان قراءة لا تتأسس على أصول السلف، ولا تستصحب معها رؤى العصر. إن ذلك - عندما يحصل - يجعل من المسلمين أمة بلا هوية، ويفقدهم الشهادة على الناس؛ لأن الحياة لا تستأمر غائبين، ولا تستشهد مغيبين.

ليس غريباً أن تتقدم قصة سيدنا موسى عليه السلام سائر القصص القرآني، سواء لجهة المكان الذي شغلته من صفحات المصحف الشريف، أو المكانة التي تبوأتها عند العلماء، أو لخطورة الفئتين اللتين واجههما موسى، والتي كانت كل منهما - إلى جانب ما فيها من العناد والقسوة والكفر - كانت أيضاً فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذل والتبعية والاستضعاف (بنو اسرائيل)[2].

وهذه القصة - وإن كانت تتمحور حول حدث ماض - قادرة على تحريك الزمن، ومن ثم المتلقي في كل اتجاه، بوصفها بنية عقدية تشريعية، تربوية، تاريخية، زمانية، مكانية، أداتها اللغة، وقراؤها؛ لأداء العبادة في الصلاة والتلاوة تعلماً وتعليماً، يعدون بمئات الملايين، فمن حق هؤلاء أن يكون بين أيديهم قراءة واعية وعميقة للقصص القرآني عموماً، وقصة سيدنا موسى عليه السلام على وجه الخصوص، بحيث تضاعف هذه القراءة - الدراسة - فهم المسلم وغيره لمقروئه؛ لأنها ليست قصة فرد أو قصة أمة، (بل قصة البشرية جميعاً)[3].

---

(١) الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة: ط، ١-٩/١٩٩٠.، ط٢/١٢/١٩٩٠. الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
مؤلف هذا الكتاب مدرس كلية الهندسة بجامعة دمشق في ج. ع. س. بذل كل جهده ليقدم تفسيراً ماركسياً للقرآن الكريم، المؤلف تخرج في الاتحاد السوفيتي، وهو يوهم القراء اعتماده على مفاهيم لغوية، الا انه في الحقيقة يقدم مشروعاً متكاملاً لنسف فهم السلف، ودلالات اللغة، ليخدم مخططاً مشبوهاً.

(٢) القصص القرآني، ايحاؤه ونفحاته: ٢٢٤.

(٣) نظرات تحليلية في القصة القرآنية: ٨-٩.

فالمسلم يدرك بتأمل القصص القرآني عموماً أنه سليل أمة متميزة بعقيدتها، ضاربة بعروقها في أعماق التاريخ، قادتها الأنبياء، وهويتها العقيدة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء:٩٢]، ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون:٥٢].

ويدرك خصوصاً أوجه الشبه بين دعوة رسولنا محمد ﷺ ودعوة أخيه موسى عليه السلام[1]، فيعلم ديمومة المعركة، وأن شرف الجندية لخدمة الدعوة المباركة من أعظم ما صرفت فيه الأعمال: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ [المؤمنون:٥٢].

قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى –: ((ثنى الله عز وجل قصة موسى مع قصة فرعون؛ لأنهما على طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل، حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى في غاية الحق والإيمان، من جهة أن الله كلمه تكليماً، لم يجعل بينه وبينه وساطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار – أكثرهم – لا يجحدون وجود الله، ولم يكن للرسل من تكليم ما كان لموسى، فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص، وأعظمهما اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر، ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة[2].

أين كتاب وأدباء المسلمين من دراسة القصة القرآنية، التي يجب أن تتم ابتغاء تحقيق

---

(١) الدكتور التهامي نقرة في كتابه سيكولوجية القصة في القرآن: ١٢٤، ذكر أكثر من وجه شبه بين دعوة موسى ودعوة محمد ﷺ، صدر الكتاب عن الشركة التونسية للتوزيع.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٢/٩، لشيخ الاسلام ابن تيمية– مكتبة المعارف، الرياض / المغرب.

أكبر محصول عملي من قراءة المسلم القرآن، ووصولاً إلى الفهم الحقيقي الشامل لخطاب الله عز وجل، وتأسيساً لمعرفة قرآنية إسلامية، تعطي النص القرآني دوره المطلوب في تشكيل العقل والفعل والقول في دار الإسلام.

إنني أكتب هذا الكلام؛ لأذكر بأن رسالة الأدباء والمفكرين في هذه المرحلة في بلادنا ليست هي دور (الموالي) – بفتح الميم – لثقافة وآداب وصيغ وشعارات أوروبا شرقاً وغرباً)).[1]

وكم يؤلمنا عندما يتشبه قلة من كتابنا بالمستشرقين والملاحدة فيستشهدون بالآيات الكريمة من غير اعتبار خاص، ويشيرون إلى الرسول ﷺ من غير تمييز[2]، إن دورهم الحقيقي يكون في انسجام إبداعهم الأدبي مع عقيدة الأمة، وتجربتها العميقة، ورحلتها الطويلة.

إن الأمر يدعو للأسف أن نلاحظ بعض الغياب بين الدراسات القرآنية والدراسات الأدبية، التي كانت سالكة في الاتجاهين، وكانت خيراً عميقاً للجانبين. أما الآن فلئن تقدمت كماً، فقد تراجعت كيفاً، ولئن جاءها مفكرون متمكنون، فقد كانت آراؤهم تعليباً جديداً لأفكار المعتزلة، كما كانوا أيضاً مستعدين على أمتهم بالمناهج الغربية[3].

إن هذا الغياب عن ساحة الدراسة الجادة للقصة القرآنية أثار تعجباً وتساؤلاً لدى بعض الكتاب فقال:

---

(١) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح: ١٢، لأحمد موسى سالم، دار الجيل- بيروت- ١٩٧٨م.

(٢) مجلة المنهل: ٢٦، العدد ٤٩٣، رجب ١٤١٢ هـ، مقال بعنوان: الاتجاه الاسلامي في الشعر الجزائري- د/ محمد مرتاض.

(٣) عنون الدكتور جابر عصفور في مقالة له في مجلة ابداع: ٣٠، العدد الثالث،مارس، ١٩٩١م عن كتاب (مفهوم النص، لحامد أبو زيد٩، عنون مقالته بعنوان: (مفهوم النص والاعتزال المعاصر).

«عجبت أن لم يلتفت إليها؛ أي القصة القرآنية، أحد من نقادنا، ثم ما لبث أن قمعت هذا العجب، فمنذ متى يهتم نقادنا بديننا أو تراثنا؟ إنما كل همهم أن يلووا ألسنتهم بلغة غير لغة بلادهم، وينسبوا أنفسهم إلى أدب غير أدبهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل».[1]

وإذا كان هذا موقف أكثر المعاصرين، فإن مجهودات الأقدمين على جلالتها في خدمة التفسير عموماً، فإن سحاب الإسرائيليات اللجب قد حجب جماليات القصص القرآني أحياناً كثيرة، كما تمحور كثير من دراسات السابقين حول المفردات والتراكيب، دون أن تتمكن من تشييد فضاء واسع يتجلى في منظومة متكاملة، تكون أكثر عوناً للقارئ؛ لتمضي به نحو فهم شامل وكامل للقصص القرآني، وبعضها كان يجهد في غير عدو، ويعمل في غير معمل، عندما؛ يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس معهم بالبحث عن النملة، وهل هي ذكر أم أنثى، وعن الموضع الذي كانت فيه مملكتها، واسم الوادي الذي قامت فيه تلك المملكة، ثم اسم النملة، أي والله، اسم النملة»[2].

ولقد أدان ابن تيمية، رحمه الله، هذا الاتجاه عند المفسرين، الذي يأتي على حساب النص لا لحسابه فيقول:

«لا خير فيما لم يذكره القرآن، كالبعض الذي ضرب به موسى الغلام، والغلام الذي قتله الخضر ما اسمه».[3]

يكفي القصة القرآنية فضلاً ومكانة اختيار الله سبحانه وتعالى لها لتكون موضوع إحدى سور القرآن الكريم الطويلة[4]، أو بعض موضوعات من سور أخرى، ولتكون صورة

---

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم: ٣، لثروت أباظة.
(٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: ٢٢، للدكتور/ عبد الكريم الخطيب.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٣/٣٤٥.
(٤) كسورة يوسف ﷺ.

للوجود المثالي للإنسان، متمثلاً بالأنبياء، ونموذجاً للعلاقة بين الإنسان وهذا الكون وبارئه سبحانه وتعالى، وبياناً لمنهج العيش مع أفراد الأسرة البشرية من مؤمنين وكافرين ومنافقين.

ويكفي هذه القصة أن تحمل إلينا صيحة أطلقتها نملة، نعم نملة نكرة، وأن هذه الصيحة تبلغ مسامع سليمان عليه السلام، لو أن قاصاً معاصراً، غربياً على وجه الخصوص أفسح للنملة في صفحات قصته مكاناً، لسدت الأفق إشادات النقاد بهذه اللفتة الإنسانية لهذا المخلوق الضعيف !!!

إن ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ [الحجر:٩١] ما كان لهم أن يرتقوا إلى سمو القرآن وأفقه الأرحب.

تتساءل إحدى دارسات الرواية العربية؛ كيف يمكن أن تنتظم العلاقة بين السماء والأرض، أو بين الله والإنسان، بحيث يمكن أن تسير الحياة في إيقاع منسجم في جميع مراحل الحياة؟[1]. إن وجودنا في هذا العالم، وحياتنا فوق هذا الكوكب، من صنع ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه:٥٠].

وإن الله سبحانه قد هيأ لهذا الانسان - فضلاً منه ومنة - كل أسباب العيش الرغد والوجود المتوازن، والقصة القرآنية باستعراضها النماذج المختلفة لما كان لينسج على منوالها ما يكون، ولما فات ليبني على ما هو آت.

لا ندعو إلى استعادة آلية للماضي، ولا إسقاطه على الحاضر دونما مراعاة خصوصية كل عصر أو مصر، بل ما نريده أن نستحضر في كتابة الأدب وقراءته ونقده جوهر الحياة التي يريدها القرآن.

---

(١) نقد الرواية: ١٣٨، للدكتورة نبيلة ابراهيم، النادي الادبي، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م.

ولعل في الصحف القادمة إجابة على تساؤل الناقدة والدارسة المتعمقة.[1]

وهذه الدراسة ليست بحثاً تاريخياً، أو محاكمة فلسفية وفكرية لأدبيات النهضة، بل هي مقاربة لاستكشاف أسلوب القرآن الكريم في التغيير من خلال قراءة استكشافية، تذوقية، تربوية، أسلوبية، للقضايا أو الخطوط العريضة لقصة حياة وكفاح واحد من أولي العزم من الرسل صلوات الله عليهم، ألا وهو نبي الله موسى ﷺ، الذي كانت قصته أكثر قصص الأنبياء وروداً، وأغناها دلالة، وأشملها قضايا، فكانت كما يقول ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ): ((أعظم القصص))[2].

إن زمن القص في القرآن قد لا يتجاوز ساعتين، ولكنه يغطي حياة هذا النبي التي امتدت حتى بلغت عشرين ومائة سنة، فهو يقطر هذه الحياة في هذه اللوحات، التي رسمت حياة موسى ﷺ، وكفاحه للشرك الأكبر، الذي كان فرعون - على مر العصور - أنموذجه الأظهر، وهو؛ أي القص القرآني، يعطر وجه التاريخ الكئيب للبشرية، التي يتحكم بمصائرها - على حين فترة من الرسل والدعاة - مغامرون أو مقامرون، يعبثون بمقدراتها، أو يبعثون - إلهاء وإشغالاً والتفافاً على الحق والخير - وثنيات متفرقة، وشركيات مهترئة.

إن النص القرآني الذي انعكست في سوره وآياته حياة موسى ﷺ يتناول من هذه الحياة:

الطفولة: الحياة في قصر فرعون، دخوله المدينة وقتله القبطي، ومحاولة قتل الآخر، الخروج إلى مدين وسقياه أنعام ابنتي شعيب عليه السلام أو غيره من الصالحين، زواجه

(١) أي الدكتورة نبيلة ابراهيم، في كتابها: نقد الرواية.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٢/١٨.

بإحدى الفتاتين، إقامته في مدين، منصرفه إلى مصر، الوحي والنبوة وتكليم الله عز وجل إياه، دعوة فرعون إلى الإيمان، هلاك فرعون ونجاة موسى مع بني إسرائيل، السامري بوصفه إلباً على دعوة موسى، وتأثيره في بني إسرائيل، دعوته الطويلة لبني إسرائيل، وما فيها من مواقف وعبر ودروس، قصته مع قارون أبي الرأسمالية خططاً وخلقاً، قصته مع الخضر.وسأحاول في الصحائف القادمة – إن شاء الله – أن أقدم قراءة متعددة الاتجاهات لبعض قضايا هذه القصة.

إن قصة واحدة من القضايا التي واجهت موسى ﷺ، أو شخصية من الشخصيات التي واجهها من تلكم الشرائح من القضايا والشخصيات، كانت كافية في عد هذه القصة نموذجاً في الأدب، ومدرسة في التربية، بتناولها كل الهموم، ومواجهة خصوم ألداء في خصومتهم، فكيف وقد اتسعت ساحة المواجهة في تلك الملحمة الموسوية الصادقة، لتحارب على جبهة عريضة وعميقة من الشخصيات والقضايا، مختطة منهجاً فريداً في التغيير، ومنفردة بأسلوب فريد نسيج وحده في التعبير ؟

إن بني إسرائيل أحد العناصر والقضايا التي حفلت بها القصة، كانوا، وما زالوا، حاضرين في التاريخ شعباً أو عرقاً، ارتبط اسمه وحضوره – إلا من استثنى الله منهم بهدايته – بالمشكلات، ومن ثم بالتحدي والتصدي لكل دعوة خير، وهم ماضون في غيهم، سادرون في ضلالهم إلى يوم القيامة، كما قد يفهم من قوله:ﷺ

(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا اليهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود).[1]

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٨/٤٤–٤٥، دار الفكر– بيروت.

انظر إلى هذا التاريخ من العناد والتحدي:

﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:٤١-٤٢]، ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [البقرة:٤٤].

وإذ قلتم: ﴿يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ [البقرة:٥٥]، ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ [البقرة:٥٩] ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم: كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [البقرة:٦١]، ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة:٩١]. ؛ انظر كيف زاد المعنى ترشيحاً، بإخراج الجريمة الأولى، وهي جريمة القتل، في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الفعل الواقع الآن، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم، وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية))[1]، ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ [المائدة:١٣]، ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ [التوبة:٣٠]، ﴿ومن الذين هادوا سماعون للكذب﴾ [المائدة:٤١].

(١) النبأ العظيم: ٦٠، للدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم، بيروت- الطبعة الثانية: ١٣٩٠-١٩٧٠م.

أرأيت إلى سلسلة الجرائم، وجريدة الجرائر، التي أدانتهم بها الآيات، ودمغتهم بها هذه الحجج الساطعات؛ فيا عجباً لهذه الآيات! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات، أم كانت أغلالاً وضعت في أعناقهم إلى الأبد، وأصفاداً شدت بها أيديهم فلا فكاك)).[1]

أي شعب واجه سيدنا موسى ﷺ ؟ وكيف تعامل مع هذه الأفاعي؟ وهل انتهت فعائلهم الشنعاء بوفاة موسى ﷺ ؟ لا، لم تنته، فها هوذا سيدنا عيسى ﷺ يقول لهم: يا بني إسرائيل: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين﴾ [الصف:٦]، وأين كان موقعهم من خاتم الأنبياء، وآخر الدعوات دعوة رسولنا محمد ﷺ، لقد لازموا خندقهم التاريخي، وأسلوبهم التقليدي، وكأن القرون المتطاولة لم تزدهم غير عناد وتحد للخير.

تناسوا أنهم أتباع نبي أرسل هو ومحمد ﷺ بعقيدة واحدة، ولغاية واحدة، محاربة الشرك والكفر، وتأسيس دولة الإيمان في الأرض، تناسوا ذلك، وتحالفوا مع المشركين والمنافقين، لا يرقبون في مسلم إلا ولا ذمة، وأخذوا يشنعون على الرسالة والرسول ﷺ، وقلما غابوا عن أي حدث كان يهدف إلى التشويه أو التشويش على الدعوة، فعندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة حرجت صدورهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأخذوا يرددون أراجيفهم بصيغة أسئلة:

﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟﴾ [البقرة:١٤٢]، وما مصير صلاة من صلى إلى بيت المقدس؟ وازدادت أواصر التحالف بينهم وبين المنافقين، وليس تفسير ((السفهاء)) من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿سيقول السفهاء﴾ [البقرة:١٤٢] من الآية السابقة، ليس تفسير من قال إنهم المنافقون بعيداً عن مناخ العلاقة المتجددة بين الطائفتين (المنافقين واليهود).[2]

---

(١) النبأ العظيم: ٥٢.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٧١/٨.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أرادوا أن يقذفوا في قلوب المؤمنين الشك في دخولهم الجنة، عندما حصروا دخولها بهم وبإخوانهم الكفار من النصارى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة: ١١١].

وشككوا في أي مصدر للإيمان والتصديق إلا مصدرهم:

﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ [المائدة: ٤١].

ويقفون موقف الهازئ الساخر من أقدس شعائر المسلمين: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً﴾ [المائدة: ٥٨].

ولم تقتصر المواجهة الإسلامية مع اليهود على التلاسن وحروب الكلام، بل تطور التحدي، وانتهى التصعيد إلى مواجهة دامية مع بني قريظة، وبني النضير، ويهود خيبر، وغيرهم، انتهت بتقليم أظافرهم، وتحطيم قوتهم، وتراجع مكانتهم إلى أدنى مستوى عرفوه في تاريخهم، إن هذه المواقف الماضية – والتي لا تزال حاضرة الآن بوجه أو بآخر – ليست إلا تعبيراً عن الغائية الكامنة في أعماق أهل الكتاب، والدافعية إلى ذلك. أما الغائية، فهي أمنيتهم: أن يرتد المسلمون، وأما الدافعية فهي الحقد، والحسد. نعم ليس وراءهم إلا الحقد، وهو حسبهم من الشر: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ [البقرة:١٠٩].

وليس حضورهم خلف مشكلات العالم الحديث أو أمامها مما يجهله القارئ، ولكن حسبي أن أشير إلى حقدهم وطغيانهم الذي مكنهم من انتزاع فلسطين، مضافاً إليه غياب المسلمين وتغييبهم، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل لقد بعثوا حلفهم القديم مع المنافقين بتحالفهم مع أمشاج من المثقفين، الذين يغطون أي تراجع للمسلمين، ويفلسفون كل تداع أمام اليهود بواهي الحجج، وواهن البراهين، من مثل: إن مضامين الصراع الآن

غيرها قبل أربعة عشر قرناً، والحروب من مخلفات الماضي، وهي من سبل التخلف. وليس أخيراً (النظام الدولي). وصدق الله العظيم الذي يقول:

﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ [المائدة: ٥٢].

استعمال المضارع (ترى) لعل فيه إيماءة إلى استمرار هذا النموذج المصاب في فؤاده ﴿في قلوبهم مرض﴾، وقال جل من قائل حكيم: ﴿يسارعون فيهم﴾، ولم يقل يسارعوا إليهم، وهم قد يكونون بعيدين عنهم، ولكنهم وقد تشابهت قلوبهم فمالوا معهم وتخندقوا وإياهم في حرب الإسلام، فظهروا لذلك وكأنهم معهم، وكأن الآية تقول باختصار: حيث يكون القلب يكون الإنسان، لا حيث يحل الجسم.

أما علم هؤلاء المنافقون أن الدائرة الأخطر قد أحاطت بهم، وهي مجرد وجودهم الوجداني في معسكر العدو، اليهود والنصارى؟ والمرء إذ يقول ذلك لا يهون من دائر القوة المادية التي تتهدد المسلمين في الداخل والخارج، ولكن هذه، مهما اشتدت، فهي بإذن الله – إن لم تتجاوز الجسوم إلى القلوب – لاتخاذ الشهداء من المسلمين ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١].

هؤلاء المثقفون المنافقون المرتبطون بأعداء الأمة من يهود ونصارى، وإنك لتعرفنهم في لحن القول؛ هم محامو الشيطان ومروجو نخالة الأفكار وزبالة الفنون ومسوقوها في عقول سواء المسلمين، وذلك عبر إشاعة الفن الرخيص الهابط بكل أجناسه: قصة، ومسرحاً وشعراً، وبكل الوسائل والأساليب المرئية والمسموعة، وإقامة أسواق النخاسة الفكرية لأحفاد السامري.

وصدق أبو قلابة، أحد علماء سلف هذه الأمة، في كلامه على قوله تعالى: ﴿إن الذين

اتخذوا العجل﴾ [الأعراف:١٥٢]، الآية: هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله.[١]

إن هذا النص من أبي قلابة ليس إلا أحد الأدلة على أن المعركة مفتوحة مع اليهود، وأن مواجهة موسى ﷺ لم تكن إلا مرحلة في هذا الصراع المتجدد، وأن مواجهة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم لهم كانتا مرحلتين، وإن كل جيل من المسلمين – حتى تقوم الساعة – سيبلى (بضم الياء) إيمانه بمواجهة أحفاد القردة والخنازير.

إن تأمل فصول هذه المواجهة في قصة موسى ﷺ على وجه الخصوص – وهي موضوع البحث – والمواجهات التي بعدها مع اليهود أجدى لوضع هذا الصراع في مرتبته الحقيقية، وأجدر أن يكون الحل القادم مع اليهود نابعاً مما تمليه عقيدة المسلمين، وقدرتهم التي لم تدخل هذا الصراع في العصر الحديث دخولاً يعكس حجمها الحقيقي، هذا ما تقوله قراءة قصة موسى وغيره من الأنبياء في صراعهم مع اليهود، وما تقوله هذه القصة حق، والحق أحق أن يتبع.

أما التماس الحلول خارج دائرة الوجود الحقيقي للأمة – هذا الوجود الممثل بدينها – فلن يكون إلا تعقيداً للمشكلات، وإطالة لأمدها ومددها، بما يصحب ذلك من خسران على كل صعيد، وفي كل مستوى؛ قبل إهلاك بني إسرائيل كانت دعوة موسى ﷺ لهم، وقبل غزوه بني قريظة وخيبر كانت دعوة رسولنا محمد ﷺ، وقبل استرجاع عمر لبيت المقدس كان عهده الذهبي ديناً ودنياً، وقبل حطين كانت مشاريع صلاح الدين التربوية في تصفية آثار المشروع الثقافي الفاطمي في مصر، وقبل عين جالوت كان المشروع الإنقاذي الطموح لابن تيمية، كان مشروعاً في كل اتجاه.

لذا فإن كسب المعركة مع اليهود يصبح بفضل الله مجرد توقيت زماني، إذا منَّ الله على ورثة الأنبياء من العلماء أن ينشروا في الأمة ميراث النبوات.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية: ١٣/١٩٦.

وعندما كثرت المسارح، ولم يفصلها عن مراكز القرار كبير فرق - إن لم تتبادل معها المواقع - كثرت المعارك الدنكوشوتيه الوهمية - مع أعداء الأمة من اليهود وأمثالهم، وكانت النتائج كالمقدمات مسرحية محضة، بل هي أشبه بمسرحية ممعنة في الرمز، كأكثر الأدب المعاصر، لا يفهمها إلا العدد من الممثلين الذين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد!!

للافتتاحية في القصة أهمية كبرى وهي:

إدخال القارئ في عالم مجهول، عالم القصة بكل أبعاده، وذلك بإعطائه الخلفية العامة لهذا العالم الذي تتحرك القصة فيه، والخلفية الخاصة لكل شخصية؛ ليستطيع ربط الخيوط والأحداث التي تسترد فيما بعد.

وقبل افتتاح القصص في النص القرآني عن طفولة موسى ﷺ في كل من سورة طه (الآيات من ٣٧ الى ٤٠)، وسورة الشعراء (الآية: ١٨)، وسورة القصص الآيات (٧،١٣) لا أجد مندوحة عن التماس تفسير للحدث الغريب الذي يبدأ القص منه، وهو إلقاء موسى ﷺ في اليم بوصفه منة أخرى يمن الله عز وجل بها على نبيه: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي: أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك فتقول: هل أدلكم على من يكفله، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ [طه:٣٧-٤٠].

يقول ابن حجر في تفسير هذا الحدث: «ذكر السدي في تفسيره بأسانيده أن: بدء أمر موسى أن فرعون رأى كأن نارا أقبلت من بيت المقدس، فأحرقت دور مصر، وجميع القبط، إلا دور بني إسرائيل، فلما استيقظ جمع الكهنة والسحرة فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون خراب مصر على يده، فأمر بقتل الغلمان، فلما ولد موسى، أوحى الله

إلى أمه: أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فقالوا: فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه جعلته في تابوت، وألقته في البحر، وجعلت الحبل عندها، فنسيت الحبل يوماً، فجرى به النيل حتى وقف على باب فرعون، فالتقطه الجواري، فأحضروه عند امرأته، ففتحت التابوت، فرأته، فأعجبها، فاستوهبته من فرعون، فوهبه لها، فربته حتى كان من أمره ما كان))[1].

ويقول الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ) في تفسير قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ [البقرة:٤٩]:

((وإنما فعلوا به ذلك؛ لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه)). [2]

في هذين النصين معلومات مهمة في تفسير الحدث الغريب الذي وقع لموسى ﷺ في فجر حياته، وبيان لجانب من أقدار الله، وكيف صنعه على عينه، واصطنعه لنفسه، فهو منذ اللحظة الأولى، بل منذ أمد لا يعلمه إلا الله ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين﴾ [القصص:٤٤] يعد لدور، ما أعظمه من دور ! ولرسالة أعظم بها من رسالة !.

هذا الطفل الذي تسوقه الأمواج تحقيقاً لقدر الله إلى قصر فرعون، والذي يكون قرة عين لزوجه، ما كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي يربى في قصره سيكون يوماً ما على يديه هلاك هذا الطاغية، بل ما كان فرعون يتوقع ما هو أقل من هلاكه، فهو قد استنكر دعوة موسى إياه أن يرسل معه ومع أخيه بني إسرائيل، فقال فرعون منكراً على موسى:

---

(١) فتح الباري: ٦/٤٢٢.

(٢) تفسير الكشاف: ٦٨/١، واسم الكتاب: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل- دار المعرفة- بيروت، لبنان- تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري.

﴿ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ [الشعراء:١٨].

إن هذا القصر الذي بدأت معه قصة موسى طفلاً سيكون مكاناً مركزياً في القصة، ففي جنباته تبدأ الطفولة، ومن ردهاته يخرج موسى ليقتل القبطي، وفي صالاته تردد صدى دعوته ﷺ، وفي قاعاته يدور الحوار بين موسى وهارون من جانب وفرعون من جانب آخر، وذلك تقريراً منهما لحقيقة التوحيد، ومجابهة شرك فرعون وظلمه.

وستكون لي عودة إلى متابعة سيرة حياته ﷺ بعد أن أقف وقفة مع حدث الطفولة في هذه القصة، وهذه الوقفة من صميم الدراسة المقارنة ولعلي في حدود ما اطلعت لم أسبق إليها.

يعلم كل مطلع على أسطورة (أوديب) في الأدب اليوناني، التي تأخرت في الظهور عن قصة موسى قروناً، أن هذه الأسطورة تعد من عيون الأدب اليوناني، ولم تقف عند حدود اليونان، بل زحفت عبر العصور، وتجولت في الأمم، فالفرنسيون وحدهم أخرجوا فيها ثلاثين عملاً أدبياً، كما كتب فيها الألمان والعرب (طه حسين، والحكيم، وباكثير)، كما احتلت مكانة راسخة في البحوث النفسية.

هل آن الآوان لتجريد اليونان من هذا المجد الأدبي؟[1] الذي أعطوه من منطلق القول إنهم كانوا مخترعي أسطورة أوديب ؟

لقد فقدت (الكوميديا الالهية) التي كتبها دانتي إليجيري (١٢٦٥-١٣٣١م) شيئاً كثيراً من سمعتها الأدبية، ومكانتها الإبداعية، عندما كشف اثنان من بني جلدته أن قصة المعراج الإسلامية لم تكن غائبة عن مصادر الكاتب عندما سطرت يداه ملحمة (الكوميديا الإلهية)، بل لعلها كانت أهم مصادره. إذا عدت أيها القارئ الكريم إلى النصين اللذين

(١) نظرات تحليلية في القصة: ٨-٩، محمد المجذوب، دار الرسالة، بيروت، ١٣٩١ هـ/١٩٧١م.

نقلتهما قبل قليل من فتح الباري[1]، والكشاف[2]، ما إخالك ترفض أصول الدعوى التي أريد أن أحاكم فيها الإبداع اليوناني في هذه القضية.

وإذا علمت أن الأسطورة ليست هي الخرافة كما يخلط كثير من الكتاب بينهما مستعملاً لكلاً اللفظين استعمالاً مترادفاً، فالإمام الطبري يفسر قول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنعام:٢٥] يفسره بقوله: ما هذا إلا ما كتبه الأولون، وقد ذكر عن ابن عباس وغيره أنهم كانوا يتبنون هذا التأويل.

وابن كثير – رحمه الله – يقول في تفسير الآية نفسها: ((أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل، ومنقول عنهم)).[3]

ويقول العلامة الشوكاني في (فتح القدير) في تفسير الآية نفسها: ((ما سطره الأولون من القصص والأحاديث)).

فالتفسير الأول الذي قدمه ابن جرير، وأسنده إلى حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك ما أثبته ابن كثير والشوكاني لا يضع الأسطورة في المكان الذي تضعها فيه التعريفات المعاصرة، فهي حسب ما ذكره هؤلاء الأئمة عن مكونات الأسطورة:

أحاديث الأولين، مأخوذة من كتب الأوائل، وأنها كانت تسطر، وأي تفسير، قديماً كان أم حديثاً، لا يقدم على تفسير حبر الأمة وبحرها ابن عباس، واللغة بعد ذلك ظهير له.

والتعريفات السابقة تزلزل أصول الدراسة الحديثة للأسطورة، التي تجعل من التعريف

---

(١) فتح الباري: ٤٢٢/٦.

(٢) الكشاف: ٦٨/١.

(٣) تفسير ابن كثير: ١٢٧/٢.

الغربي مدخلاً معتمداً في كل قراءة وتفسير، وها هي ذي أسطورة أوديب من الشهرة بمكان واسع؛ وإني أتطلع للقارئ ليقارن بينها وبين قصة موسى ﷺ، التي وردت في مستويات متواترة كالقرآن الكريم، كما وردت في الأحاديث الصحيحة، وفي كتب التفسير.

وإن الإسرائيليات أيضاً لم تغب عن هذا المجال الخصب، وإذا كان مصطلح التأثر والتأثير في الأدب المقارن، وهو تأثير أحد النصين في الآخر، بوصفه شرطاً للبدء في الدراسة المقارنة، إذا كان هذا المصطلح قد نسخ تقريباً كما نسخت شروط المدرسة الفرنسية القديمة في هذا العلم، فإن الشرط الذي اعتمدته المدرسة الحديثة، وهو وحدة السياق؛ أي أن يكون السياق في موضوع النصين واحداً، كما في قصة موسى وأسطورة أوديب.

إن هذا الشرط يعفيني من إثبات التأثر والتأثير، ويبيح لي التشكيك في أولية صياغة اليونان لأسطورة أوديب. والذي ترجح لدي أن قصة موسى ﷺ، التي وقعت أحداثها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، قد وصلت إلى اليونان بشكل أو بآخر، والذين يبدأ أدبهم في القرن الخامس قبل الميلاد، فتأملوا هذه القصة ملياً، وأخذوا منها عناصرها الرئيسة، ثم أضافوا إليها الطابع المحلي بما فيه من وثنيات وكهنة ومعبد إلخ... وإذا كان أتباع الأنبياء من يهود ونصارى قد حرفوا كتب أنبيائهم، وتنطعوا، وغلوا فيهم إلى مرتبة الألوهية: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ [1] فهل يستبعد أن يسطو اليونان على قصة موسى ﷺ، ويسقطوا عليها ما تبيحه لهم عقائدهم الوثنية، وهمومهم الفكرية والفلسفية ؟[2].

---

(١) سورة الكهف: ٥.

(٢) يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه الادب اليوناني القديم: ٢٧: (٠نوجه النظر بين ما جاء في بعض =

عوداً على بدء، إلى حدث الطفولة في قصة هذا النبي الكريم، حيث؛ فرعون وهامان وجنودهما يتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى؛ كي لا يفلت منهم طفل ذكر، وها هي ذي أقدار الله تلقي في أيديهم، بلا بحث ولا كد، بطفل ذكر، وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين! ها هي ذي تلقيه في أيديهم، مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً أن يدفع عن نفسه، أو حتى يستنجدها، هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه، وهو الطاغية السفاح المتجبر، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات!))[1].

لقد هيأ الله عز وجل لنبيه هذه البداية ليكون لفرعون وملئه ﴿عدواً وحزناً﴾ [القصص:٨] أما امرأة فرعون، فقد ألهمت الحق عندما قالت: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ [القصص:٩]، ((وكانت فراستها في موسى صادقة حين قالت: ﴿قرة عين لي﴾ [القصص:٩] [2]، فقد نفعها الله به نفعاً أيما نفع، وهو إيمانها بعد أن كانت تحت طاغية الطواغي، وأكفر خلق الله.

إنها أقدار الله عز وجل التي تسير هذا الكون حسب تقدير العليم الحكيم، فأم موسى خافت عليه حيث يجب أن تكون آمنة: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ [القصص:١٠]، وفرعون يدخله قصره، آمنا، حيث كان يجب أن يخاف، وفي إيمان امرأة فرعون لمحة للدعاة، وهي أن دعوة الحق تخترق القصور، وأن الله عز وجل قد أنزل في هذا الإيمان قرآناً يتلى، فهي امرأة واحدة قد أسلمت، وليس كل نساء مصر، بل ليس كل نساء فرعون، فالنجاح لا ينظر فيه إلى

هذه الاساطير (أساطير اليونان) وما جاء في الكتب الدينية المقدسة)).

(١) في ظلال القرآن: ٢٦٧٩/٥، لسيد قطب، دار الشروق- بيروت- القاهرة- الطبعة الشرعية الخامسة: ١٣٩٧/١٩٧٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٤٨/٦.

العدد فقط، وأن حصون الكفر قد تخترق، كما في إيمانها إيماءة لدعاة حقوق المرأة - هداهم الله جميعاً إلى سواء الصراط - أن امرأة فرعون كانت في القمة، وكانت تتمتع بكل الحقوق التي يسعى إليها دعاة حقوق المرأة، بل دعاة تحريق المرأة، ومع ذلك فلم تنتظر مغيب العمر، وسقوط الدولة الكفرية العلمانية لتعلن إيمانها وبراءتها من فرعون وعمله، إنها بإيمانها غدت نموذجاً في المقاومة، ومثلاً أعلى لمن شاءت أن تستقيم، وأخيراً فإن لنساء علية القوم رسالة أكبر من رئاسة الجمعيات، وافتتاح المعارض والمهرجانات، إنها تتمثل في إحياء النموذج الإسلامي المتمثل بآسية بنت مزاحم زوج فرعون، المرأة النموذج الكامل في الخير، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران)[1].

إن كن يردن الكمال فليتأملن سيرة هاتين المرأتين، وسير أمهات المؤمنين، وسير غيرهن من النساء الفاضلات. آسية هذه هي التي «اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه».[2]

ألم يأن لدعاة حقوق المرأة أن تخضع آراؤهم لشرع الله وما أنزل من الحق، ألم يأن لهم أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وأن يقلعوا عن تلميع النماذج البائسة، والوجوه الكالحة.

لم لا يلقون السمع لهذه القصة وأمثالها من القصص القرآنية، ألا تشعر المسلمة بالتناقض عندما تولي وجهها في صلاتها إلى الكعبة، ولكنها تستقبل في ثيابها كعبة فرنسية، وفي سلوكها قبلة أمريكية، لم لا تكون موحدة النفس، متحدة الحس في كل شؤونها وسلوكها؟

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٤٦/٦، حديث رقم: ٣٤١١.

(٢) فتح الباري: ٤٤٨/٦.

قال فرعون لموسى عليه السلام:

﴿ألم نربك فينا وليداً، ولبثت فينا من عمرك سنين؟﴾ [الشعراء: ١٨].

بعد انقضاء هذه السنين يخرج موسى من قصر فرعون ليدخل المدينة، فقد يكون القصر في مدينة وموسى قد دخل مدينة أخرى، غير أنه قبل أن يلج المدينة كان ذا دراية تامة، أو شبه تامة، بواقع البلد (مصر) وبأخبارها، وهذه المعرفة كانت عن طريق أخته التي كانت تؤمن في مرحلة الطفولة أسباب الصلة به، أو كانت هذه المعلومات عن طريق شخصية أخرى من آل موسى، أو أحد أفراد بني إسرائيل، هذه الصلة التي يفترض، بل يعتقد، أنها لم تنته بفطام موسى، بل لا بد أن تستمر بشكل أو بآخر تعريفاً لهذا الفتى بأهله، وبالظروف التي أوصلته إلى قصر فرعون، وبأوضاع بني إسرائيل، وما يعانون من قهر وإذلال على أيدي فرعون وجنوده، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب: يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستبقون كبارهم للسحرة.

فهذا الفتى – بدون شك – كان يمتلك من المعلومات عن مراكز القوى وموازينها، ويمتلك من القوة أيضاً ما جعله يستل من القبطي حياته بوكزة أو لكزة[1]، فلقد كان في نفسه حديداً شديد الغضب.[2]

وإذا أردت أن تعرف مبلغ هذا الفتى من القوة في شبابه فاعلم أنه في شيخوخته جاءه ملك الموت فصكه، أي ضربه على عينه[3]. إذا كانت هذه قوته في شيخوخته، فأي قوة أودعت فيه حقبة الشباب؟

---

(١) قرأ ابن مسعود (فلكزة). الكشاف: ٣/١٦٠.

(٢) الكشاف: ٢/٩٤.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٦/٤٤٠، حديث رقم: ٣٤٠٧.

في فترة ما بعد الطفولة يستوقفنا قتل موسى القبطي ، هذا القتل الذي جاء في الظاهر إغاثة لإسرائيلي من بني جلدته، لكنه يعكس في الحقيقة ما كان يشعر به موسى تجاه فرعون ورعيته، بيد أن موسى ﷺ لا يرتضي ما فعل، وهو واضح في هذه المناجاة الصادقة: (قال – أي موسى–): ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾. [القصص:١٥-١٧].

ولكن ندمه على هذا الحادث هل كان غضباً على الإسرائيلي الذي ورطه بمواجهة لم يأن أوانها كما يرى بعض المفسرين[١]، أم كان رفضا للقتل، كقتل بغض النظر عن ارتباطه ببعد سياسي، أو عدم ارتباطه بشيء غير إغاثة متسرعة لمواطنه الإسرائيلي ضد قبطي، ينتمي إلى فئة مستعلية ومتنفذة في ذلك الوقت.

وإذ أكد لنا النص القرآني إدانة موسى ﷺ عمله ﴿هذا من عمل الشيطان﴾، ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾ فقد أكد أيضا أن شعوره بالأمن أخذ يتناقص، ﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾ ، فلفظ (يترقب) يصور هيئة القلق الذي يتلفت، ويتوجس، ويتوقع الشر في كل لحظة، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ، وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر، وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً عن أن يصبح خائفاً يترقب، لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره![٢].

ولم يمض كبير وقت ليجد موسى ﴿الذي استنصره بالأمس يستصرخه، قال له موسى: إنك لغوي مبين﴾. [القصص:١٨].

---

(١) يرى الزمخشري في الكشاف: ٣/١٦٠، وسيد قطب في ظلال القرآن: ٥/٢٦٨٣-٢٦٨٤ هذا الرأي.
(٢) في ظلال القرآن: ٥/٢٦٨٢-٢٦٨٣.

غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي، واشتباكاته التي لا تثمر، إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المثمرة ضعفاء، فلا قيمة لمثل هذه، ولكن الذي حدث أن موسى - بعد ذلك - انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، وهذا الانفعال له دلالته على مدى امتلاء نفس موسى عليه السلام بالغيظ من الظلم، والنقمة على البغي والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتوتر لرد العدوان الطاغي الطويل الأمد.

وإذا كان القبطي الأول قد استقبل منيته دون أن ينبس ببنت شفة، فإن الثاني تلفظ بعدة كلمات كانت - بتقدير الله - حائلة بينه وبين المصير الذي لقيه مواطنه بالأمس، وفي خطابه لموسى تحذير من سلوك هذه السبيل:

اقرأ قوله تعالى:

﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ [القصص:١٩]، لم يقل يا هذا، أو يا رجل، بل سماه باسمه، وفي هذا دلالة على شهرة موسى، فالحادث لم يقع في قرية، بل في مدينة، ﴿ودخل المدينة﴾. ويبدو أن خبر قتل موسى قد عم المدينة ﴿كما قتلت نفساً بالأمس﴾، وأن هذا السلوك ليس المتوقع من رجل مثلك ﴿تريد أن تكون جباراً في الأرض﴾ ولعلي لا أجانب الصواب، إن قلت: إن هذا القبطي قد نبه موسى إلى ما هو معروف عنه، أو إلى ما يجب أن يعرف عنه ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾.

وهكذا فلقد وضع قتل موسى القبطي على أبواب مرحلة جديدة، لا سيما بعد أن: ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين، فخرج منها خائفاً يترقب قال: رب نجني من القوم الظالمين﴾. [القصص:٢٠-٢١].

ويلاحظ أن الرجل هنا جاء بصيغة النكرة ﴿وجاء رجل﴾ [القصص:٢٠]، ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون﴾ [غافر:٢٨]، فكونه من آل فرعون لعل فيه دلالة على أن موسى في أثناء إقامته في قصر فرعون قد اخترق الجبهة الداخلية لآل فرعون؛ أي خاصته وفي قوله تعالى: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما...﴾ [المائدة:٢٣] الآية.

أقول لعل في ذلك دلالة على أن موسى ﷺ قد اخترق الخطوط الأمنية لأعدائه، وبات يمتلك مجموعة تتعاطف معه وسط قصر فرعون.

هذا حصل بفضل الله، وموسى لم ينبأ بعد – كما في سورتي القصص وغافر –، وذلك دلالة على عصمة الله نبيه وشرح صدور العباد له، ولا شك أن ذلك سيكون عوناً له في فترة النبوة والرسالة.

وإذا كان من تعقيب على هذا الحدث، بوصفه جزءاً من هذه القصة الخالدة، فإن القتل يشطب الحوار، ويلغي السياسة، ويهمش العقل، ويجعل الدم بديلاً عن المداد، نعم يفعل ذلك، أو ما هو أخطر منه، إن لم يكن – أي القتل – نتاج أحكام شرعية قطعية الدلالة يحكم به ذوو عدل وعلم، ويكونون جهة مأذونة شرعاً في إصدار مثل هذا الحكم.

والتعقيب الثاني على هذا الحديث:

إذا كان الصمت من القبطي الأول قد تسبب – بعد قدر الله – في قتله، فإن الكلمة ربما كانت سبباً – بعد تقدير الله – في أن منعت دم الثاني أن يسفك، وربما جاز للمرء أن يتجاوز هذا التعقيب إلى محاكمة الصمت أو اللاموقف، وامتداح الكلمة المسؤولة الواعية التي هي لبنة الحوار وضمانة الاستمرار لجميع الأطراف؛ لأن الحوار، مهما كانت فواتير باهظة، فهي أرخص على كل حال، وأسلم للدين والدنيا من القسر والاعتساف والخيار الدموي، والحوار يجب أن تلتزم به جميع الأطراف، وإلا فإنه لا يعدو أن يكون مناجاة الفرد ذاته؛ إذ حصرت صدور البعض أن يستمروا فيه، وآنئذ يدفع الجميع الثمن، إذ

غاب الآخر، أو غيب من حسنا، وظننا أن مصالحنا وأفكارنا وسلوكنا هي الشرع، أو كما قال بعضهم[1] في لحظة غرور:

((كل آية خالفت المذهب فهي مؤولة، وكل حديث خالف الإمام ففي إسناده أو متنه نظر)) !

وأخيراً فإن الحوار – تحت الشمس – كما حصل بين موسى ﷺ وفرعون ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ وبحضور كل أجهزة الإعلام ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ ؟. [الشعراء:٣٦-٣٩].

إن مثل هذا الحوار بفضل الله، ثم بما ألهم نبيه ﷺ، هو الذي قوض ركائز الفرعونية، وخلخل بنيانها، وهد أركانها، وستكون لنا عودة إلى هذا الحوار قريباً إن شاء الله.

أيقن موسى ﷺ أن مقامه في ديار فرعون بات خطراً على حياته ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ [القصص:١٨]، ﴿قال: رب نجني من القوم الظالمين﴾. [القصص:٢١].

ولكنه في خروجه، وإن كان واحداً، لم يكن وحيداً، كان معه لسانه الذاكر لله، وقلبه العامر بتقاه، وهذا ليس مجرد سجع أزجيه، بل هكذا كان واقع موسى، فهو يقول بعد مقتل القبطي على يديه: ﴿هذا من عمل الشيطان﴾ [القصص:١٥]، ﴿رب إني ظلمت

---

(١) هذه العبارة هي من أقوال الكرخي الحنفي رحمه الله، وهي تُذكر دائماً كمثال للتعصب المذهبي المقيت، ومن أوائل من ذكرها في هذا القرن صاحب كتاب ((تاريخ التشريع الإسلامي)) وعنه نقلها كل من كتب في التعصب المذهبي، والحقيقة أن الإمام الكرخي رحمه الله لم يُرد بكلمته هذه ما فُهم منها غلطاً، لأن لازم قوله قد يفضي إلى تقديم قول الإمام على قول الله ورسوله وهذا كفرٌ متفق عليه، وعند رجوعنا إلى المصدر الذي نقلت منه هذه الكلمة وهو (رسالة الإمام أبي الحسن الكرخي في الأصول)، تبين لنا أنه أراد بها: أن أصول فقه أبي حنيفة رحمه الله قائمة على كتاب الله وسنته الصحيحة وأنها لا تترك الاستدلال بنص من كتاب الله إلا بتأويل مقبول ولا حديث إلا وفي إسناده نظر، ذكرنا هذا لأن هذه الكلمة انتشرت على السنة أهل العلم بفهم مغلوط والله أعلم. [المجلة].

نفسي فاغفر لي﴾ [القصص:١٦]، ﴿رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ [القصص:١٧]، ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ [القصص:٢١].

وهكذا يجب أن يكون البشر جميعاً، فلا يمسك أملهم أن يزول إلا الإيمان با لله، ولا عزمهم أن يحول غير الثقة بالله، ولقد حققت البشرية بغير إيمان نوعاً من ارتواء الأجسام، غير أن هدأة الروح، واطمئنان الأفئدة لن تنالا بغير الإيمان، ولا تبلغها البشرية بغير إسلام ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. [الرعد:٢٨].

إن السياق القرآني يطوي الزمان والمكان، ويترك فجوات بين مشاهد القصص، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس.[١]

يدخل موسى قصر فرعون بغير اختياره، ثم يخرج حاملاً كل الكره لما عليه فرعون وأعوانه من الفراعنة الصغار، هامان، وقارون، وأضرابهما، يخرج ليعيش تجربة دامية تضعه على الطريق المفضي إلى مدين، (مدينة على بحر القلزم محاذية لتبوك، وقيل مدين اسم قبيلة)[٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾. [الأعراف:٨٥].

وقبل أن يبلغ (مدين) يصل إلى ماء البلد، حيث مجتمع الناس ومزدحمهم، ليجد عنده أمة – جماعة كثيفة العدد –[٣]، وهناك ملتقى الرعاء ومعرض القوة:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

ويشد انتباهه فتاتان في مكان أسفل من مكان بقية الرعاة ﴿ووجد من دونهم

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٣٦/٤.

(٢) معجم البلدان: ٧٨/٥، لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

(٣) الكشاف: ١٦١/٣.

امرأتين﴾ [القصص:٢٣]، وإذا كان موسى قد بطش بالقبطي بعد استغاثة الإسرائيلي به، فهو هنا لم ينتظر طلب الفتاتين المساعدة بل بادر إلى سؤالهما:

ما خطبكما (ما شأنكما).

﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير﴾.

لم يزد على سؤال واحد. «رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف».[1]

ولم تكن هذه الشهامة والنخوة والقوة لتستعمل في السطو على الناس، أو استغلالها في لفت نظر الفتاتين أو الرعاة إلى قوته، ما كان ذلك أبداً، وإنما يعرف موسى من صاحب الفضل في ذلك كله، فيناجيه بعد أن سقى للفتاتين شاقاً الصفوف ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ [القصص:٢٤]. لقد كان هذا الحدث الخاطف في زمنه الحاسم في تنفيذه عميقاً في نفس البنتين، فحدثتا بذلك شعيباً عليه السلام (أوكانتا ابنتين لأحد صالحي مدين)[2].

وانتهى الحديث بأن ﴿جاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه القصص، قال: لا تخف، نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما، يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين. قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك، ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال: ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي، والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص:٢٥-٢٨].

(١) الكشاف: ١٦١/٣.

(٢) رجح هذا شيخ الإسلام في رسالته التي نشرها محمد رشاد سالم رحمه الله في جامع الرسائل الجزء الأول. [المجلة].

فلنتأمل ملياً وجلياً صورة هاته الفتاة، ولنتدبر كلماتها وإبانتها، ﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ وحركتها ﴿تمشي على استحياء﴾ وعن سبب خروجها وأختها ﴿أبونا شيخ كبير﴾. إنهما من ذرية النبوة، ذرية آدم عليه الصلاة والسلام، الذي خوطب بقوله تعالى ﴿لا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾. فالخروج لآدم وحواء، أما التعب والنصب، في مكابدة شؤون العيش، فلآدم ﷺ، ولذلك أفرد الفعل ﴿فتشقى﴾. أين هذا الخروج المقيد بقدم سن الوالد من الخروج المعاصر لأكثر النساء بقيد أو بغير قيد ؟ لكأني أسمع قائلا يقول: وهل تلزم نساء عصرنا بسلوك امرأة عاشت قبل قرون متطاولة ؟ ولكن قبل هذا السؤال سؤال هو:

من أين تستقدم المرأة المسلمة مكونات شخصيتها ؟ وما المبادئ التي تشكل مرجعيتها في هذه المكونات؟ وهل حريتها في معتقدها ومسلكها تنبع من النص أم من الهوى؟ هل تستقدمها من نساء مشوهات ومشبوهات، لم يقمن للعفة والفضيلة حساباً، ولم يلجن للحياة السوية باباً؟ أم يجعلن قدوتهن بنات الأنبياء ونساء الصالحين، التي كانت إحداهن تمشي على استحياء من غير تبرج بالكلام أو القوام.

وإذا كان نبينا محمد ﷺ قد أمر بالاقتداء بأولئك الأنبياء، فالمسلمون مأمورون بالمتابعة، و لله در حبر الأمة الغواص أبو العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عندما سأله تلميذه مجاهد عن السجدة في الآية الرابعة والعشرين من سورة (ص) فقال: ما رواه البخاري في صحيحه في غير موضع، وبألفاظ مختلفة، أورد للقارئ إحداها، كما هي في فتح الباري: قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى: حدثني محمد ابن عبدالله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال:سألت مجاهداً عن سجدة سورة (ص) فقال: سألت ابن عباس من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ومن ذريته داود

وسليمان﴾ [الانعام:٨٤]، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام: ٩٠] فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ[1].

وقد لا يكون في وسع أي عمل أدبي، مهما أوتي من حجج، أن يصد تيار الحياة الهادر، فيعيد المرأة إلى خدرها، لن يحصل ذلك إلا أن يشاء الله، ولكن إذا كان الواقع السيء للمرأة المعاصرة نتاجاً لثقافة هجين، وامتداداً لسلوك نسوة لاخلاق لهن، فإن بمقدور نساء لا زلن مستمسكات بالعروة الوثقى لفضائل الأخلاق أن يحيين سنن أمهاتهن الصالحات، وأن يقدمن نماذج واعية، غير مستلبة، للمرأة المسلمة في هذا العصر، وقد لا يكون الخروج بحد ذاته إحدى الكبر، بل تكون في وسيلة الخروج وغايته، بل قد تكون الخلفية التي تكمن وراء هذا الخروج، والذهنية التي يتم فيها، هي المعضلة الكبرى.

إن المرأة المعاصرة بنت فلان وفلانة في النسب، ولكنها في الفكر والسلوك تتحدر من أصول بعيدة وأبوات غربية، حتى باتت هذه الأصول تشكل بمجموعها شخصية أكثر النساء في العصر الحاضر، ولعل أظهر المؤثرات في هؤلاء النساء هي المؤثرات الغربية ثقافة وسلوكاً مثلا أعلى، وليس من العدل أن تلقى تبعة ذلك كله على المرأة، فالأمة التي عجزت عن الإبداع وتجديد شباب قيمها المتراجعة، واستئناف دورها الرسالي، لا يستغرب أن تخضع المرأة، وحتى الرجل فيها لقيم تتناقض كلياً أو جزئياً مع الإسلام.

بعبارة موجزة، وضع المرأة جزء من الوضع المأساوي العام للأمة، وما إخال أن إنقاذاً شاملاً لهذا الوضع ممكن بمعزل عن تحسين الوضع العام للأمة، ولكن ذلك لا يعني أن تعلق أو تؤجل كل الجهود باتجاه المرأة، حتى تعود دولة الرشيد السحابية (حقبة حكم المسلمين للدنيا كلها)، فالنص الذي أمامنا يشكل المساندة والرفد المعنوي لما يجب أن يتبناه

(١) فتح الباري: ٨/٥٤٤، الحديث رقم: ٤٨٠٧.

المصلحون، فالفتاتان لم تلجأ إلى مخالطة الرجال ومزاحمتهم في مستقى الماء، بل آثرتا - حياء وخفراً - أن تكونا بمفازة فجاءتهما الجائزة؛ إذ قيض لهما من يسقي أنعامهما، وتعود إحداهما زوجة لواحد من أولي العزم من الرسل، قال عنه رسولنا محمد ﷺ: (الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري، أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور)[1].

وفي حديث آخر عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أخرج البخاري - رحمه الله - قوله ﷺ: (لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله).[2]

إن عدم توافر الفرص أمام حل شامل لا يلغي الحلول الفردية، التي يجب أن تسبق الحلول الجماعية، وإذا كانت مسؤولية الإنقاذ الجماعية قد تسقط أحياناً عن الأفراد، فإن تحصين الجبهة الذاتية، التي تشمل شخصاً وأسرة، لا يمكن أن تسقط إلا في حالة سقوط التكليف الشرعي للمسلم. والزواج أحد المنعطفات المهمة في حياة المرأة، يجب أن يظل حاضراً في المرتبة الأولى من سلم اهتمامات الأهل، وانتظار الزوج القادم من المجهول، ليس السبيل الوحيد لذلك، فقد يأتي وقد لا يأتي، لذا فإن مسؤولية المعنيين من الأهل في الرصد والمتابعة لاختيار الرجل المناسب مسؤولية أساس، وفي فعل والد البنتين ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾[3] ما يجب أن يزيل من أنفسنا حرجاً نشعر به، عندما يفكر أحدنا أن يخطو مثل هذه الخطوة، التي قد لا يقدرها الرجل حق قدرها، ولكن لنتذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي يمثل بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي

---

(١) فتح الباري: ٦/٤٣٠، حديث رقم: ٣٣٩٨.

(٢) فتح الباري: ٦/٤٤١، الحديث رقم: ٣٤٠٨.

(٣) سورة القصص: ٢٧.

ا لله عنه معنى الإباء والاعتداد بالقيم، لم تمنعه هذه المعـاني كلهـا أن يعـرض ابنتـه حفصـة، رضي الله عنها، على بعض الصحابة، ولن ينسى التاريخ فعلة سعيد بن المسيب مع تلميذه ابن أبي وداعة عندما عرض عليه ابنته، ثم زفها إليه بأقل المظـاهر الـتي تصـاحب الـزواج، ويزيد من تقديرنا لهذه الخطوة أن سعيد بن المسيب، الذي عرض ابنته على تلميـذه، كـان قد أبى تزويجها لأحد أمراء البيت الأموي. ويبلغ الإعجاب قمته عندما يهم الزوج في أيام عرسه الأولى بالتوجه إلى حلقة شيخه والد الزوجة ابن المسيب فتقول له الزوجة:

«إن لم يكن لك من أرب في الخروج إلا علم سعيد، فقد كفيت، فها هو ذا في صـدري، قد وعيته، فخذ منه ما شئت!!!».[1]

وكم فرصة ضاعت على فتاة وعلى فتى أيضاً، حيث لم يلهم أبوها أن يقول: ﴿إني أريد أن أنكحك﴾[2]، وأياً كان الموقف الذي تستقبل به كلمات المفكرين، فإن مسؤولية هؤلاء لا تتحدد أو تنبـع مـن هـذا القبـول أو ذاك الرفـض، بـل تنبجـس مـن الـتزامهم الفطـري وموقعهم الفكري، شأنهم وقدرهم كالنحلة تتغذى بالرحيق لتنتج منـه العسـل، وكـم مـن دعوة طمرتها الأحقاد والجهالات، وغمرتها أهوية النفوس، ثم قيض لها مـن أزاح الـتراب عن تبرها، والغثاء عن جوهرها، فبدت كأنما هي فص مـن المـاس، يعطيـك كـل ضلـع منـه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جميعاً بهرتك بألوان الطيف كلهـا، فـلا تـدري مـاذا تـأخذ عينك منها، وماذا تدع، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى فيها أكثر مما رأيت.

وعلى النقيض من ذلـك كـم مـن دعـوة احتضنهـا السـلطان، ومكـن لهـا غيـاب العلـم والإيمان، فأهلكت الحرث والنسل، وعاثت فساداً في العقول والقلـوب، ثـم انقطعـت بهـا أسباب البقاء وسبل الحياة. تأمل الشيوعية مسيرها، ثم مصيرها، ودعوة تحرير، بـل تحريـق

---

(١) النبأ العظيم: ١١٨.

(٢) سورة القصص: ٢٧.

المرأة التي توردها موارد الهلاك، وتحلها دار البوار، إن مصير هذه الدعوة رهن بقدر الله، ثم بالمؤسسات والشخصيات التي تدعمها. وأخيراً فإن عجز أو تعاجز الإسلاميين أو منعهم من صياغة مشروع إبداعي يسقط الرؤى المضادة، ويسكت الأصوات الحادة، إن ذلك أقوى الحجج في يد الخصوم.

وفي ظل هذا العجز أو التعاجز أو المنع يمتلك دعاة تحريق المرأة أهم مسوّغات وجودهم، وأسباب بقائهم. ولعل الباحث المتأمل لا يفوته أن يبين أن إطراء الفتاة لصفتي القوة والأمانة ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [القصص:٢٦]، يدل على فهمها لموازين الرجولة الحقة، التي غابت الآن في كثير من نظرات الشباب إلى النساء، وما يجب أن يطلبوا فيهن، وعن نظرات الفتيات إلى الشباب، وما يتعين أن يتطلعن إليه فيهم.

بعد أن فرضت قريش الحصار والمقاطعة على المسلمين في شعب عامر ابتغاء الضغط على النبي ﷺ ليتراجع عن دعوته إلى الإسلام، وبعد وفاة عمه أبي طالب، وما كان يمثله من درء عن الرسول والرسالة، ووفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، التي كانت مثابة النبي الوجدانية والمعنوية، بعد ذلك جاء حدث الإسراء والمعراج[1]، تكريماً للنبي ﷺ، ومعجزة جديدة تضاف إلى ما أكرمه الله عز وجل من معجزات، وسيدنا موسى ﷺ لعله قد عاش حالة مقاربة، فبعد خروجه من قصر فرعون، ولعل خروجه على صاحب القصر قد سبق خروجه منه، قد واجه مشكلة قتل القبطي، والشروع في قتل الآخر، والشعور بفقدان الأمن في مصر، ثم مسيره إلى مدين، والتعب الذي حل به بعد هذه الأحداث الجسام، فإن الله عز وجل قد هيأ له – فضلاً منه ومنة – لقاءه بوالد الفتاتين، ليشعر أولا بالأمن ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ [القصص:٢٥]، وليأجر لهذا الرجل الصالح، ويؤدي مهمة رعي الغنم التي تشر ف بها الأنبياء جميعا، وهل من نبي إلا وقد رعاها؟ (ما

(١) فتح الباري: ٤٣٨/٦، حديث رقم: ٣٤٠٦.

بعث الله نبياً إلا رعى الغنم)، فقال صحابته: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[1]، وبذلك يدخل موسى ﷺ أحد فصول مدرسة الأنبياء، فهم ليسوا مثل أولئك الواثبين على السلطة، أو المستقدمين إليها دونما رصيد، أو تدرج في سلم المسؤوليات.

«قال الأئمة: إن الحكمة في رعاية الأنبياء الغنم؛ ليأخذوا بالتواضع، وتعتاد قلوبهم الخلوة، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم».[2]

وقد لا يدور في خلد أحد إلزام الحكام من رؤساء وملوك بدورة في رعاية الغنم، ولكن نبئوني بعلم كيف يكون حال الأمة مع حكامها من رؤساء وملوك إذا تجاوزوا في وصولهم إلى القيادة المؤسسات الشرعية، ولم يعتادوا تحمل أدنى المسؤوليات، وإذا كان الله عز وجل ييسر لأنبيائه المعصومين هذه التجارب، فكم هي حاجة البشر العاديين إلى مثلها، بل إلى ما يقاربها؛ ليسيروا في الرعية سيرة الأنبياء، بل سيرة الصالحين المصلحين؟

إن التربية العملية في الثقافة المعاصرة محدودة، بينما هي في دعوة الرسل والأنبياء متوازية ومتطابقة مع التربية النظرية، هذا إن لم تتجاوزها، وفي هذا الجواب المفعم بالحب والتقدير من والد الفتاتين لموسى ﷺ، لم تمنعه هذه المودة العارمة من أن يتفق مع موسى بوضوح وبعبارات محددة:

﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين، على أن تأجرني ثماني حجج﴾ وإذا كان يترك لموسى هامشاً خارج العقد ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ فإنه سيكون هو الآخر ملتزماً بموجبات الإيمان قبل ملتزمات العقد ﴿ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

---

(١) فتح الباري: ٤/٤٤١، الحديث رقم: ٢٢٦٢.

(٢) فتح الباري: ٦/٤٣٩.

ما أحوجنا إلى صراحة تعطي كل ذي حق حقه، وما أشد احتياجنا إلى عقود تكون الضمانة الأخلاقية فيها أعمق من الضمانة السلطوية، ثم انظر إلى الإيجاب من موسى ﷺ: ذلك بيني وبينك، وإلى استشهاده الله على ما تم بينهما: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

لقد كانت كل هذه الابتلاءات التي واجهت سيدنا موسى ﷺ، وهذه التجارب والمباهج نعماً من الله؛ لتبتني هذه الشخصية للمهمة الكبرى، وهي مهمة التصدي لأخبث شخص، أعلن بتبجح وشرك كبّار﴿ ما علمت لكم من إله غيري﴾، ﴿وأنا ربكم الأعلى﴾، وأسس دولة وفقاً لهذه الرؤية المدمرة، ولعل مواجهة موسى (في قراءة مؤسى)[1]، للشرك المؤسس على دولة، أو العكس، كانت وراء السبب في تطويل النص القرآني للقص المتعلق بموسى ﷺ، فما أن انتهت مدة عقده في مدين، حتى قفل عائداً إلى مصر؛ لتبدأ أعنف مراحل الصراع في حياته مع فرعون وملئه، ومع بني إسرائيل الحاضرين الدائمين، والمحرضين المستمرين - إلا من آمن منهم - إذ قل أن توجد مشكلة عالمية ليس لليهود فيها دور، وقل أن يحر ض على شر إلا تجدهم حاضرين فيه، موقدين لنار الحرب، مسعرين للظى الفتن.

قضى موسى الأجل المحدد له في (مدين) وولى وجهه شطر مصر، ولعل أكبر همه أن يكون الأقباط قد أنسوا قتل أحدهم على يديه، وأن يقيم مع قومه بني إسرائيل ناشراً ما فطر عليه من مثل طيبة، ولكن فضل الله كان عظيماً، فقد قدر سبحانه أن يشرق على يد هذا الفتى فجر جديد للبشرية، من جانب الطور، ﴿ومن شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾ [القصص: ٣٠] حيث نودي: ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿فلما أتاها نودي يا موسى: إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه: ١١-١٤].

---

(١) الكشاف: ١٥٩/٣.

أي تفسير، وأي تصوير يحيط بجلال هذه اللحظة وجمالها؟ وأي أسلوب – غير الأسلوب القرآني – يمكنه أن ينقل ما في هذا النص المبارك من معان وحقائق أو يحملها ؟

قد يعيش المرء عمراً مديداً، لا يميز يوم فراقه هذه الحياة عن يوم قدومه لها شيء، اللهم إلا اختلاف زمن القدوم عن تاريخ الرحيل، وقد يوفق الله بعض الناس أن يخالطوا أوساطاً دينة مثقفة، فتجعل هذه المخالطة – بفضل الله – لكل لحظة من ثوان العمر معنى عظيماً، ومذاقاً خاصاً.

ولكن حياة أي إنسان مهما ارتفعت، وكانت هنيئة رضية، لن تبلغ يوماً في عمقها وفضلها، وفي أي عنصر من عناصر تقويمها، ما تبلغه حياة الرجل يمن الله عليه – تشريفاً وتكليفاً – بالنبوة والرسالة.

إن حياة سيدنا موسى ﷺ قد دخلت طوراً جديداً بالرسالة، إذ بات الوحي موجهها، والنص الإلهي مرشدها: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ [طه:١٣–١٤]، وإنقاذ مصر من فرعون والفرعونية هدفه: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾. [طه:٢٤]

﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه:٢٤]، ﴿وإذ نادى ربك موسى: أن ائت القوم الظالمين، قوم فرعون﴾ [طه: ٤٣] ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ [طه:٢٤]، والدعوة إلى التوحيد والإسلام غايتها ومطلبها: ﴿فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل، ولا تعذبهم، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى، إنا قد أوحي إلينا: أن العذاب على من كذب وتولى﴾ [طه:٤٧–٤٨]. ولم ينس موسى ﷺ قتل القبطي، ولئن نسي ذلك فلن ينسى جبروت فرعون وطغيانه ﴿قال: رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون﴾ [القصص: ٣٣] ﴿قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ [طه:٤٥]، فطمأنه الله عز وجل وأخاه، ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ [طه:٣٦]، ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه:٤٦]، ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما

سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ [القصص:٣٥]. تهيئة كاملة من الله عز وجل لموسى ﷺ: ﴿ولتصنع على عيني﴾ [طه:٣٩]، ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ [طه:٤١]، للمهمة العظيمة في حياته، بل في حياة البشرية كلها، فلولا فضل الله ورحمته باستنقاذ البشرية من الطواغيت على أيدي الرسل والأنبياء والدعاة الصالحين المصلحين، لباتت الأرض يباباً والحياة خواء، ولكم ادعى مدع الصلاح والإصلاح، ألم يقل فرعون عن موسى ودعوته وهي مقولة أعداء الدين اليوم:

﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر:٢٦]، فأقام هؤلاء المدعون الأدعياء أمرهم على غير دين، أو ابتنوه من منظومة ملفقة فأزالوا باطلاً بباطل، ومنكراً بأنكر.

إن الله عز وجل ابتعث موسى ﷺ لاقتلاع الشرك، وأعانه بكل ما يحتاج إليه من رسائل الحوار في الصراع.

يقول تقدست أسماؤه: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ [غافر:٢٣]. هذا الصراع الذي أخذ يقترب من موسى، وأخذ موسى يقترب منه، يخرج من مصر ﴿خائفاً يترقب﴾، ليعود إليها فاتحاً، مبتدئاً أمره مع فرعون بحوار طال وتعدد، وتنوعت أساليبه وعباراته[1]، وتعدد وقائع هذا الحوار وتكراره ليس مستغربا ؛ إذ كيف سيتنازل فرعون لموسى ﷺ عن عقيدته وحكومته، وعن مصر بما فيها ﴿من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم﴾. [الشعراء:٥٧-٥٨] كيف سيتنازل عن ذلك كله بلقاء أو لقائين، أو حوار أو حوارين ؟

ثم إن موسى ﷺ لم يبعث ليرمم الحكم الفرعوني، أو لعلاج موضعي في بنيته، التي

---

(١) انظر على سبيل المثال الايات: ٤٧-٤٩ من سورة طه، والايات: ١٠-٦٨، من سورة الشعراء، والايات ٣٦-٤٢ من سورة القصص.

استعصت أدواؤها، فلو جاء لمثل هذه الأمور، كما يحاول كثيرون من الدعاة في هذا الزمن عندما يختزلون الدعوة بالموالد، وفتات الموائد التي يتركها السياسيون بعد مغادرة قاعة الاجتماعات، لو جاء موسى لمثل هذه الأمور، وهذا مستحيل، لانتهى الإشكال، ولكانت قصته عرضت في القرآن الكريم بأقصر من الزمان والمكان الذي تشغله هذه القصة المباركة من آي الذكر الحكيم.

كان فرعون يمثل حكومة الأمر الواقع الراسخ المدعوم من الفئات القديمة الجديدة، ذات المصلحة المباشرة أو غير المباشرة في استمرار مثل هذه السلطة، فرعون، وهامان وجنودهما، وقارون، والكهنة، وليس من السهل إزالة التحالف الذي مثل ويمثل، في نظر أصحابه، حكماً دستورياً شرعياً يحرم تهديده والخروج عليه.

إن دفاع فرعون ومن وراءه عن مكاسب الحكم المادية والمعنوية لا تأتي سافرة؛ ففرعون يسأل موسى وأخاه عن مستندهما في دعوته ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ [طه:٤٩]، و﴿فما بال القرون الأولى﴾ [طه:٥١]، ولا يرى في دعوة موسى غير سحر وفي موسى غير ساحر: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ [طه:٥٧]، ﴿قال للملأ حوله: إن هذا لساحر عليم﴾ [الشعراء:٣٤].

بل يظهر المسؤولية عن عقيدة الأمة ﴿ذروني أقتل موسى، وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر:٢٦]، في غفلة من الحق وأهله، أو في حقبة استضعاف لهم، تتمكن فئة معينة من السيطرة على مقاليد الأمور، فإذا دعا أهل الحق إلى تصحيح الموازين بتحكيم الإيمان وليس تقلبات الزمان، تصايح أهل الباطل: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص:٥].

هكذا ووجه الأنبياء، وبهذا يواجه حاملو ميراث النبوة الآن، هل يعقل أن النظام الذي نعيش في ظلاله منذ كذا وكذا من سنين أو قرون باطل أو غير صحيح ؟ قال فرعون لموسى ﷺ: ﴿فما بال القرون الأولى؟﴾ [طه:٥١].

إن الحق لا يكون بكثرة الأتباع، ولا بتقادم الزمان، ولا بالفتاوى المزيفة، أو القوة المتحكمة، والبرلمانات المعلبة.

إن الحق -ولا يكون بغير ذلك- حكومة تستند في وجودها إلى نصوص الشرع، وترعى في سياستها المصالح الحقيقية للأمة، التي تكون هي الأخرى نابعة من الشرع، أما أكوام الدساتير، وأكداس القوانين، ومثلهم معهم من المتفقهين، فلن تمنح الشرعية لغير الشرعي، مهما اجتهدت فيما تقسم من إيمان، أو تقسم من ألقاب الباطل على فروعها، والألقاب المفتراة على الخصوم (فالناس إما محمدي موسوي، وإما فرعوني)[1].

قلت: لقد تعددت جولات الصراع بين رسول الله موسى ﷺ وفرعون، لعنه الله، استعان موسى بربه عز وجل، وأجلب فرعون بخيله ورجله، فلقد ظن أن موسى مجرد ساحر، وأن استدعاء بعض حذاق السحرة يذيب دعوته ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ [طه:٥٨]، ﴿فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى﴾ [طه:٦٠]، بدأ موسى بمواجهة هذا التجمع اللئيم الماكر بقوله: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذبا، فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، فتنازعوا أمرهم﴾ [طه:٦١-٦٢]، إن هذه الكلمة أثمرت هذا التصدع والانشطار في فريق فرعون، إنها دعوة لأهل الحق أن يتذكروا أن كلمة الحق التي تقال ستجد بفضل الله صدى في بعض قلوب الخصوم، وأن التنازع أول الوهن وبداية النصر، إن محترفي السحر وكذلك يكون شأن كل احتراف باطل، إلا ما شاء الله - أدركوا أنهم بحضرة نبوة، وفي مواجهة رسالة، وأن ألاعيبهم، لا مستقبل لها، وأن الفرصة الذهبية هي التخلي عن فرعون كفراً وفكراً، ولو كانت خسارة الدنيا والحياة كلها ثمناً لصون إيمانهم: ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا. وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام: ٢٥٣/١٢.

وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ [طه:٧٢-٧٦].

وكما يقول الفقهاء: العبرة بعموم النص، لا بخصوص السبب، وبلغة الأدب، إن قوة النص في تجاوزه تاريخيته وبقاءه مشعاً في مطلق الأزمنة، فإن قوله تعالى على لسان السحرة الذين آمنوا: ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾، ﴿ومن يأته مؤمناً﴾ وما ينتظر كل فريق من مصير، يجعل منازلة الباطل مفتوحة، ومصائر الفرقاء تكون بحسب موقفهم في الدنيا، لقد ركز موسى ﷺ راية الحق وميز أعلامها، وجعل فرعون نفسه من أئمة الضلال، فصار رمزاً للطغيان في كل جيل وقبيل، وبمصطلح الأدب المقارن صار فرعون وما يمثل (نموذجاً) وصدق الله العظيم القائل: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ [القصص:٤١-٤٢].

﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ [يونس:٩٢]، ففرعون قد بلغ في الشر مرتبة الإمامة، وهو لم ينج منه البدن فقط، بل شاء الله عز وجل أن تكون معالم كفره، ومكونات فكره قرآناً يتلى، واسمه تجاوز صاحبه، ليصبح علماً على كل شرير مجرم، فرسول الله محمد ﷺ، لما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر، قال: (هذا فرعون هذه الأمة)[١].

وفي الكشاف للزمخشري: ((ولعنة الفراعنة، اشتقوا تفرعن))[٢]، وفي تفسير ابن كثير: ((علم على كل من ملك مصر، وأيا كان فعليه لعنة الله)).[٣]

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام: ٢٥٣/١٢.
(٢) الكشاف: ٦٨/١.
(٣) تفسير ابن كثير: ٩٤/١.

وفي لسان العرب: ((الفرعنة: الكبر والتجبر. وفرعون كل نبي: ملك دهره، وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه إنما ترك صرفه في قول بعضهم، لأنه لاسمي له كإبليس، فيمن أخذه من أبلس، وكل عات فرعون. والعتاة: الفراعنة.

وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة أي دهاء وتكبر وفي الحديث: (أخذنا فرعون هذه الأمة)، وقيل: الفرعون بلغة القبط: التمساح)).[1]

وفي اللغة الإنجليزية **PHAROH** فرعون طاغية.

وهكذا نجد أن قيمة هذه القصة العظيمة لم تكن فقط فيما عكسته من أبعاد الإنجازات النبوية المتحققة، بل بما تمتلكه أيضاً تلكم الآيات المباركة واللغة القرآنية المعجزة من أسرار وطاقات؛ لتحقيق منجزات آتية إن شاء الله.

---

(١) لسان العرب: ٣٢٢/٣١.

صفات الذكر والدعاء بين الخوف والرجاء والإعلان والإخفاء

تأليف

عمر بن عبدالرحمن السردي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،

أما بعد... فإن ذكر الله تعالى من أجل الأعمال الصالحة، وأعظم القربات إليه سبحانه، فهو يورث العبد محبة الله التي هي قطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة، ويحط عنه الذنوب والخطايا ويذهبها، ويزكي النفس ويطهرها، ويجلي القلوب ويصقلها، ويشرح الصدور ويبسطها، ومنافع الذكر وفوائده كثيرة ليس هذا مقام بسطها.[1]

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بذكره ذكراً كثيراً، وتسبيحه بكرة وأصيلاً، وحث على ذلك في أكثر من موضع من كتابه العزيز... فقال عز وجل. ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ [الاحزاب:٤٢]، وقال تعالى: ﴿وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [الجمعة:١٠]، وقال تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ [الاحزاب:٣٥]، وقال تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ [البقرة:٢٠٠].

(١) وقد بلغ ما عده ابن القيم منها تسعاً وسبعين فائدة ذكرها في كتابه «الوابل الصيب من الكلم الطيب» فراجعها ان شئت

وللذكر -كما لكل العبادات- آداب وشروط وصفات، لا يجوز إهمالها أو العمل بخلافها. فلا ريب أن الأذكار والدعوات -هي كسائر أنواع العبادات- مبناها على التوقيف والإتباع، لا على الهوى والابتداع.

وقد بين الشارع أتم البيان آداب الذكر وشروطه وصفاته، وأمر بلزومها، وعدم مجاوزتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية، إنه لا يحب المعتدين﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين﴾ [الاعراف:٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة ربك قريب من المحسنين﴾ [الأعراف:٥٦].

فأرشد الله عز وجل عباده إلى دعائه وذكره دون الغفلة عنه، وقرن ذلك بصفات تحسن معه، وهي: التضرع، والخوف، والرجاء، والاسرار، والإخفاء.

وسنأتي بإذن الله تعالى إلى بيان هذه الصفات بياناً وافياً، فنقول وبالله التوفيق:

أولا : التضرع

وهو الخضوع والتذلل والاستكانة، والانكسار بين يدي الله سبحانه، وإظهار الافتقار والحاجة إليه.

وفي اللغة: ضرع إليه يضرع ضرعاً وضراعة: خضع وذل، ومنه قوله تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ [الأنعام:٤٣]؛ أي تذللوا وخضعوا(١)، وتضرع إلى الله: ابتهل وتذلل، أو تعرض بطلب الحاجة(٢). فالتضرع تفعل من الضراعة، وهي الذل.

وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً﴾ [الأعراف:٥٥]؛ أي: ادعوا ربكم الذي خلقكم

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ١٠/٩٠.

(٢) انظرك القاموس المحيط، للفيروزآبادي: ٩٥٨.

متذللين له خاضعين، مظهرين الذل في النفس والخشوع، يقال: ضرع فلان لفلان؛ إذا ذل له وخشع. والدعاء هو السؤال والطلب؛ لأن الداعي لا يقدم على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ذلك المطلوب، وهو عاجز عن تحصيله، وعرف أن ربه سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته، وهو قادر على إيصالها إليه، فعندئذ يعرف العبد نفسه بالعجز والنقص، ويعرف ربه بالقدرة والكمال... وهو المراد من قوله تعالى: ﴿تضرعا﴾.[1]

وقال ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ : ((ادعوا أيها الناس ربكم وحده، فاخلصوا له الدعاء دون ما تدعون من الآلهة والأصنام. (تضرعاً) يقول: تذللاً واستكانة لطاعته))[2]

وقال ابن الجوزي في تفسيره: ((التضرع: الخشوع في تواضع))[3]

وقال الآلوسي: ((تضرعاً: أي ذوي تضرع، أو متضرعين... وهو من الضراعة؛ وهي الذل والاستكانة، يقال ضرع فلان لفلان؛ أي ذل له واستكان، وقال الزجاج: التضرع: التملق. وهو قريب مما قالوا؛ أي ادعوه تذللاً))[4]

وقال القاسمي: ((إن الله تعالى ذكر آداباً لذكره، منها: أن يكون على سبيل التضرع، وهو التذلل والخضوع، والاعتراف بالتقصير؛ ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية))[5]

فيشهد بقلبه وجوارحه افتقاره إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه

---

(١) السراج المنير، للخطيب الشربيني: ١/٨١.
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري: ٥/٨/١٤٧.
(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ٣/٣١٤.
(٤) روح المعاني، للآلوسي: ٨/١٣٩.
(٥) محاسن التأويل، للقاسمي: ٧/٢٩٣٦.

وسعادته، ويكون قلبه منكسراً بين يدي خالقه ورازقه، فما أقرب الجبر إلى هذا القلب المكسور، وما أدنى الإجابة والرحمة منه.

ثانيا : الخوف والرجاء

يقول ابن القيم: ((الخوف هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف، وقيل: هو هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

ومنزلة الخوف من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد. والخوف ليس مقصوداً ذاته، بل هو مقصود قصد الوسائل؛ ولهذا يزال الخوف بزوال المخوف؛ فإن أهل الجنة ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٣٨])) [١].

وأما الرجاء: فهو توقع محمود يحصل في المستقبل.

وقول الله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة)) قال الجوهري: ((الخيفة: الخوف))؛ أي اذكر ربك على وجه الخوف والخشية والرهبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره؛ لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال والمغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله، ومحبته له، فإذا حصل المقصود، فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدثني رجل أنه أنكر على بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة. فقال له الشيخ:

---

(١) مدارج السالكين–ابن القيم: ٥١١/١–٥١٤ بتصرف واختصار.

أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله، فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلى. فقال له: فقلب المريد أعز عليه من عشرة دراهم - أو كما قال وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه. فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلى أمر الله عز وجل .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف أدى إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام، كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة.

وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته؛ ولهذا قال بعض السلف: من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده، فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده، فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، ورده إليها كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته؛ لئلا تخرج عن الطريق. والرجاء حاد يحدوها، يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصاً يردها إذا حادت عن الطريق، خرجت عن الطريق وحادت عنها.

فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.[1]

وقوله تعالى: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ ؛ «أي ذوي خوف من وبيل العقاب، نظراً إلى

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية: ١٥/٢٠-٢١.

قصور أعمالكم، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب نظراً إلى سعة رحمته ووفور فضله وإحسانه))[1] ؛ أي جامعين في أنفسكم بين الخوف والرجاء.

وقال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿خوفاً وطمعاً﴾ ؛ ((أي: ذوي خوف من الرد لقصوركم عن أهلية الإجابة، وطمع في إجابته تفضلاً منه، وقيل: خوفاً من عقابه وطمعاً في جزيل ثوابه. وأصل الخوف: انزعاج القلب لعدم أمن الضرر، وقيل: توقع مكروه يحصل فيما بعد، والطمع توقع محبوب يحصل له))[2]

وقال القرطبي: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر، يحملانه في طريق الاستقامة، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وإن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر:٤٩]، فرجى وخوف، فيدعو الإنسان خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه. قال الله تعالى: ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ [الأنبياء:٩٠]. والخوف: الانزعاج لما لا يؤمن من المضار، والطمع: توقع المحبوب. قاله القشيري.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة، فإذا جاء الموت غلب الرجاء، قال النبي ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله). صحيح أخرجه مسلم[3]

والقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى

---

(١) محاسن التأويل- القاسمي: ٢٧٥٥/٧.

(٢) روح المعاني- الآلوسي: ١٤٠/٨.

(٣) الجامع لاحكام القرآن، للقرطبي: ١٤٥/٧/٤.

فقد الجناحان، فهو عارضة لكل صائد وكاسر[1]

وقال الشيخ ابن تيمية رحمه الله: ((ولما كان قوله ؛ وادعوه خوفاً وطمعاً)) مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إن رحمة ربك قريب من المحسنين﴾ [الاعراف:٥٦]. أي إنما تنال من دعاه خوفاً وطمعاً، فهو المحسن، والرحمة قريب منه لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة))[2].

ثالثا : الإسراروالإخفاء

قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ ؛ أي: ذوي تضرع وخفية. والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خفي كرضي بمعنى اختفى؛ أي: استتر وتوارى: وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين؛ لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذي القدرة الباهرة، والرحمة الواسعة، وإذا حصل ذلك، فلا بد من صونه عن الرياء، وذلك بالاختفاء توصلاً للإخلاص.[3]

وقال القرطبي: ((ومعنى (خفية) أي سراً في النفس، ليبعد عن الرياء، وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام؛ إذ قال مخبراً عنه: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ [مريم:٣]، ونحوه قول النبي ﷺ: (خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي)[4]. والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر... قال الحسن بن أبي الحسن: لقد

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم: ٥١٧/١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية: ١٦/١٥.

(٣) محاسن التأويل- القاسمي: ٢٧٥٢/٧.

(٤) رواه الامام احمد في ((مسنده)) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ابي لبيبة عن سعد بن مالك مرفوعاً ورواه أبو يعلى والعسكري وابن حبان في ((صحيحه)) من الطريق نفسه. قلت: وابن ابي لبيبة هذا مع توثيق ابن حبان له ضعفه ابن معين والدارقطني، وروايته عن سعد بن ابي وقاص وهو سعد بن مالك مرسلة كما ذكر الحافظ في (التهذيب): ٣٠١/٩، لذا فالحديث بهذا الاسناد ضعيف.

أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سراً فيكون جهراً أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، فلا يسمع لهم صوت. إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ ؛ وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾[1].

وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة. وعنه عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تضرعاً وخفية﴾ قال: السر[2]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ؛ قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاًوخفية﴾ يتناول نوعي الدعاء أي: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، ولكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره. قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت، أي ما كانت إلا همساً بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾، وأنه ذكر عبداً صالحاً، ورضي بفعله، فقال: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾.

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيماناً لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

وثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم؛ لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن– القرطبي: ٧/٢٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم– ابن كثير ٢/١٩٣.

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده؛ فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوعه بالنطق. وقلبه يسأل طالباً مبتهلاً، ولسانه لشدة ذلته ساكت، وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلاً.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه في جمعية القلب على الذلة في الدعاء؛ فإن رفع الصوت يفرقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها: وهو من النكت البديعة جداً – أنه دال على قرب صاحبه للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل، وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى عينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر فقال: (اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[1]. وقد قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربا عاماً من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال؛ فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يمل اللسان وتضعف قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر، فإذا رفع صوته، فإنه لا يطول له، بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات؛ فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد؛ فلا يحصل على هذا تشويش ولا غيره، وإذا جهر به فرطت له الأرواح البشرية ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفزع عليه همته، فيضعف أثر الدعاء، ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمة الإقبال والتعبد، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة؛ فإن أنفس الحاسدين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد. وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ [يوسف:٥]، الآية. وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالى قد تحدث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلع عليه أحد، والقوم أعظم شيئاً كتماناً لأحوالهم مع الله عز وجل ، وما وهب الله من محبته، والأنس به وجمعية القلب، ولا سيما فعله للمهتدي السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه – بحيث لا يخشى عليه من العواصف، فإنه إذا أبدى حاله مع الله تعالى ليقتدي به ويؤتم به، لم يبال. وهذا باب عظيم إنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء، والمحبة والإقبال على الله تعالى، فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه وتعالى، متضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه للطلب، كما قال النبي ﷺ: (أفضل الدعاء الحمدلله)[1]، فسمى الحمدلله دعاء، وهو ثناء محض؛ لأن الحمد متضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب، فالحامد طالب للمحبوب، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب، فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح[2].

وقوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ [الأعراف:٢٠٥] عام لكل ذكر، فإن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى القبول[3].

وقال الخطيب الشربيني: «المراد بالذكر في النفس أن يستحضر في قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله؛ لأن الذكر باللسان، إذا كان عارياً عن ذكر القلب، كان عديم الفائدة؛ لأن فائدة حضور القلب وإشعار عظمة المذكور تعالى»[4].

وقال ابن القيم: «أفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي في (عمل اليوم والليلة)، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٥/١٥-١٩.

(٣) روح المعاني-الآلوسي: ١٠-١٥٤.

(٤) السراج المنير: ٣/٣١٤.

النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده))[1].

وقول الله تعالى: ﴿ودون الجهر من القول﴾ [الأعراف:٢٠٥].. قال ابن كثير: (هكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه ? أم بعيد فنناديه ? فأنزل الله عز وجل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فأني قريب اجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [البقرة:١٨٦][2].

وقال ابن الجوزي: ((قوله تعالى ﴿ودون الجهر من القول﴾ الجهر: الإعلان بالشيء؛ ورجل جهير الصوت: إذا كان صوته عالياً. وفي هذا نص على أن الذكر باللسان.

ويحتمل وجهين: أحدهما: قراءة القرآن. والثاني: الدعاء، وكلاهما مندوب إلى إخفائه. إلا أن صلاة الجهر قد بي ن أدبها في قوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ [الإسراء:١١٠][3].

وقال الطبري: ((﴿ودون الجهر من القول﴾ : ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهارا))[4].

وقال القرطبي: ((ودون الجهر؛ أي دون الرفع في القول: أي أسمع نفسك، كما قال: وابتغ بين ذلك سبيلاً أي بين الجهر والمخافة، ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع على ما تقدم في غير موضع))[5].

قلت: ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال:

---

(١) الفوائد – ابن القيم: ٢١٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير: ٢/٢٤٥.
(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ٣/٣١٤.
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري: ٦/٩/١١٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي: ٧/٢٢٥.

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير - وفي رواية - فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: (اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً. وهو معكم).

فهذا دليل صريح على عدم شرعية رفع الصوت بالذكر، وإليه ذهب جمهور أهل العلم.

قال الطبري تعقيباً على هذا الحديث: ((فيه كراهية رفع الصوت بالدعاء والذكر، وبه قال عامة السلف من الصحابة والتابعين))[1].

ومما تقدم يتبين لنا أن من آداب الذكر والدعاء التي أمر بها الشارع هو: أن يكون سراً لا جهراً. خلافاً لما اعتاده الناس في أيامنا هذه من الجهر بالدعاء بعد الصلوات عند المساجد، والاجتماع على ترديد بعض الأذكار بصوت مرتفع على لسان واحد، فهذا من البدع الشائعة المنكرة.. وكان أول من أحدث ذلك نفر من الخوارج، كانوا يجتمعون في المسجد، وفيهم رجل يقول: كبروا كذا مرة، فيكبرون. ثم يقول: سبحوا كذا مرة. فيسبحون. ثم يقول: احمدوا كذا مرة. فيحمدون. فلما بلغ أمرهم عبدا الله بن مسعود رضي الله عنه خرج إليهم فوجدهم على حالهم هذه فقال: ((والذي لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلماً، ولقد فضلتم أصحاب محمد علماً، قالوا: يا أبا عبدالرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لم يصبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا يوماً.. أن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله ما أدري لعل أكثرهم منكم))[2].

وقول ابن مسعود رضي الله عنه ((وكم من مريد للخير لم يصبه)).. فيه معنى بليغ، وهو أن إرادة الخير وقصده لا تعني قبول العمل إلا إذا وافق الدليل والشرع، فمن أعظم

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر ٦/١٦٦.

(٢) رواه الدارمي والطبراني في (الكبير) وقال عمر بن سلمى: رأيت عامة أولئك الخلق يطاعوننا يوم نهروان مع الخوارج.

أصول الدين: أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع؛ أي لا نعبده بعبادة مبتدعة، قال تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [هود:٧]، قال الفضيل بن عياض: أي أخلصه وأصوبه؛ فإن العمل إذا كان خالصاً، ولم يكن صواباً، لم يقبل وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً، لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وفي رواية لمسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، لهذا قال الفقهاء: ((العبادات مبناها على التوقيف)) أي على ما جاء به الشرع، فلا يجوز الزيادة عليها أو تقييدها بصفة، أو كيفية، أو زمان، أو مكان مخصوص، ليس في الشرع ما يدل عليه.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله : ((إن الدليل الشرعي، إذا اقتضى أمراً في الجملة مما يتعلق بالعبادات مثلاً، فأتى به المكلف في الجملة، كذكر الله والدعاء والنوافل المستحبات وما أشبهها مما يعلم من الشارع فيها التوسعة، كان الدليل عاضداً لعمله من جهتين: من جهة معناه، ومن جهة عمل السلف الصالح به.

فإذا أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة، أو زمان مخصوص، أو مكان مخصوص، أو مقارناً لعبادة مخصوصة، والتزم ذلك، بحيث صار متخيلاً أن الكيفية، أو الزمان، أو المكان مقصود شرعاً من غير أن يدل الدليل عليه، كان الدليل بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه.

فإذا ندب الشرع مثلاً إلى ذكر الله، فالتزم قوم الاجتماع عليه، على لسان واحد وبصوت، أو في وقت معلوم مخصوص عن سائر الأوقات، لم يكن في ندب الشارع ما يدل على هذا التخصيص الملتزم، بل فيه ما يدل على خلافه؛ لأن التزام الأمور غير اللازمة

شرعاً شأنها أن تفهم التشريع، وخصوصاً مع من يقتدى به في مجامع الناس كالمساجد، فإنها إذا أظهرت هذا الإظهار، ووضعت في المساجد، كسائر الشرائع التي وضعها رسول الله ﷺ في المساجد، وما أشبهها، كالأذان، وصلاة العيدين، والاستسقاء، والكسوف، فهم منها بلا شك أنها سنن.. إذا لم تفهم منها الفرضية. فالأحرى أن لا يتناولها الدليل المستدل به، فصارت من هذه الجهة بدعة محدثة بذلك.

وعلى ذلك ترك السلف الصالح لتلك الأشياء، أو عدم العمل بها، وهم كانوا أحق بها وأهلها، لو كانت مشروعة على مقتضى القواعد؛ لأن الذكر قد ندب إليه الشرع في مواضع كثيرة، حتى إنه لم يطلب في تكثير عبادة من العبادات ما طلب من التكثير من الذكر. كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً...﴾ [الأحزاب:٤١]، وقوله: ﴿وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [الجمعة:١٠] بخلاف سائر العبادات.

ومثل هذا – الدعاء – فإنه ذكر الله، ومع ذلك لم يلتزموا فيه كيفيات، ولا قيدوه بأوقات مخصوصة، بحيث تشعر باختصاص التعبد بتلك الأوقات، إلا ما عينه الدليل كالغداة والعشي . ولا أظهروا منه إلا ما نص الشارع على إظهاره، كذكر العيدين وشبهه، وما سوى ذلك كانوا مثابرين على إخفائه وسره. ولذلك قال لهم حين رفعوا أصواتهم: (اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً) وأشباهه، ولم يظهروه في الجماعات.

فكل من خالف هذا الأصل فقد خالف إطلاق الدليل أولاً؛ لأنه قيده بالرأي، وخالف من كان أعرف منه بالشريعة، وهم السلف الصالح رضي الله عنهم»[1] انتهى.

---

(١) الاعتصام، للشاطبي: ١/١٨١-١٨٢.

قال الناصر في ((الانتصاف)): ((وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانـه بـالتضرع في الآية، فالإخلال به كالإخلال بالضراعـة إلى الله في الدعـاء، وإن دعـاء لا تضـرع فيـه ولا خشوع لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لا خفية ولا وقـار يصحبـه. وتـرى كثـيراً مـن أهـل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعـاء، خصوصـاً في الجوامـع، حتـى يعظـم اللغـط ويشتد، وتستك المسامع وتستد، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفـع الصوت بالدعـاء، وفي المسجد. وربمـا حصلـت للعوام حينئـذ رقـة لا تحصـل مـع خفـض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة بالآثار. وما هي إلا رقـة شـبيهة بالرقـة العارضة للنساء والأطفال. ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنهـا لـو كـانت مـن أصـل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء، وفي خفض الصوت به، أوفر وأوفى وأزكى، فما أكـثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق...))[1].

وقد يتعلق بعض هؤلاء المبتدعة ببعض الأحاديث الصحيحة، متوهمـين أن فيهـا دليـلاً لهـم على مشروعية رفع الصوت بالأذكار والدعوات. ونحن نبين – إن شاء الله تعـالى – هـذه الأحاديث، وبطلان تعلقهم بها. فنقول وبالله التأييد:

الحديث الأول :

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبـي ﷺ قـال: (إن لله ملائكـة يطوفـون في الطـرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله، تنادوا، هلمـوا إلى حـاجتكم. قـال: فيحفون بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم عز وجل – وهـو أعلـم منهـم –: مـا يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك، ويحمدونك، ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأونـي؟ قـال: يقولـون: لـو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقـول: فمـا يسـألوني؟

(١) انظر محاسن التأويل للقاسمي: ٢٧٥٣/٧.

قال: يسألونك الجنة. قال: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: فيقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله يا رب، ما رأوها.

قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم).

أخرجه البخاري في - كتاب الدعوات - من «صحيحه» - باب فضل ذكر الله عز وجل، ومسلم في (صحيحه)، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر. والحديث فيه بيان فضيلة التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتمجيد، وفضيلة الذكر، ومجالسه، ومجالسة أهله.

وكما تدل ترجمته الباب الذي فيه الحديث عند كل من البخاري ومسلم، وليس في نص الحديث كما هو ظاهر من ألفاظه جهراً بالكلمات، ولا رفع أصوات. ومن قال بخلاف ذلك، فقد أساء فهم الحديث، وحم له ما لا يحتمل، وخالف ما تقدم من الأدلة الصريحة في النهي عن رفع الصوت بالذكر والدعاء والأمر بالإسرار والإخفاء.

ثم إن لرفع الأصوات في المساجد آثاراً سيئة؛ إذ هو يفسد على كثير من المصلين صلاتهم، ويلبس على المقرئين قراءتهم، وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ، ففي مسند الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج على الناس، وهم يصلون، وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال: (إن المصلي يناجي ربه عز وجل، فلينظر بم يناجيه؟ ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم

يجهرون بالقراءة، (وهو في قبة له)، فكشف الستر، وقال: (ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة)[1].

ولا اعتبار إلى كون ذلك في قراءة الصلاة أو في غيرها؛ لأن علة النهي عن رفع الصوت هنا هي أذى الآخرين، والتلبيس عليهم في صلاتهم وقراءتهم - كما هو ظاهر من نص الحديث - وهذا حاصل عند الذكر بصوت مرتفع من غير فرق، فيشمله حكم النهي الوارد في الحديثين المتقدمين كذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((قال قيس بن عبادة - وهو من كبار التابعين -: كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر، وعند القتال، وعند الجنائز. وكذلك سائر الآثار تقتضي أنهم كانت عليهم السكينة في هذه المواطن مع امتلاء القلوب بذكر الله وإجلاله وإكرامه، كما أن حالهم في الصلاة كذلك. وكان رفع الصوت في هذه المواطن الثلاثة عادة أهل الكتاب والأعاجم، ثم قد ابتلي بها كثير من هذه الأمة))[2].

قلت: وهذا بسبب الجهل بكتاب الله تعالى، وسنة النبي ﷺ، وما كان عليه السلف الصالح، واتباع الأهواء المضلة، والبدع المحدثة، التي أصبحت ديناً لكثير من العوام وضعفة العقول والأفهام.

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة رضيي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده) أخرجه الإمام أحمد في (مسنده)، ومسلم في (صحيحه)، وأبو داود، والترمذي، والنسائي في (السنن).

---

(١) رواه الإمام احمد، وأبو داود، والبيهقي، وصححه الألباني.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية: ١١٩.

والحديث فيه دليل على فضل مجالس العلم، التي يتلى فيها القرآن، وتفسر آياته، وتبين أحكامه، وليس فيه دليل على مشروعية الاجتماع لترديد الأذكار بصوت مرتفع، وعلى لسان واحد.. فهذا لم يفهمه أحد من الصحابة، أو التابعين، لا من هذا الحديث ولا من غيره؛ فمجالس الذكر التي كانت على عهدهم هي مجالس العلم، التي يتلى ويفسر فيها القرآن، وتبين فيها شرائع الدين وأحكامه، كمجالس ابن عباس، ومجاهد، وابن سيرين، وسفيان الثوري، والحسن البصري، وأضرابهم. قال عطاء: ((مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتطلق وتحج، وأشباه هذا))

وقال الإمام الشاطبي: ((كان السلف الصالح يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم، حتى يتعلم بعضهم من بعض، ويأخذ بعضهم من بعض، فهذا مجلس من مجالس الذكر التي جاء في مثلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه.... المتقدم))، وهو الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله.

وكذلك الاجتماع على الذكر، ففي رواية أخرى: (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة...) الحديث، لا الاجتماع للذكر على صوت واحد. وإذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله، أو التذاكر في العلم، إن كانوا علماء أو كان فيهم عالم، فجلس إليه متعلمون، أو اجتمعوا يذكر بعضهم بعضا بالعمل بطاعة الله، والبعد عن معصيته - وما أشبه ذلك، مما كان يعمل به رسول الله ﷺ في أصحابه، وعمل به الصحابة والتابعون - فهذه المجالس كلها مجالس ذكر، وهي التي جاء فيها من الأجر ما جاء.

كما يحكى عن ابن أبي ليلى: أنه سئل عن القصص فقال: أدركت أصحاب محمد ﷺ يجلسون، ويحدث هذا بما سمع، وهذا بما سمع، فأما أن يجلسوا خطيباً فلا. وكان كالذي نراه معمولاً به في المساجد من اجتماع الطلبة على معلم ي قرئهم القرآن، أو علماً من العلوم الشرعية، أو تجتمع إليه العامة، فيعلمهم أمر دينهم، ويذكرهم بالله، ويبين لهم سنة نبيهم؛ ليعملوا بها، ويبين لهم المحدثات التي هي الضلالة، ليحذروا منها، ويتجنبوا مواطنها، والعمل بها.

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة، وهي التي حرمها الله، لا مجالس أهل البدع، من هؤلاء الفقراء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف، وقل ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة إلا على اللحن، فضلا عن غيرها، ولا يعرف كيف يتعبد، ولا كيف يستنجي، أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة، وكيف يعلمون ذلك، وهم قد حرموا مجالس الذكر التي تغشاها الرحمة، وتنزل فيها السكينة، وتحف بها الملائكة، فبانطماس هذا النور عنهم ضلوا، فاقتدوا بجهال أمثالهم، وأخذوا يقرءون الأحاديث النبوية، والآيات القرآنية، فينزلونها على آرائهم، لا على ما قاله أهل العلم فيها، فخرجوا عن الصراط المستقيم، إلا أن يجتمعوا ويقرأ أحدهم شيئاً من القرآن، يكون حسن الصوت، طيب النغمة، جيد التلحين، تشبه قراءته الغناء المذموم، ثم يقولون: تعالوا نذكر الله، فيرفعون أصواتهم يمشون ذلك الذكر مداولة طائفة في جهة، وطائفة في جهة أخرى على صوت واحد يشبه الغناء، ويزعمون أن هذا من مجالس الذكر المندوب إليها، وكذبوا.. فإنه لو كان حقاً، لكان السلف الصالح أولى بإدراكه وفهمه، والعمل به، وإلا فأين في الكتاب أو في السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عالياً ؟ وقد قال تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ والمعتدون في التفسير هم الرافعون أصواتهم بالدعاء.

وعن أبي موسى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: (اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً تدعون سميعاً قريباً وهو معكم). وهذا الحديث من تمام تفسير الآية. ولم يكونوا رضي الله عنهم، يكبرون على صوت واحد، ولكنه نهاهم عن رفع الصوت؛ ليكونوا ممتثلين للآية، وقد جاء عن السلف أيضاً النهي عن الاجتماع على الذكر والدعاء بالهيئة التي يجتمع إليها هؤلاء المبتدعون، وجاء عنهم النهي عن المساجد المتخذة لذلك، وهي الربط التي يسمونها بالصفة[1]. ذكر من

(١) وهي ما تسمى في العراق: بـ (التكية) وفي بعض البلاد بـ (الزاوية).

ذلك ابن وهب، وابن وضاح، وغيرهما، مما فيه الكفاية لمن وفقه الله))[1] انتهى.

الحديث الثالث :

عن أبي معبد أن ابن عباس رضي الله عنه أخبره أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبي ﷺ، وأنه قال: قال ابن عباس: ((كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته)).. وفي رواية أخرى: ((كنت أعرف انقضاء صلاة النبي ﷺ بالتكبير)) أخرجه البخاري ومسلم في ((الصحيحين)) باب الذكر بعد الصلاة.

وهو أقوى ما أمكنهم الاحتجاج به على مشروعية رفع الصوت بالأذكار بعد الصلاة. وليس ذلك بمسلم به... ففهم الحديث على النحو الصحيح لا يتحقق إلا بعد النظر في ألفاظه ورواياته، وقرائنه، والجمع بينه وبين ما يقابله من الأدلة والنصوص. أما اجتزاء الحديث، أو رواية منه، وفهمها بمعزل عن بقية الروايات، أو النصوص الأخرى، فهذا أمر خاطئ يتنافى مع أصول المنهج العلمي في الاستدلال، وفهم النصوص.

وهذا الحديث بمجموع رواياته وألفاظه يمكن الجمع بينه وبين الأدلة المتقدمة في النهي عن رفع الصوت بالذكر والدعاء، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ قد جهر في بعض الأوقات؛ ليعلم الناس صفة الذكر بعد الصلاة، لا أن هديه كان الجهر بالذكر دائماً. وإلى هذا ذهب الإمام الشافعي رحمه الله. قال النووي: ((... نقل ابن بطال وآخرون أن أصحاب المذاهب المتبوعة وغيرهم متفقون على عدم استحباب رفع الصوت بالذكر والتكبير، وحمل الشافعي رحمه الله تعالى هذا الحديث (أي: حديث ابن عباس المتقدم) على أنه جهر وقتاً يسيراً حتى يعلمهم صفة الذكر، لا أنهم جهروا دائماً. قال: فاختار للإمام والمأموم أن يذكرا الله تعالى بعد الفراغ

---

(١) الاعتصام، للشاطبي: ١/١٩٥-١٩٦.

من الصلاة ويخفيان ذلك.. إلا أن يكون إماماً يريد أن يتعلم منه، فيجهر حتى يعلم أنه قد تعلم منه، ثم يسر. وحمل الحديث على هذا))[1]. انتهى كلام النووي.

فالجهر بالذكر إنما يكون مشروعاً بقصد التعليم فقط، فإذا عرف الناس صفة الذكر، انتفت الحاجة إلى تعليمهم، ولم يعد الجهر به مشروعاً لما تقدم من الأدلة في النهي عن ذلك، لهذا قال الشافعي فيمن قصد التعليم: ((يجهر حتى يعلم أنه قد تعلم منه ثم يسر))؛ أي يقتصر على قدر الحاجة فقط لا يتجاوزها. والحاجة إلى التعليم وضرورته قد راعاها الشارع واعتبرها، ففي (الصحيحين): أن النبي ﷺ صلى على المنبر؛ ليعلم الناس كيفية الصلاة، كما قال عليه الصلاة والسلام: (إنما فعلت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي)، فيجوز للإمام أن يصلي على المنبر، بقصد تعليم الناس الصلاة. ولكن إذا انتفت الحاجة إلى ذلك، لم تكن صلاته على المنبر مشروعة. كما قال ابن دقيق العيد وغيره. وكذلك بالنسبة للجهر بالذكر سواء.

الوجه الثاني: أن رفع الصوت بالذكر بعد الصلاة ليس على إطلاقه، إنما يقصد به التكبير، بدليل ما جاء في الرواية الأخرى للحديث نفسه عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كنت أعرف انقضاء صلاة النبي ﷺ بالتكبير)). وفي رواية الحميدي عن سفيان بصيغة الحصر.. ولفظه: ((ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير)). وكذا أخرجه مسلم عن ابن أبي عمر عن سفيان.

فهاتان الروايتان مفسرتان للرواية المتقدمة، وهي قوله: ((كان رفع الصوت بالذكر - حين ينصرف الناس من المكتوبة - على عهد النبي ﷺ)).

فالتكبير أخص من الذكر، فيكون مراد ابن عباس من رفع الصوت بالذكر، الذي كان

---

(١) انظر: صحيح مسلم: بشرح النووي ٥/٨٤.

على عهد النبي ﷺ هو: الجهر بالتكبير. قال الحافظ ابن حجر: ((قوله (بالتكبير) هو أخص من رواية ابن جريج التي قبلها؛ لأن الذكر أعم من التكبير، ويحتمل أن تكون هذه مفسرة لذلك، فكان المراد أن رفع الصوت بالذكر؛ أي بالتكبير...)).

قلت: وهذا يعني أن التكبير مستثنى من عموم الذكر الذي نهيناًعن رفع الصوت فيه. فواجب علينا أن نؤمن بكل ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، ونضم بعضه إلى بعض، ولا نضرب بعضه ببعض، فكل ما قاله النبي ﷺ وفعله حق لا ريب فيه ؛ ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم:٤]، وقد قال تعالى: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر:٧]. وقد جاءنا عنه ﷺ رفع الصوت بالتكبير بعد الصلاة.. فعرفنا أن هذه هي السنة، ونهانا عليه الصلاة والسلام أن نرفع أصواتنا بالذكر والدعاء، فهذا حق، وذلك حق. والواجب علينا أن نأخذه كله بظاهره من غير تكلف ولا تعسف.
وبهذا يندفع ما يظن به التعارض بين هذا الحديث وغيره من الأدلة، ويزول الالتباس الحاصل بينهما. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

هذا وقد اطلعت بعد كتابتي لهذا المبحث على رسالة صغيرة للسيوطي بعنوان ((نتيجة الفكر في الجهر بالذكر)) تتكون من سبع صفحات، وتتضمن إجابة على سؤال حول ما اعتاده الصوفية من عقد حلق الذكر، والجهر به في المساجد، ورفع الصوت بالتهليل، وهل أن ذلك مكروه أم لا؟

وكان نص جواب السيوطي في الرسالة: أن لا كراهة في شيء من ذلك!! مستدلاً على ما ذهب إليه بأحاديث... يمكننا تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول :

أحاديث ضعيفة، لا تقوم بها الحجة، ولا تصلح للاستدلال بأي حال من الأحوال

سأذكر منها على سبيل المثال حديثين[1]:

الأول: عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون). أخرجه الحاكم، والبيهقي في (شعب الإيمان) من طريق دراج أبي السمع، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد مرفوعاً.

وهو حديث ضعيف؛ لأجل دراج هذا، قال عنه ابن حجر في (التقريب): ١/٢٣٥: حديثه عن أبي الهيثم ضعيف. وقال في «التهذيب»٣/٢٠٨: قال أحمد: حديثه منكر، وكذا قال النسائي، وفي موضع آخر قال: ليس بالقوي، وقال أبو حاتم: في حديثه ضعف. وقال الدارقطني: ضعيف، وفي موضع آخر متروك، وقال فضلك الرازي لما ذكر له أن ابن معين قال: دراج ثقة، قال: ليس بثقة، ولا كرامة. وقال ابن عدي: عامة الأحاديث التي أمليتها عن دراج مما لا يتابع عليها.

قال ابن حجر: ومما ينكر من حديثه... (أكثروا ذكر الله حتى يقال مجنون). وذكر له الذهبي في «الميزان»: ٢/٢٥ أحاديث مناكير، هذا أحدها.

والحديث ضعفه الشيخ ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» برقم: ٥١٧، وعزاه إلى الحاكم، وعبد بن حميد، والثعلبي في (التفسير)، والواحدي في (الوسيط)، وابن عساكر من الطريق نفسه.

الثاني: عن أبي الجوزاء قال: قال رسول الله ﷺ: (أكثروا ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون). أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) مرسلاً.

ورواه أبو نعيم في «الحلية»: ٣/٨٠-٨١، بسنده عن سعيد بن سفيان الجحدري، عن الحسن ابن أبي جعفر، وعن عقبة بن أبي تبيت الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس مرفوعاً، وقال: غريب، لم يوصله إلا سعيد عن الحسن.

---

(١) أقول هذا على سبيل الإجمال والرد المختصر على الرسالة، وليس على سبيل التفصيل والرد المطول.

قلت: والحسن ابن أبي جعفر ضعيف الحديث، كما في (التقريب):١٦٤/١، وقال عنه الذهبي في (الميزان):٤٨٢/١ : ضعفه أحمد والنسائي. وقال ابن المديني: ضعيف ضعيف، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال بن معين: ليس بشيء، ثم ساق له الذهبي أحاديث عد ها من ((بلاياه))

وسعيد بن سفيان صدوق يخطئ، كما قال ابن حجر في (التقريب): ٢٩٧/١، وفي (التهذيب): ٤٠/٤، قال ابن حبان: كان ممن يخطئ، وقال البخاري: بلغني عن علي ابن عبدالله قال: ذهب حديثه.

قلت: فالحديث شديد الضعف. وقد ذكره الشيخ ناصر الدين الألباني في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة))برقم: ٥١٥، وقال: ضعيف جداً، وعزاه إلى الطبراني وأبي نعيم، ثم أورده من طريق آخر عند ابن المبارك في (الزهد)، وعبدالله بن أحمد في (زوائد الزهد) عن سعيد بن زيد عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء مرفوعاً. وقال: وهذا سند ضعيف؛ لإرساله، وضعف سعيد بن زيد.

القسم الثاني

أحاديث صحيحه.. ولكن ليس فيها ما يدل على استحباب رفع الصوت بالأذكار، وترديدها بصورة جماعية. كما هو معتاد عند أرباب الطرق الصوفية وغيرهم. بل غاية ما تفيده هذه الأحاديث فضيلة الذكر، وفضيلة مجالس الذكر التي سبق لنا الكلام عنها.

ومن هذه الأحاديث الصحيحة التي احتج بها السيوطي، الأحاديث الثلاثة التي ذكرناها – فيما تقدم – وأبطلنا الاستدلال بها، والحمدلله.

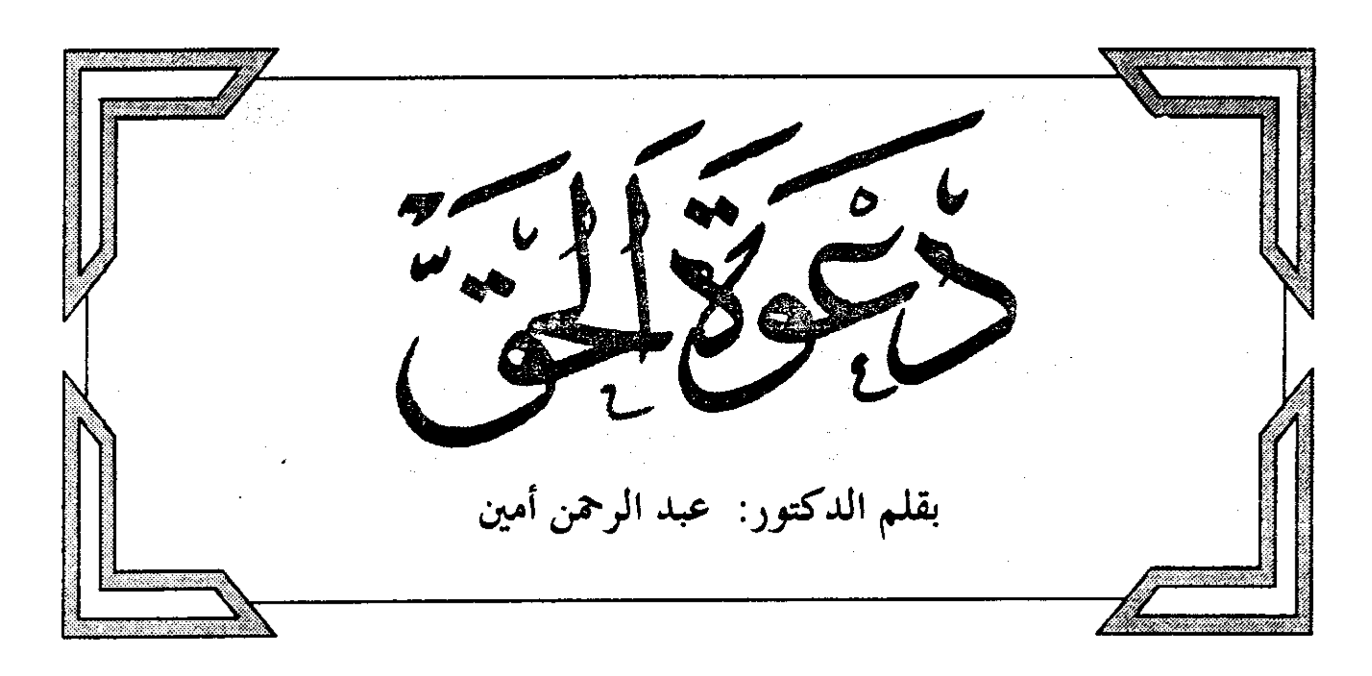
كما ذكر السيوطي في رسالته أيضاً أحاديث لا علاقة لها بموضوع الخلاف، كحديث.. (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي، ويميت، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة...) الحديث.

وكذلك أحاديث التكبير أيام التشريق، فهذا ذكر مخصوص في أيام مخصوصة من السنة، فهو مستثنى من عموم الأذكار التي ورد الأمر بإخفائها كما هو ظاهر.

ومما تقدم كله يتبين لنا جلياً أن الأصل في الذكر الإسرار.. إلا ما استثني بدليل، كالأذان، والتلبية، وما أشبه ذلك، مما جعله الله تعالى شعائر تعلن.

فعلى المسلم أن يتعبدالله عز وجل بذكره ودعائه كما أمر، قال تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ [البقرة:١٩٨]. ولا ينبغي لأحد أن يخرج عما جاءت به الشريعة، ودل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة.

والحمدلله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



الحلقة الأولى

مقدمة

أما بعد: الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على خاتم المرسلين وعلى آله الطيبين فمما لا شك فيه أن الحديث عن الدعوة من الأمور المهمة والحساسة بالنسبة لكل مسلم، وتناول هذا الموضوع والخوض فيه لا يخلو من صعوبة، كما أعتقد، فهو متضمن لفقه الدعوة بكل تفاصيله هدفاً وغاية ووسيلة وأسلوباً. ولقد سبق الكثيرون من الكتاب إلى الحديث عن الدعوة من زاوية أو أخرى، وبرؤية قد تكون مختلفة، وقد تكون متشابهة، معتمدة بالأساس على مشرب الكاتب الفكري، وطريقة تصوره للأمور، وتحليله للوقائع والأحداث.

والذي أردته من هذه الدراسة تسليط الضوء على الواقع الدعوي الذي يعيشه المسلمون اليوم، وما يحتاج إليه الداعون إلى الحق في دعوتهم من خلال منظار شرعي، وبرؤى واضحة مستندة إلى الأصول العلمية الصحيحة لمنهج الكتاب والسنة، سائراً بذلك

على خطى معلمنا الأول في الدعوة، نبينا محمد ﷺ الذي يقول: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[1]. ومعناه أن كل قول أو عمل خالف ما جاء به النبي ﷺ مردود متضمناً صغائر الأمور وعظائمها.

والبدعة هي البدعة، صغيرة كانت أم كبيرة، فهي ضلالة، وكل ضلالة في النار. ولقد جر الابتداع في الدين الويلات والمصائب العظيمة على الأمة، وسلبها وجهها المشرق المستنير بنور الكتاب والسنة، وألبس على الناس أمر دينهم..

ومن المجالات المهمة في حياة الأمة، التي تسللت إليها البدعة على حين غفلة من أهلها مجال الدعوة إلى الله، فحصل التغيير والتحريف في أمور الدعوة عامة، ابتداء من أهدافها وانتهاء بوسائلها.

فبعد أن كان التوحيد جوهر الدعوة ومادتها في زمن النبي ﷺ، وكلمة (لا إله إلا الله) هي الكلمة التي دندن حولها الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم في دعوتهم للناس: صار الكثير ممن يحملون راية الدعوة في هذا الزمان يجعلون التوحيد والدعوة إليه في ذيل القائمة، بل إن بعضهم يعد الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، أمراً ذهب زمانه، ومضى أوانه.

وأما الخوض في أمر الناس، باتباع السنة، ونهيهم عن البدعة، فهو -بزعمهم- مدعاة للفرقة والاختلاف، وإذا بالدعوة تتحول أهدافها من الأهداف الشرعية الثابتة التي رسمها لنا نبينا عليه الصلاة والسلام بوحي من الله تعالى إلى أهداف متحركة، تتحكم فيها الأهواء والآراء.

كل ذلك كان نتيجة للفهم الخاطئ لمنهج الكتاب والسنة، وتحكيم العقول في الشرع،

---

(١) رواه مسلم.

لا الشرع في العقول، والتحاكم إلى الرجال، بدلاً من الرجوع إلى الأصلين العظيمين اللذين أمرنا الله ورسوله باتباعهما، وهما القرآن الكريم، والسنة المطهرة.

ونتيجة لذلك اختلت موازين الدعوة اختلالاً جذرياً؛ فانقلبت مفاهيمها رأساً على عقب؛ لتفرز لنا نظريات ومفاهيم جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.. ومن بينها – على سبيل المثال لا الحصر – مفهوم ما يسمى بمصلحة الدعوة، والذي من خلاله مُرّرت الكثير من الأخطاء والمخالفات الشرعية، أدت – في نهاية المطاف – إلى حرف الدعوة عن مسارها الصحيح؛ وباسم هذه المصلحة المزعومة أضحت الغاية وسيلة، وصارت الوسيلة غاية، وقدم المهم على الأهم، ورضي بالجهل على العلم، وبالبدعة على السنة، وبالضعيف على الصحيح، وبالفاني على الباقي.

ومما زاد الطين بلة أن جمهرة من الشباب المسلم، المتعطش للدعوة إلى الله، من الذين نحسبهم على خير، ولا نزكي على الله أحداً، وقع ضحية لهذه الأفكار الضالة، ومن حيث لا يشعرون صاروا ينفذون ما يملى عليهم، غير آبهين إلى ما فيه من خلط وغبش وزيغ عن الحق، يرددونه كالببغاوات، نتيجة لقلة علمهم، الذي ما حرصوا على زيادته من جهة، ولثقتهم العمياء بأصحاب هذه النظريات والأفكار من جهة أخرى. فإذا بالأخطاء يتوارثها الأجيال كابراً عن كابر؛ لتضرب بجذورها في المجتمع، ليس لها من يقتلعها، أو حتى يزحزحها من أذهان وعقول كثير من شبابنا الطيب، ولولا الله، ثم من فتح الله عليه بمعرفة التوحيد والعلم الشرعي، لضاعت الأمة، ولنزع العلم منها، يقول النبي ﷺ: (إن ا لله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)[1].

---

(١) متفق عليه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله تعالى عنهما.

ولقد آن الأوان لأتباع هذا المنهج المبارك، أن نطرقوا هذا الموضوع من جميع جوانبا ويلجونه من أوسع أبوابه، مستندين إلى الأدلة الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنا وعلى فهم سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، وبهذا العمل نكون قد أخرجنا لإخواننا : كل مكان ممن تربى على هذا المنهج، وشرب من مائه العذب الزلال، أخرجنا لهم ه يحتاجون إليه من كتب ورسائل، تكون بديلة عن تلكم التي حوت الغث والسمين، مـ كتب الدعوة، التي يضطر شبابنا للرجوع إليها؛ لعدم وجود البديل المناسب.

وبذلك نكون قد وفرنا لإخواننا وقتاً ثميناً هم يحتاجون إليه في دعوتهم إلى الله، وبينا لا حقيقة الدعوة المطلوب منهم أن يؤدوها، موضحين لهم الأهداف والوسائل، كما أراده الشارع، من غير أن يختلط بعضها ببعض.

ولو أمعنا النظر في واقع هذه الأمة المؤلم، في هذا الوقت بالذات، لأدركنا الحقيقة جليـ فالدعوات كثيرة، وكل منها يلهج باسم الكتاب والسنة، ولكن هل يا ترى أعطت هـ الاسم المبارك حقه في مستوى العمل والتطبيق؟

الجواب: يستطيع أن يجيب عليه كل منصف عادل، شدته حالة الحيرة والارتباك الـ وصل إليها الكثير من المسلمين في عدم تمكنهم من اختيار سبيلهم الأمثل؛ للوصول إ الحق.

وعلى أية حال فإن تباشير الأمل بدأت تلوح في الأفق، ونسائم العودة إلى منهج الكتا والسنة هبت على النفوس؛ لتطمئن القائمين على أمر هذه الدعوة بأنهم على الحق المبـ ولازمين لصراطه المستقيم، فلا يفكروا بالحيدة عنه قيد شعرة؛ فهو سبيل الله الذي د إليه خير الناس، يقول الله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبع وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ [يوسف:١٠٨]، وأي سبيل غير هذا السبيل، إ عليه شيطان يدعو له، وإن بدا للناظر ما هو خلافه: ((خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ا

قال: (هذا سبيل الله مستقيماً)، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وشماله، ثم قال: (وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ [الأنعام:١٥٣] (١).

وبانتشار دعوة الكتاب والسنة من جديد، إن شاء الله تعالى، سيتغير واقع هذه الأمة الأليم، وتنكشف عنها هذه الغمة التي ألمت بها، وتنقشع عنها غيوم الجهل والضلالة والتخلف التي غطت سماءها لفترة طويلة من الزمن، حاجبة عنها شمس الإسلام الساطعة، وبشروقها من جديد سنسترجع ملكاً ضيعناه، ومجداً تليداً خسرناه، وأملاً عزيزاً ننشد إليه.. وما تلك الأنوار الوقادة التي بدأت بالإشعاع، من خلال الصحوة الجديدة للعالم الإسلامي، إلا مثال حي على ذلك.

فلنحرص يا إخوتي على هذه الدعوة، ولنكن أمناء عليها، غير مفرطين بها، ولنعلم بأن الحياة منقضية والعمر فان، فيا لسعادة من قدم للإسلام شيئاً، ولو كان قليلا ينتفع به وينفع به الناس، ويا لتعاسة من غرته دنياه، فأعرض عن آخرته، ونسي ما هو مطلوب منه تجاه دينه.

فديننا أمانة في أعناقنا، سنسئل عنها يوم القيامة؛ فلنتنادى إلى نصرته، ولنتسابق للذود عنه، فإن الأعداء كثيرون من إنس ومن جن. فإن لم نكن نحن أهلاً لحماية هذا الدين والدفاع عن بيضته، فمن له إذاً؟ فالموحدون هم أهل الحق في كل زمان ومكان، وهم أولياء الله، وهم أنصاره وأحباؤه، ولكن لنعلم جيداً بأن الله تعالى لا يحابي أحداً على حساب الحق، حتى وإن كان من أقرب الخلق إليه، فهذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

---

(١) صحيح، رواه أحمد والنسائي في الكبرى، والدارمي وصححه، ووافقه الذهبي.

فسنن الله ثابتة وباقية بقاء هـذا الزمـان، يقـول الله تعـالى: ﴿إن تنصـروا الله ينصركـم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد: ٧].

ويقول تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونـوا أمثـالكم﴾ [محمـد:٣٨]، فإما أن نكون أولياء الله، وإما أن نكون - والعياذ بالله - أعـداءه. وولايـة الله لا تنبغي لكل أحد، فللولاية شروط وأسباب، من أخذ بها كان من أهلها، ومن فـرط بهـا ضيعهـا، وكان لها من الخاسرين.. فالله الله في هذا الدين، وفي هـذه الدعـوة، ولـن ينفعنـا غـداً أي عذر أو حجة، فالله تعالى يقول: ﴿لا تعتذروا اليوم﴾ [التحريم:٧]، ويقول تعـالى: ﴿ولـن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ [الزخرف:٣٩].

فلا تغرنا الدنيا وزينتها؛ فهي فانية، ومهما تزينت وتجملـت فهي قبيحـة المنظـر، دميمـة المظهر، ويكفيها عيباً ونقصاً أنه لا يخلد فيها أحد؛ فـالموت ينتظـر أهلهـا، وإن طـالت بهـم الأعمار، وامتدت بهم السنون، وصدق الحسن البصري حين قال: ((فضـح الموت الدنيـا، فلم يبق فيها لذي لب فرحاً)).. فدنيا هذه حالها أتستحق منا هذا العنـاء، وهـذا الحرص، وهذا التنافس؟ إذاً لنجعل الدنيا دار ممر لنا إلى الآخرة، أما دار مقام ومستقر فلا.. ولتكـن دار عبور إلى الدار الباقية والخالدة، أما دار سرور وحبور فلا..

وصدق من قال:

هـي الدنيـا تقـول بمـلء فيهـا ... حـذار حـذار مـن بطشـي وفتكـي
فـلا يغرركمـو مـني ابتسـام ... فقـولي مضحـك والفعـل مـبكي

وقال آخر :

يـا خـاطب الدنيـا الدنيـة إنهـا ... شـرك الـردى وقـذارة الأكـدار
دار متـى مـا أضحكـت في يومهـا ... أبكـت غـداً تبـاً لهـا مـن دار

أما عن هذا البحث فهو بالتأكيد لم يغط كل ما يتعلق بدعـوة الكتـاب والسنة، ولكـني

حاولت أن أشير إلى بعض النقاط المهمة، والعلامات البارزة في هذه الدعوة، مع إلفات النظر إلى بعض المفاهيم الخاطئة التي علقت بها، وتسهيلاً للموضوع، ورفعاً لعبء الإطالة والإسهاب عن كاهل القارئ، فلقد قمت بتبويب البحث بالشكل الذي يعطيه حقه كموضوع علمي من جهة، واختصاراً لما قد يسترسل القلم بكتابته من جهة أخرى.

ومن منطلق قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ [آل عمران:١٠٤].

ومن حديث المصطفى ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[١].

ومن القاعدة الأصولية: ((ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)) أقدمت على هذا العمل، مستعينا بالله، ومتوكلاً عليه.

ولا يفوتني هنا التذكير بجهود العلماء المخلصين سلفاً وخلفاً، من الذين رفدوا الدعوة بكل ما يستطيعونه من جهود وعمل، كان له الأثر الفعال والمباشر في نشر هذه الدعوة، وتوضيح معالمها، ولمؤلفاتهم الوقع القوي في نفوس الشباب الموحد، فجزاهم الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فالله أدعو أن يرزقنا التوفيق والسداد في القول والعمل، ويجنبنا الخطأ والزلل ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ويعيننا على أنفسنا وعلى الشيطان، ويجعل ما نقوم به خالصاً لوجهه الكريم، بعيداً عن كل ألوان العصبية، وإرهاصات الحزبية، والانحياز إلا إلى الحق، مبتغين بذلك العدل والقسط والتجرد فيما نؤمن ونقول به ونعمل.

فما أصبت فيه فمن فضل الله، وما أخطأت به فمني ومن الشيطان.

---

(١) رواه مسلم.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

التمييز بين الدعوات ضرورة شرعية

ابتداءً قد يسأل بعض الناس لماذا نسمي الدعوة أحياناً بدعوة التوحيد، أو دعوة الكتاب والسنة، أو الدعوة السلفية، بدلاً من تسميتها باسمها الأصيل دعوة الإسلام؟

أقول: يا إخوتي، إن الاختلاف ليس موجوداً على الإطلاق، وليس هناك من فرق بين هذه المسميات الشرعية؛ فكلها تعني شيئاً واحداً، وهي دعوة الإسلام الحق.

فالتوحيد: يعني إفراد الله بالعبادة، وهو جوهر الإسلام، وقطب رحاه، وهو مادة دعوة الرسل قاطبة من نوح عليه السلام حتى نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكلمة التوحيد هي (لا إله إلا الله)، بها أرسل النبي ﷺ مبلغاً عن ربه عز وجل، وداعياً الناس إليها، فقال لهم: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا). خاتماً بهذه الرسالة رسالات من قبله من المرسلين، من الذين دعوا بهذه الدعوة، ووالوا الناس وعادوهم على أساسها. قال سبحانه: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل:٣٦].

وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء:٢٥].

وعقيدة التوحيد هي التي يجب أن تكون عقيدة كل مسلم آمن با لله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً.

وهي عقيدة أهل السنة والجماعة.

فالدعوة إلى التوحيد إذا هي الدعوة إلى الإسلام بعينه.

أما الدعوة السلفية: فهي نسبة إلى السلف الصالح من هذه الأمة، وهي تمثل عقيدة ومنهج خير القرون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، يقول الله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة: ١٠٠].

ففي اللغة: «السلف: من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السن والفضل»[١]، و«السلف: المتقدمون، وسلف الرجل: أبواه المتقدمان»[٢].

«والسلف الصالح، وهم الصدر الأول، الراسخون في العلم، المهتدون بهدي النبي ﷺ، الحافظون لسنته، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وانتخبهم لإقامة دينه، ورضيهم أئمة الأمة، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، وأفرغوا في نصح الأمة وفقههم، وبذلوا في مرضاة الله أنفسهم، قد أثنى الله عليهم في كتابه.. فيجب اتباعهم فيما نقلوه، واقتفاء آثارهم فيما عملوه، والاستغفار لهم»[٣].

ومن المعلوم بالضرورة أن سلف هذه الأمة هم أقرب الناس إلى منهج الكتاب والسنة علماً وعملاً.

وكذا ينطبق الحال بالنسبة لمسمى دعوة الكتاب والسنة، فهي دعوة الإسلام الحق، ومداره حول هذين الأصلين العظيمين من أصول الشريعة، وعليه حينما نطلق على الدعوة هذه التسمية، أو تلك، والتي تمثل منهجاً معيناً لها، فهذا لا يعني – في أي حال من الأحوال – أن تكون هناك دعوة، أو حتى اسم بديل لدعوة الإسلام، ولكن التخصيص والتمييز مطلوب، بل أراه واجباً، نظراً لابتعاد الكثير من الناس في زمننا عن المنهج الرباني

---

(١) لسان العرب، مادة سلف.

(٢) تحرير المقالة من شرح الرسالة.

(٣) القلشاني.

العظيم، والهدي النبوي الكريم، وشيوع الكثير من الأفكار الدخيلة والغريبة على الإسلام...

وما حل بهذه الأمة من تفرق واختلاف، وظهور لفرق وجماعات، يدعي كل منها الوصل بالإسلام، متهما غيره بالانحراف والبطلان، ولنفسه الحق والعرفان، ليس إلا نتيجة الفهم الخاطئ لدعوة الإسلام ولتحكيم الآراء والأهواء فيها، بدلاً من الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. ولقد تسبب هذا كله في وقوع الفتن في الأمة، مما زاد في اختلاط أفكارها، واضطراب مفاهيمها، وتفرق سبلها، وتشتت جمعها...

ونتيجة لذلك كان من الضروري بمكان أن تميز دعوة الكتاب والسنة عن غيرها من الدعوات اسماً وعقيدة ومنهاجاً، وكان لزاماً أن يوضح للناس حقيقتها البيضاء الناصعة، التي ليلها كنهارها، ومصدر قوتها الذي تستمده من جبار السموات والأرض، وفكرها الذي تستقيه من منبع الكتاب والسنة...

ومن الواجب أيضاً تعريف الناس بالطريقة التي تسير عليها، والعلامات التي تهتدي بها.

وكل ذلك من مسئوليات ومهام الدعاة إلى الله، من الذين تفضل الله عليهم بتعريفهم بهذه النعمة، واصطفاهم لهذا الأمر العظيم، وحم لهم هذه الأمانة الكبرى، التي أشفق من حملها السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها... وهذا العبء الثقيل الذي ينوء بالعصبة أولي القوة من الرجال.

فهذا إذا دورهم في كل زمان ومكان، دور الدعاة الصادقين المخلصين، من الذين أنعم الله عليهم بنعمة العلم والعمل، فنظروا إلى الدنيا، فلم يروها إلا قنطرة للعبور إلى الآخرة، فأعرضوا عنها، وأقبلوا على الله يبتغون وجهه الكريم...

وعلى الدعاة أن يعوا جيداً خطورة ما يجري الآن من فصل بين العقيدة والمنهاج، وأنا

أعتقد أن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث ونقاش مستفيضين. سأحاول - إن شاء الله - أن أتحدث عن هذا بالتفصيل في رسالة أخرى ...

ولكن لنا كلمة قصيرة في هذا الباب هي أن العقيدة والمنهاج كل لا يتجزأ، وأن العقيدة ترتبط بالمنهاج ارتباطاً وثيقاً ومتيناً... فإذا صحت العقيدة صح المنهاج... وبناء على ذلك، فلا يمكن أن نرى إنساناً عقيدته سلفية مثلاً، ومنهجه وولاؤه لغير منهج السلف الصالح، وهو منهج خير القرون... وإذا حصل هذا، فإنه سيؤدي - لا محالة - إلى خلط في الفهم، وغبش في الفكر، ولبس في الدعوة.. وكل ذلك سيكون سبباً آخر في ضياع الأمة وابتعادها عن سبيل ربها الذي ارتضاه الله لها... ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣].

التوحيد محور الدعوة

يقول الله تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ [الأعراف:٦].

فالدعاة إلى الله تعالى ملزمون بتبيين الحق للناس، وإرشادهم إلى طريقه السوي، فالله تعالى يقول: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾ [الأنفال:٤٢].

ويقول تعالى: ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ [آل عمران:١٣٨].

وهذا البيان، كما أسلفنا، مهمة الرسل وورثتهم من أهل العلم، فهم وحدهم القادرون على الأخذ بأيدي الناس إلى الله، ويذللون لهم طريق الوصول، ويميطون عنهم عوائقه وعوالقه من شبهات وشهوات، فمحور هذه الدعوة يجب أن يكون هو التوحيد، وكلمته الخالدة (لا إله إلا الله) .فعلى الدعاة إذاً أن يشمروا عن سواعدهم، ويشحذوا هممهم؛ لفهم التوحيد، ومن ثم تبليغه للناس. فالرسول الكريم ﷺ أمضى أكثر من نصف عمر دعوته يعلم الناس في مكة التوحيد، واستمر يدعو الناس بدون كلل أو ملل إلى هذه العقيدة المباركة، حتى تمكنت من نفوسهم، وخالطت بشاشتها القلوب.

وعندها فقط صاروا مستعدين كل الاستعداد لتلقي الأحكام والشرائع باستجابة مطلقة ولسان مقالهم: ﴿سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة:٢٨٥]. هذا هو منهج الدعوة الذي اتبعه الرسول ﷺ، أساس متين يتجسد بالتوحيد، وبناءً شامخ سامق يتمثل بكل تفاصيل الإسلام الأخرى.

وإليك أخي القارئ صوراً من دعوته عليه الصلاة والسلام، وهو يغلق الثغرات المفضية إلى الشرك، الواحدة تلو الأخرى، ساداً كل الذرائع المؤدية إليه، عالماً – وهو الذي لا ينطق عن الهوى – أن حال هذه الأمة لن ينصلح إلا بإقامة التوحيد، والقضاء على كل مظاهر الشرك والوثنية والضلال.

الصورة الأولى:

عن أبي واقد الليثي قال: ((خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط)، فمررنا بسدرة، قلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر، إنها السنن، قلتم، والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون﴾ [الآعراف:١٣٨]، لتركبن سنن من قبلكم))[١].

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على حرص النبي ﷺ على رعاية أمته، وإحاطتهم بطوق التوحيد، وخوفه عليهم من الوقوع في مهاوي الشرك والعبودية لغير الله: ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة:١٢٨].

ففي الحديث لم يطلبوا إلها يعبدونه من دون الله، وإنما طلبوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم؛

---

(١) رواه الترمذي، وصححه، وأحمد، وابن جرير، والطبراني في الكبير، وصححه الأرنؤوط في جامع الأصول.

ليتخذوا شجرة كما اتخذ المشركون شجرة؛ ليتبركوا بها، ويعلقوا عليها أسلحتهم، ويعكفوا عندها، ولكن النبي ﷺ ابتدأهم بقوله: (الله أكبر)، و«المراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان»، وبين أن ما يطلبونه هو الشرك بعينه.

وهنا نقف وقفة لنجول ببصرنا في حال الأمة هذه الأيام، وما استشرى فيها من مظاهر الشرك والوثنية من عبادة قبور، وتوسل بصالحين وأشجار ومخلوقات خلقها الله العظيم الشأن، إلى تحكيم قوانين وشرائع ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو قارنا بين ما جاء في الحديث، وما آل إليه حال كثير من مسلمي هذا الزمان، لأيقنا عظم ما يصنعون، وخطورة ما يرتكبون والله تعالى يقول: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء:٤٨].

الصورة الثانية :

عن الثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟) قالوا: لا، قال: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟) قالوا: لا، فقال رسول الله ﷺ: (أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم)[١].

وهذه صورة أخرى من صور تربية النبي ﷺ أصحابه رضوان الله تعالى عليهم على التوحيد، وتحذيره إياهم من الشرك والوقوع فيه.

ففي الحديث نذر رجل أن ينحر إبلاً في بقعة من الأرض، وهي كما قال البغوي: موضع أسفل مكة دون يلملم . ناذرا إياها لله تعالى، ولكن النبي ﷺ حفظاً لحمى التوحيد،

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الحافظ في التلخيص، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ورقمه: ٢٥٤٨.

وصيانة له، نهى أن يوفي بالنذر «إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله»[1]، وألا يكون فيه عيد من أعياد الجاهلية في الماضي أو في الحاضر؛ لئلا تختلط النيات، ويقع في القلب ما يفسد التوحيد، فيؤدي إلى إحباط العمل؛ فإن الشرك يعد أعظم محبط للأعمال، يقول الله تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ [الزمر:٦٥]، ويقول تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ [الأنعام:٨٨].

فالعبادة ينبغي أن تكون خالصة لله وحده، غير مختلطة بشائبة من شوائب الشرك، صغيرة كانت أم كبيرة. فانظر يا أخي إلى أهمية التوحيد ومعرفته، «فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به، وبما يخلصه منه من العلم بالله، وبما بعث به رسوله من توحيده والنهي عن الشرك به»[2].

ولذا قال إبراهيم التيمي: من يأمن البلاء بعد إبراهيم، حيث قال: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ [إبراهيم:٣٥] [3].

الصورة الثالثة:

الحديث الطويل عن ثوبان، رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)[4]، الحديث.

ويقول النبي ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي

---

(١) فتح المجيد: ١٨٤.

(٢) فتح المجيد: ٩٣.

(٣) فتح المجيد: ٩٣.

(٤) رواه مسلم.

الخلصة)[١]، قال: (وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية)[٢].

فهذا تحذير بليغ من لدن نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو من معجزاته البينات أن الشرك واقع في الأمة، وأن الناس سيعودون إلى جاهليتهم. وهذا يدعونا إلى الاهتمام بأمر التوحيد دراية ورعاية،والحذر من الوقوع في الشرك.

فهذه بعض من صور دعوته عليه الصلاة والسلام، يتضح من خلالها بجلاء أهمية التوحيد الذي هو محور هذه الدعوة ومادتها، فعلى كل الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان أن يعتبروا بسيرة النبي ﷺ في ما يخص دعوته، وينظروا إلى وصيته عليه الصلاة والسلام، قال ابن مسعود :؛ من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣] الآية.

فعلى الدعاة إذاً أن يبدأوا بدعوة الناس إلى التوحيد، كما ابتدأها عليه الصلاة والسلام، فكما أننا مأمورون باتباع النبي ﷺ، واقتفاء أثره في كل شئون حياتنا، فحري بنا أن نتابعه عليه الصلاة والسلام في منهج دعوته، ونبدأ بما بدأ به، ولا نحيد عن ذلك قيد شعرة، وأن لا نجعل أنفسنا أوصياء على الدعوة، ونقرر لها أصولاً وقواعد جديدة، فنقدم أشياء، ونؤخر أخرى، فنجعل التوحيد أمراً ثانوياً، أو كما يحلو لبعضهم تسميته أمراً فرعياً، جهلاً بدعوة الرسول ﷺ تارة، وبحجة مصلحة الدعوة تارة أخرى.

---

(١) متفق عليه.

(٢) ولقد حدث ما نبأ به عليه الصلاة والسلام، فلقد اضطربت أليات نساء دوس على ذي الخلصة من جديد في تبالة في الجزيرة العربية، ولكن الله تعالى قيض من يكسر هذا الصنم في دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فهدموه وأعدموه وقرروا التوحيد في تبالة وبينوه. راجع كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد، للعلامة المحقق عثمان بن بشر النجدي.

فالمصلحة الحقيقية الشرعية باتباعه عليه الصلاة والسلام، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وعدم تقديم أي قول، أو عمل، أو رأي، أو قياس، أو استحسان بين يديه، فعلينا بالانقياد والتسليم التامين له، ومتابعته في كل جزئية من جزئيات هذا الدين، فلا نأخذ ما نشتهي ونرغب به؛ إرضاء لعقولنا، ومجاراة لأهوائنا، ونترك ما سوى ذلك، متناسين قوله تعالى:﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر:٧]، وقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء:٦٥].

فمنهج الدعوة إذاً هو أمر توقيفي، لا يحق لأحد التلاعب به، أو الالتفاف عليه، لأي سبب كان...

والمعرضون عن هذه الدعوة، والمخالفون لها، لهم أسبابهم التي اعتادوا أن يتذرعوا بها، ولكنها - مع الأسف - أسباب واهية، وحجج ضعيفة، لا تصلح لأن تكون مبرراً سائغاً لفعلهم هذا... فبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا ... فلنطلع على شبه أخرى طالما ترددت على ألسنتهم، وحفلت بها مجالسهم.

يزعمون أن الناس في يومنا هذا ليسوا كما كانوا عليه أيام النبي ﷺ، وأن الحديث عن العقيدة والدعوة إلى التوحيد، يثير حفيظة الكثيرين ممن تربوا على الجهل، واعتادوا على البدع، واستغرقوا في الضلالات، وأن مثل هذه الموضوعات؛ (أي الدعوة إلى التوحيد، وإلى إحياء سنة النبي ﷺ) لا تجد في وقتنا الحاضر آذاناً صاغية، وقلوباً مفتوحة، مما قد يؤدي إلى نفورهم وابتعادهم وإعراضهم، فتحصل بذلك مفسدة وفتنة عظيمة - على حد زعمهم - هي أعظم من مصلحة دعوتهم إلى مثل هذه الأمور.

أقول: لقد وقعت المفسدة، وحلت الفتنة فعلا، ولكن بسبب إهمال العقيدة، وعدم التأكيد عليها في مجال الدعوة، وبسبب اعتبار التوحيد أمراً هامشياً ليس ذا بال... وإني

لأعجب والله لمن يجعل الحديث عن عقيدة التوحيد، ونهي الناس عن الشرك، والأسباب المفضية إليه، ضرباً من ضروب إثارة الفتنة والفرقة بين المسلمين. وكذلك من يدعو إلى سنة النبي ﷺ، وينهى عن البدع والخرافات والضلالات يتهم هو الآخر بأنه مسعر فتنة، ومفرق صف...

ولا أدري إن كان التوحيد واتباع السنة مدعاة إلى الفرقة والفتنة بين الناس، فهل الشرك والبدعة تجمعهم؟ فنعم الجمع من يجتمع على الهدى والحق، وإن قلوا، وبئس الجمع من يجتمع على الجهل والضلالة، وإن كثروا.

ومن الشبه الأخرى التي يتناقلها هؤلاء أن بعض الدعاة إلى هذا المنهج المبارك يخطئون في أسلوب دعوتهم، مما يفضي إلى إثارة الآخرين، وصدهم عن السبيل.!..

أقول: إن كان هذا الأمر موجوداً في بعض الدعاة فعلا،- وهذا ممكن حصوله في كل زمان ومكان - فالعيب فيهم، وليس في الدعوة ذاتها... فالذي ندين به في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥]، فالإحسان إلى الناس، والرفق بهم، وإنزالهم منازلهم، واستخدام الأسلوب الأمثل في إقناعهم، وجلبهم إلى جادة الصواب، أمر واجب ندعو إليه، ونذكر إخوتنا بالتحلي به، والتأكيد عليه.

والتشبث بالمسلك الخطأ في أسلوب الدعوة ليس سبباً مشروعاً يستدعي الإحجام عنها، والتنكر لها، وأحياناً محاربتها؛ فإن كان غيرك يخطئ، فاحرص بدورك أن لا تكرر الخطأ نفسه، وأقبل على دعوة التوحيد، وتمسك بكتاب ربك، وسنة نبيك عليه الصلاة والسلام، وذر ما تبقى من مناهج وأفكار لا تجعل العقيدة هدفا، ولا منهج النبي ﷺ سبيلاً...

وإلى كل من لا يزال في قلبه شيء من الشك، فيما ذكرناه، أسوق كلام سيد قطب رحمه الله، حيث يقول:

((هناك حقائق من طبيعة منهج هذه الدعوة، التي لا يجوز للدعاة الاجتهاد فيها، وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين ولا يخفوا منها شيئاً، وألا يؤجلوا منها شيئاً.

وفي مقدمة هذه الحقائق أنه لا ألوهية إلا لله، فهذه الحقيقة الأساسية يجب أن تعلن أياً كانت المعارضة والتحدي، وأياً كان الإعراض من المكذبين والتولي، وأياً كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك، وليس من الحكمة والموعظة الحسنة إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجيله))[1].

ويقول – رحمه الله –: ((وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم، ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق، وعن الفاصل بين حقهم وباطلهم، حين يفعل صاحب الدعوة هذا مراعاة للظروف والملابسات، وحذراً من مواجهة الناس بواقعهم الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم، فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم؛ لأنه لم يعرفهم حقيقة المطلوب منهم كله، وذلك فوق أنه يكون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه.

إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية؛ لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها، إن الحقيقة يجب أن تبلغ كاملة، أما الأسلوب فيتسع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة))[2].

---

(١) الدعوة في ظلال القرآن.

(٢) الدعوة في ظلال القرآن.

ويقول -رحمه الله- في موضع آخر:

((إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تحجم، إنها يجب أن تبلغ كاملة فاصلة، وليقل من شاء من المعارضين كيف يشاء، وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل، والمطلوب هو عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة، وعدم اللقاء في منتصف الطريق في الحقيقة ذاتها، فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنصاف حلول))[1]. أ.هـ.

فمن أراد جمع الصف ولم الشمل، فعليه أن يعتنق هذه الدعوة عقيدة ومنهجاً، وينتبه إلى أن هدف الدعوة الحقة لا ينبني على تجميع الناس على ما فيهم من أخطاء والخرافات، ولو كان في هذا السبيل خير، لسلكه خير الناس؛ نبينا محمد ﷺ، ولفكر في تجميع الناس أولا، ومن ثم الانتقال إلى مرحلة التغيير - كما يسميها البعض - ثانيا .

وكل قول وعمل متعلق قبوله بإخلاصه لله تعالى، وبموافقته لسنة النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحد﴾ [الكهف: ١١٠].

أما الاهتمام بإكثار العبادة، من غير الالتفات إلى هذين الأصلين العظيمين، فهو لا يجدي نفعاً عند الله يوم القيامة، فالخوارج كانوا أكثر الناس عبادة، فلم ينفعهم ذلك في شيء، بل أمر النبي ﷺ بقتلهم، وقال: (إن في قتلهم أجراً)، الحديث، يقول الله تعالى: ﴿قل هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

والذي يزعم أن الناس في غنى عن التوحيد، وكلهم موحدون، بمجرد قولهم لا إله إلا الله، محمد رسول الله، من غير علم بمعناها، وعمل بمقتضاها، فهو واهم أشد الوهم،

---

(١) المصدر السابق.

ومخطئ أشد الخطأ؛ فإن كان الاعتقاد بأن الإقرار بوجود الله وإثبات أفعاله هو كل ما يحتاج إليه المسلم؛ ليكون موحداً لله، فهذا هو الجهل بعينه، ودليل الفهم الخاطئ للعقيدة.

فالإقرار بتوحيد الربوبية من خلق ورزق وتدبير وغيرها كان يقر به مشركو الجاهلية، والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان:٢٥]، وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ [الزخرف:٨٧].

فلم ينقذهم ذلك من الشرك؛ لأنهم أغفلوا الجانب الآخر من التوحيد، وهو توحيد الألوهية، فعبدوا غيره، واتخذوا له شركاء وأنداداً ووسائط، يزعمون أنها تقربهم إلى الله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر:٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان عن أهل الكفر، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما، مع ظنهم أنهم في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة، فإقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله، إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأن محمداً رسول الله، فيجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر))[1].

وبنظرة فاحصة إلى حال المسلمين اليوم ندرك الخلط الحاصل لهذا الفهم أعلاه، ونعلم أهمية التوحيد في حياة الأمة، ودوره في بناء المجتمع الإسلامي، وما مظاهر الشرك والبدع

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢/١٠٤-١٠٥.

والخرافات والضلالات التي ابتلي بها كثير من الناس في هـذا الزمـان إلا دليـل علـى هـذه الأهمية. فعلينا الرجوع إليه إذاً، وفهمـه فهمـاً صحيحـاً، مسـتندين بذلـك إلى كتـاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وتأكيداً لهذه الحقيقة اسمع معي أخي إلى هذه الكلمات البليغة عـن إمام من أئمة الموحدين، يصور بها حال الناس في القـرن السـابع الهجـري، فكيـف بزماننـا هذا.

قال ابن القيم رحمه الله : ((إنه لا يجوز إبقاء مواضـع الشـرك والطواغيـت، بعـد القـدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنـذر، لا يجـوز إبقـاء شـيء منهـا على وجه الأرض، مع القدرة على إزالتها. وكثير منهـا بمنزلـة الـلات والعـزى والمنـاة، أو أعظم شركاً عندها وبها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سـبيلهم حـذو القـذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس؛ لظهور الجهـل، وخفـاء العلـم، وصـار المعـروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، وطمسـت الأعـلام، واشـتدت غربـة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشـتد اليـأس، وظهـر الفسـاد في البر والبحر بما كسبت أيـدي النـاس. ولكـن لا تـزال طائفـة مـن العصابـة المحمديـة بـالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومـن عليهـا، وهـو خـير الوارثين))[1] . أ.هـ ملخصاً.

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعد أعظم فساداً كما هو الواقع.

توحيد الحاكمية

دأب بعض الإخوة على استخدام هذا اللفظ (توحيد الحاكمية) إذا أرادوا الحديث عـن موضوع الحكم بما أنزل الله تعالى.

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ٣٢٨.

أقول: إن أهل العلم تحدثوا عن أنواع التوحيد المعروفة وهي ثلاثة :

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، ولم نعهدهم استخدمو مثل هذا المسمى المذكور. وقد يعترض البعض فيقول: وما المانع في هذا إذالم يكن في الأمر محذور شرعي.؟..

أقول: إن موضوع الحاكمية قد تضمنته أنواع التوحيد المذكور، وهذا أمر لم يكن ليخفى على أهل العلم الأوائل. فالتشريع من خصائص الربوبية، والحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه من لوازم الألوهية. فلنلتزم يا إخوتي استخدام الألفاظ الشرعية التي اعتاده سلفنا الصالح، ومن سار على هداهم، واتبع طريقتهم إلى يوم الدين، وليسعنا ما وسعهم ولنقف حيثما وقف القوم، ولنتذكر دائماً قول عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ((اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم)).

لزوم البحث عن الحق واتباعه

لقد وقعت الفتن في الأمة كما أخبر عنها الصادق المصدوق النبي ﷺ حينما قال (بادروا بالأعمال الصالحة، فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1].

فلقد تحققت نبوءة النبي ﷺ، وهو الذي لا ﴿ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم:٣-٤]؛ حلت المصائب بالأمة، وادلهمت بها الخطوب، وأحاطت بها الفتن كقطع الليل المظلم الحالك السواد، الشديد الظلمة.. فتن في كل شيء؛ في الدين والدنيا، في العقيدة والمنهاج، في الفكر والدعوة... ظلمات بعضها فوق بعض..

---

(١) رواه مسلم والترمذي واللفظ له.

ومن هنا وجب على كل من عنده مسكة عقل، أو ذرة من فهم، أن يسارع بالخروج منها، والبحث عن أي بصيص من نور؛ ليتبعه، ويقتبس منه.

فإذا فعل ذلك، فسيجد العبد نفسه سالكا لسبيل الله القويم، وصراطه المستقيم...

وكلنا يعلم أن هذا الأمر لا يتم له، ولا يوفق إليه، ولو وقفت الدنيا كلها معه، إلا بإعانة الله له، وهدايته إياه، ولذا فنحن ندعو الله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، ونسبقها بقولنا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحة:٥].

ولو نظر الناظر، لأول وهله، إلى ذلك الخضم المتراكم من الأحزاب، والجماعات، والفرق، والملل والنحل، وإلى ذاك البحر المتلاطم، من التيارات الفكرية المتصارعة، والأفكار المتضاربة، لهاله ما يرى، ولأخذته الحيرة الشديدة، ولهوى بنفسه إلى هوة سحيقة من التقلب والارتباك، ماذا يفعل؟... مع من يكون...؟ ومن يختار...؟ فكلهم يدعي الحق والصواب.

وكما قال الشاعر:

وكل يدعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

وفي هذه اللحظات الحرجة التي تنتاب العبد يحتار فهمه، ويضطرب حاله، ويجد نفسه مجرداً تماماً من أي حول أو قوة، فإذا بيد الله تعالى تمتد إليه؛ لتنتشله مما هو فيه، ما دام راغباً بالحق، باحثاً عنه، فتملأ قلبه الطمأنينة، وتغشاه السكينة، وتسعه رحمة الله التي وسعت كل شيء، ثم لتنقله من عالم التيه والحيرة والضياع إلى عالم الخير والمعرفة والرشاد، ومن أجواء الظلمة والعتمة والسواد إلى أنوار الله التي تستنير بها القلوب، وتشرق لها النفوس، يقول الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ [البقرة:٢٥٧].

ويقول الله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام:١٢٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: ((فجمع الله بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتاب بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافراً ضالاً فهديناه.

وقوله: ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ [الأنعام:١٢٢] يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل، فضلوا، ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق، ويراها، ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره، فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم))[١]. أ.هـ.

والشأن كل الشأن، والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فوته، ولهذا كان النبي ﷺ يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه، وعظامه، وعصبه، وشعره، وبشره، وسمعه، وبصره، ومن فوقه، ومن تحته، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه، وأمامه، حتى يقول: (واجعلني نوراً)[٢].

فسأل ربه – تبارك وتعالى – أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته، وأن يجعل ذراته وجملته نوراً، فدين الله عز وجل نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدها لأوليائه نور تتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ((ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات من نور وجهه)). ذكره عثمان الدارمي. وقد قال الله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ [الزمر:٦٩].

---

(١) الفوائد: ٩٠.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

فإذا جاء - تبارك وتعالى - يوم القيامة للفصل بين عباده، وأشرقت بنوره الأرض، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر، فإن الشمس تكور، والقمر يخسف، ويذهب نورهما، وحجابه - تبارك وتعالى - النور، قال أبو موسى: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: (إن الله لا ينام، يخفض القسط ويرفعه، ي رفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1]، ثم قرأ: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ [النمل:٨][2].

فإذا يا أخي لا تيأس من رحمة الله، وأحسن الظن به، وتوكل عليه، وخذ بأسباب البحث والعمل والمعرفة، حتى تجد ضالتك.. واسأل الله العظيم أن يحيطك بنوره، ويرزقك إياه، فيستنير قلبك، ويستضيء دربك؛ لتهنأ حياتك، وتسعد آخرتك، وذلك هو الفوز العظيم.

رحمة الله وسعت كل شيء

١- الله الذي خلقنا أعلم بنا، وأرحم بنا من أنفسنا، ولن يتركنا في حيرة وضياع من غير أن يهدينا إلى سبيل معرفته، والإيمان به:

يقول الله سبحانه: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك:١٤].

فالله سبحانه أعلم بنا وبما نحن عليه من ضعف وفقر وفاقة وحاجة لمعرفة الحق، وإنه سبحانه - وهو الرحيم بعباده - ما خلقنا ليتركنا هملاً تائهين ضائعين حائرين، نبحث عن الحق فلا نجده.. ولن يترك الله سبحانه عباده المخلصين والصادقين؛ لتتقاذفهم أمواج الجهل والضلالة من غير أن يمد لهم حبل النجاة، وليوصلهم إلى شاطئ السلامة بأمان..

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه.

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية: ص٧٣-٧٤.

فرحمة الله وسعت كل شيء، يقول الله تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف:١٥٦].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى؛ إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟) قلنا: لا والله، فقال: (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[١].

ولقد كانت البداية حينما أشهدنا الله على أنفسنا، ونحن في صلب آدم، فأخذ منا الميثاق أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون. وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٤].

ولقد سمى بعض أهل العلم هذا الميثاق بـ ((ميثاق الفطرة)).

يقول ابن كثير رحمه الله: ((يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة) وفي رواية: (على هذه الملة، فأبواه يهودانه وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي)[1].

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا﴾ إلى قوله ﴿المبطلون﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] [2][3].

٢- سلامة الفطرة وفسادها :

ولكن هذه الفطرة قد تحافظ على سلامتها، إذا بقيت بعيدة عن أيدي العابثين، وإذا وجدت البيئة الملائمة بإذن الله، وقد تكون عرضة للتغيير والإفساد - كما في حديث أبي هريرة آنف الذكر - وبفسادها سيخسر الإنسان رصيداً مهماً وكنزاً مدخراً يعينه على معرفة ربه والإيمان به.

٣- من رحمة الله تعالى أنه لم يقم الحجة على الناس إلا بعد إرسال الرسل:

من رحمة الله بعباده التي وسعت كل شيء وبحكمته البالغة أنه لم يجعل الفطرة سبيلاً أوحد للوصول إلى الحق، وإنما أرسل رسله تترى، وعلى مر الزمان؛ ليبينوا لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليفصلوا وليذكروا بما في الفطرة، وبما واثقوا الله عليه من ميثاق فطرة،

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، قال الألباني: صحيح لطرقه وشواهده، وهو مخرج في الأحاديث الصحيحة: ١٦٢٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤١٤/٢ وباختصار.

وبذا تقوم الحجة على الناس كاملة، يقول الله تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء:١٦٥].

((فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها لكمال خالق هذا العالم، وتنزيهه من العيوب والنقائص، وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها، وكذلك في الفطرة الإقرار بسعادة النفوس البشرية وشقاوتها، وجزاؤها بكسبها في غير هذه الدار، وأما تفصيل ذلك الجزاء والشقاوة، فلا تعلم إلا بالرسل، فالرسل تذكر بما في الفطرة وتفصله وتبينه، وبهذا كان العقل الصريح موافقاً للنقل الصحيح، والشرعة موافقة للفطرة، يتصادقان ولا يتعارضان))[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((فإنه سبحانه قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ [الإسراء:١٥]، وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقبيحاً، وكان شراً، لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسل))[2].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: (ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين)[3].

٤- نور الفطرة ونور الوحي:

لقد أشرنا إلى أن الله سبحانه أوجد نور الفطرة في عبده المؤمن؛ ليستعين به على معرفة الحق، ولكن هذا النور سيبقى ضعيفاً خافتاً، بل عاجزاً عن الوصول إليه من غير أن يمتزج بنور آخر، وهو نور الوحي، فيكون بذلك نوراً قوياً ساطعاً، ينير للمؤمن دربه، ويعينه على معرفة ربه، ويهديه سواء السبيل.

---

(١) سمى بعض أهل العلم هذه الحجة بـ (الحجة الرسالية).

(٢) شفاء العليل، لابن قيم الجوزية.

(٣) مجموع الفتاوى: مجلد ١١.

يقول الإمام ابن القيم، في معرض كلامه عن آية سورة النور: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ [النور:٣٥]: وهكذا المؤمن قلبه مضيء، يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي، وباشرت قلبه، وخالطت بشاشته، فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثر، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته، فيكون نوراً على نور، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملاً، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلاً، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة))[1].

الدعوة إلى الكتاب والسنة دعوة إلى الله ورسوله

١- الاعتصام بالكتاب والسنة:

عقد البخاري، رحمه الله، في كتابه؛ صحيح البخاري ((كتابا سماه كتاب ؛ الاعتصام بالكتاب والسنة)). قال ابن حجر رحمه الله: ((الاعتصام: افتعال من العصمة، والمراد امتثال قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ [آل عمران:١٠٣] الآية.

قال الكرماني: هذه الترجمة منتزعة من قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾؛ لأن المراد بالحبل: الكتاب والسنة على سبيل الاستعارة، والجامع كونهما سبباً للمقصود، وهو الثواب والنجاة من العذاب، كما أن الحبل سبب لحصول المقصود به من السقي وغيره. والمراد بالكتاب: القرآن المتعبد بتلاوته، والسنة: ما جاء عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب: ٧٧.

وتقريره وما هم بفعله.. والسنة في أصل اللغة: الطريقة، وفي اصطلاح الأصوليين والمحدثين: ما تقدم، وفي اصطلاح بعض الفقهاء ما يرادف المستحب.

قال ابن بطال: ((لا عصمة لأحد إلا في كتاب الله وفي سنة رسوله، أو في إجماع العلماء على معنى في أحدهما))(١).

٢- طاعة الله وطاعة رسوله :

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ [النساء:٥٩].

قال عطاء بن رباح: ((إلى الله: أي كتاب الله، والرسول: أي سنة الرسول ﷺ))

قال ابن القيم: ((فأمر بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل؛ يعني قوله: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ إعلاماً بأن طاعته تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر، وجب طاعته مطلقاً، سواء كان ما أمر به في الكتاب، أو لم يكن فيه، فإنه ((أوتي الكتاب ومثله معه)) ولم يأمر بطاعة أولي الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم في ضمن طاعة الرسول...))(٢).أ.هـ.

ومن المتفق عليه عند العلماء أن الرد إلى الله إنما هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته، وأن ذلك من شروط الإيمان))(٣).

٣- حياة القلوب وسعادة النفوس مرهونة بدعوة الكتاب والسنة:

---

(١) فتح الباري: ١٣/٢٤٥-٢٤٦.

(٢) أعلام الموقعين: ١/٥٤.

(٣) الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام، للألباني.

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ [الأنفال: ٢٤].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فلقد تضمنت هذه الآية أموراً:

أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات، وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ.

فإن كل ما دعا إليه فيه الحياة بحسب ما استجاب للرسول، قال مجاهد: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة، وقال السدي وعروة بن الزبير، واللفظ له: ﴿لما يحييكم﴾ يعني: للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم، وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً.

قال الواحدي: «والأكثرون على أن معنى قوله ﴿لما يحييكم﴾ : هو الجهاد.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ، وفي الآخرة، أما في الدنيا: قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد، وأما في البرزخ، فقد قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وأما في الآخرة، فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرها. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لما يحييكم﴾ : يعني الشهادة. وقال بعض المفسرين: ﴿لما يحييكم﴾ : يعني الجنة، فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة والطيبة، حكاه أبو علي الجرجاني.

والآية تتناول هذا كله؛ فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة

الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان، وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة»[1] أ.هـ.

٤- بالكتاب والسنة تخلص الأمة مما تعانيه من ضعف وفرقة واختلاف:

لقد أسلفنا أن الفتنة واقعة في الأمة، وكذا الفرقة والتنازع والاختلاف، وما كان ذلك ليحصل لولا ابتعاد الناس عن دينهم، ونتيجة لذلك فقدت الأمة المسلمة مكانتها بين الأمم، وضاعت هيبتها، وأفل نجمها، ودب فيها الضعف والهوان، وصارت فريسة سهلة ينهش بها الأعداء من كل جانب، وأضحت أمة منقادة وتابعة لغيرها، بعد أن دان لها العالم بأسره لقرون مضت.

وصدق فيها قول النبي ﷺ: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها).

فقال قائل:ومن قلة نحن يومئذ؟ قال:(بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)[2].

صدقت يا رسول الله، عليك أفضل الصلاة والتسليم، لقد حل بنا ما كنت تخشاه، أقبلنا على الدنيا، وأعرضنا عن الآخرة، فسلط الله علينا عدونا، وذلاً لن ينزعه عنا حتى نرجع إلى ديننا الذي ارتضاه الله لنا، حيث قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة:٣].

وسيظل هذا الضعف يلازمنا، وهذا الذل يراودنا، وسيظل أعداؤنا يطمعون فينا،

---

(١) الفوائد: ٨٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود.

ويتمنون زوالنا، وذهاب ما تبقى من مجدنا وماضي عزنا، حتى نعود إلى الله ورسوله، ونتحاكم إلى الكتاب والسنة، فنجعلهما منهجاً لحياتنا، لا نحيد عنهما قيد أنملة، ونتخذهما منبعاً ثراً لا ينضب أبداً، نستقي منه كل ما يتعلق بشؤون ديننا ودنيانا. فإذا فعلنا ذلك نكون قد وضعنا أيدينا على الحل الأمثل لمشكلاتنا، ووجدنا العلاج الشافي لكل أدوائنا، ونرجع كما كنا ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران:١١٠] متى يا رب؟

﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران:١١٠].

والإيمان بالله لا يكون بالقلب واللسان فقط كما يعتقد البعض، وإنما إيمان حقيقي يتضمن الاعتقاد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح. وعندها فقط ستتبوأ أمتنا من جديد مكانتها السامقة بين الأمم، ويكون لها قصب السبق في كل مجال من مجالات الحياة، فيتحقق بذلك الأمل المنشود الذي طال انتظاره، ولنسترد مجداً مفقوداً ما ضيعناه إلا بعدنا عن ربنا، وتنكبنا لصراطه المستقيم، وإعراضنا عن كتابه وسنة نبيه ﷺ، وصدق الشاعر إذ يقول:

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

والذئب لا يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضا عيانا

٥- نصوص من الكتاب والسنة توجب التحاكم إلى الله ورسوله، وتبين أن النجاة والملجأ من التفرق والفتن والاختلاف بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم:

يقول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ [النساء:٥٩].

ويقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤] [١].

ويقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ [الحجرات: ١].

أي إنه لا يجوز التقدم بين يدي الرسول ﷺ، كما لا يجوز التقدم بين يدي الله تعالى، وهو كناية عن عدم جواز مخالفة سنته ﷺ [٢].

قال الإمام ابن القيم: ((أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمراً حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضي)) [٣].

ونصوص القرآن الكريم كثيرة في هذا الصدد، وإليك بعض نصوص السنة النبوية المباركة:

١- عن أبي نجيح، العرباض بن سارية، رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) [٤].

٢- عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (تركت فيكم شيئين لن

---

(١) راجع ما سبق حول هاتين الآيتين الكريمتين.

(٢) الحديث حجة بنفسه، للألباني.

(٣) أعلام الموقعين: ١/٥٨.

(٤) رواه أبو داود، والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

تضلوا بعدي ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يرداً علي الحوض)[1].

فالهدى كل الهدى إذاً بالتمسك بهذا النور المبين، والهدي القويم، وهما الكتاب والسنة، والضلال والبعد والخسران بتركهما، والصدوف عنهما، والرضا بغيرهما بديلاً.

٣- عن أبي عامر، عبدالله بن لحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة، قام حين صلى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلب بصاحبه، ولا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به)[2].

شرح الحديث

«وذلك أن معنى الرواية أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما سيكون في أمته من هذه الأهواء التي افترقوا فيها إلى تلك الفرق، وأنه يكون فيهم أقوام، تدخل تلك الأهواء قلوبهم، حتى لا يمكن في العادة انفصالها عنها وتوبتهم منها، على حد ما يدخل داء الكلب جسم صاحبه، فلا يبقى من ذلك الجسم جزء من أجزائه، ولا مفصل ولا غيرهما إلا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج، ولا ينفع فيه الدواء، فكذلك صاحب الهوى، إذا دخل قلبه، وأشرب حبه، لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترث بمن خالفه»[3].

---

(١) أخرجه مالك مرسلاً، والحاكم مسنداً، وصححه الألباني.

(٢) صححه أو حسنه: أبو داود، والحاكم، والذهبي، والعراقي، وابن حجر، وذكره ابن تيمية، والألباني.

(٣) الاعتصام، للشاطبي: ٢/٢٦٨.

((وذلك قوله تجارى بهم تلك الأهواء، فدل على أن كل خارج عما هو عليه وأصحابـ إنما خرج باتباع الهوى عن الشرع))[1].

((وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى، فإن أصل الكلب واقـع بـالكلب، ثـ إذا عض ذلك الكلب أحداً صار مثله، ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكـ فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وأشكاله، فقلما يسلم من غائلته، بـل إما أن يقـ معه في مذهبه، ويصير من شيعته، وإما أن يثبت في قلبه شكاً يطمع في الانفصال عنـه، فـ يقدر. هذا بخلاف سائر المعاصي، فإن صاحبها لا يضاره ولا يدخله فيها غالباً إلا مع طـو الصحبة والأنس به، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتى في الآثار ما يدل على هذا المعنـ فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم ومكالمتهم، وكلام مكالمهم، وأغلظوا في ذلك، ومـ ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: ((من أحب أن يكرم دينـه، فليعتزل مخالطة الشيطانـ ومجالسة أصحاب الأهواء، فإن مجالستهم ألصق من الجرب))[2].

وإليك أخي القارئ هذه القصة العجيبة التي تروي حرص السلف الصالح على مجانبـ أهل البدع والأهواء وخشيتهم من مخالطتهم، بل حتى مجرد السماع منهم:

((وعن أيوب قال: دخل رجل على ابن سيرين فقال: يا أبا بكر، أقرأ عليك آية مـ كتاب الله، لا أزيد أن أقرأها، ثم أخرج؟ فوضع أصبعه في أذنيه (أي ابن سيرين)، ثـ قال: أعزم عليك إن كنت مسلماً إلا خرجت من بيتي، فقال: يا أبا بكر، لا أزيد على أ أقرأ آية ثم أخرج، فقام لإزاره يشده، وتهيأ للقيام، فأقبلنا على الرجل، فقلنا: قد عـز عليك إلا خرجت...

قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر ! ما عليك لو قرأ عليك آية ثم خرج؟ قال: إني والله لـ

---

(١) المصدر السابق: ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق: ٢٧٧-٢٧٨.

ظننت أن قلبي ثبت على ما هو عليه ما باليت أن يقرأ، ولكن خفت أن يلقى في قلبي شيء أجهد في إخراجه من قلبي فلا أستطيع.

وعن الأوزاعي قال: لا تكلموا صاحب بدعة من جدل، فيورث قلوبكم من فتنته))[١].

٤- عن عوف بن مالك: قال: قال رسول الله ﷺ: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار)، قيل: يا رسول الله، فمن هم ؟ قال: (الجماعة)[٢].

٥- عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من يأتي أمه علانية، لكان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار، إلا ملة واحدة). قالوا: ومن هي يا رسول الله ؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)[٣].

٦- قال رسول الله ﷺ: (بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء)[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: (طوبى للغرباء، أناس من أمتي صالحون في أناس سوء كثير،

---

(١) المصدر السابق: ٢٨٠.

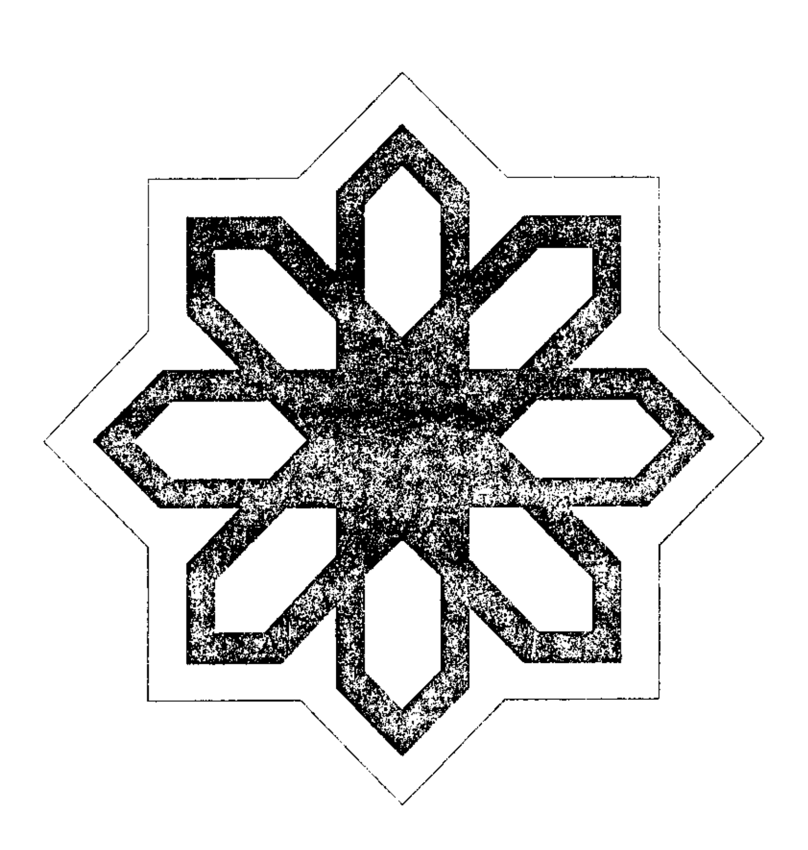
(٢) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٨٠/٣.

(٣) حسن بشواهد كثيرة، حسنه الترمذي، ونقل عنه ذلك العراقي، وابن تيمية، حيث احتج به.

(٤) رواه مسلم.

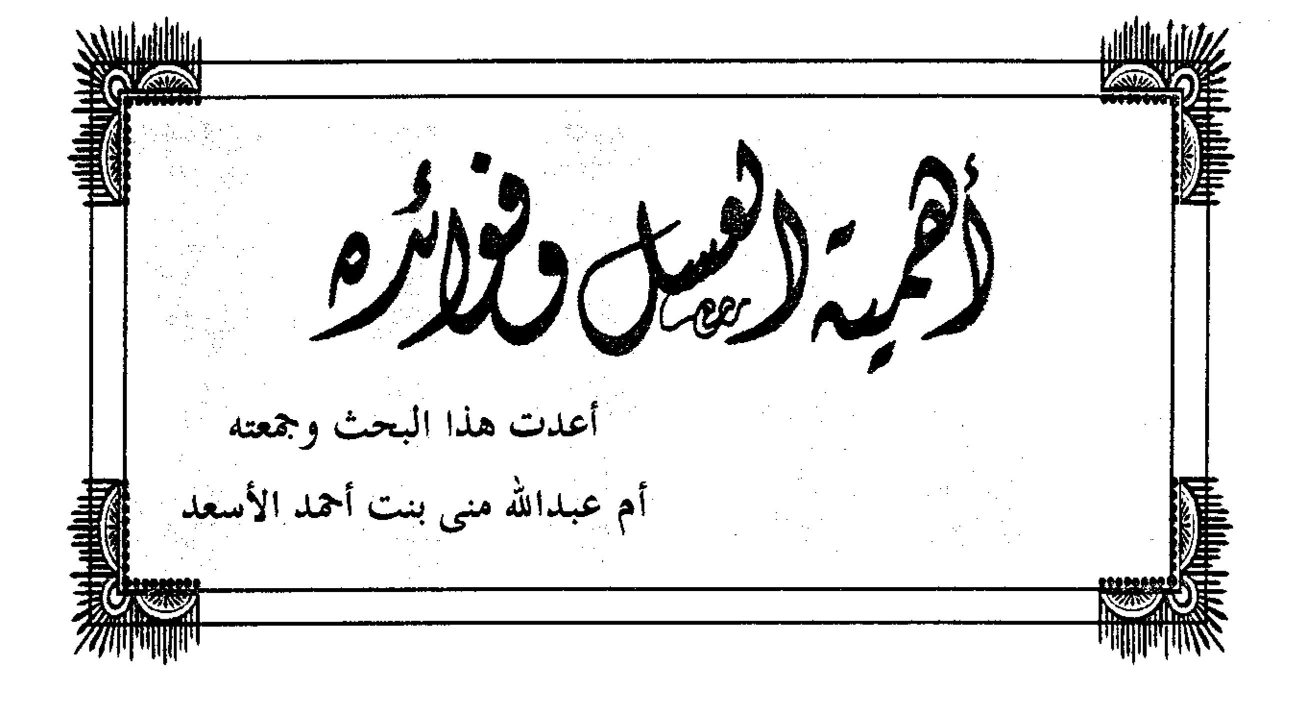
من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: (طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها)[2].



(١) صحيح – صحيح الجامع: رقمه: ٣٩٢١.

(٢) حسن – صحيح الجامع: رقمه: ٣٩١٨.



النحل والعسل في القرآن

ذكر الله سبحانه وتعالى النحل والعسل الذي يخرج منه ذكراً جميلاً في القرآن الكريم، الذي أنزله رب العالمين رحمة وهدى للناس أجمعين، فهذه النحلة قد أودع الله فيها القدرة على صنع العسل، ذلك الشراب الطاهر الذي تستمد مادته من الأزهار الطاهرة، والنحلة وعسلها من آيات الله التي حدثنا عنها في كتابه حديثاً يزيدنا علماً وإيماناً، وقد جاء العلم الحديث، فكشف شيئاً من أسرار النحل وأسرار العسل، الذي أجمله النص الكريم من سورة النحل، قال تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

﴿وأوحى﴾: المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون لتأوي إليها[١].

﴿اتخذي﴾: تشير هذه الجملة من النص القراني إلى حقيقة علمية، إنها تخاطب النحل بصيغة التأنيث، وقد دلتنا الدراسات العلمية أن خلية النحل جميعاً نتاج الملكة الأنثى، التي تتربع على عرش الخلية، والعدد الأكبر مما تلده النحلة هو من الإناث الشغالة، وبعض ما تلده من الإناث ملكات، أما عدد الذكور فيها فهو ضئيل جداً إذاً ما قورن بعدد الإناث، ومن جهة أخرى... فإن دور الذكور أيضاً في مملكة النحل محدود للغاية، فهو قاصر على تلقيح الملكة، فإذا تم ذلك تهلك جميع الذكور، ولا يبقى إلا الإناث: الملكة والشغالات والنحل الإناث. والشغالة هي التي تقوم بالأعمال كافة في مملكة النحل... ومن هنا يتبين لنا دقة التعبير في قوله تعالى: ﴿اتخذي﴾[٢].

﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ : أذن تعالى للنحل إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة؛ أي مسهلة عليها حيث شاءت، فتراها تطير في البراري الشاسعة، والأودية، والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة[٣].

وقوله ﴿ذللاً﴾ : أي مذللة ميسرة سهلة.

وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾: تأخذ النحلة

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٥٧٥.

(٢) عليكم بالشفائين العسل والقرآن، للدكتور محمد كمال عبد العزيز، الأستاذ في جامعة الأزهر.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/٥٧٥.

من الأزهار رحيقها الذي ينتقل إلى فم النحلة خلال خرطومها الطويل الذي يسحب الرحيق خلاله بوساطة الخاصة الشعرية وحركات عضلات البلعوم.

وعند عودة الشغالات إلى خليتهن فإنهن يتقابلن مع زميلاتهن اللاتي يقمن بعملية استقبال الرحيق، ثم يقمن بتفريغ حمولتهن من الرحيق، حيث يحفظ لبعض الوقت؛ ليبدأ في مرحلة تحول معقدة، حتى يتحول في النهاية إلى العسل.

إن النحل الذي يجمع الرحيق من الأزهار يبدأ في تعليق نقطة الرحيق في السقف العلوي للفراغ الموجود داخل قرص العسل. وهذه العملية مثيرة للاهتمام، وعلى درجة فائقة من الأهمية، حيث إن النقطة المعلقة من الرحيق لها معدل تبخر سريع، وبذلك يتبخر الماء بسرعة من الرحيق.

ولكي يقوم النحل بعمل كيلو جرام واحد من العسل يجب عليه أن يزور حوالي عشرة ملايين زهرة، جيئة وذهابا من الأزهار إلى الخلية[1].

وفي قوله تعالى: ﴿شراب مختلف ألوانه﴾ : أي ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومآكلها منها.

وفي قوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾ : أي في العسل شفاء للناس؛ أي من الأدواء التي تعرض لهم وتصيبهم[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ ؛ أي يعتبرون من العبرة في النحل، بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها[3].

---

(١) عليكم بالشفائين العسل والقرآن: ٥١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٣٣٧.

(٣) التداوي بعسل النحل لأبي حذيفة إبراهيم بن محمد.

العسل من طيبات الجنة

قال تعالى: ﴿مثل الجنة التي و عد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد:١٥] الآية.

في الآية دليل على أن العسل يوجد في الجنة، والجنة ليس فيها إلا الطيب من المأكل والمشرب والملبس، وبمأنهار الجنة تشقق من بحورها، وأنهار العسل تجري من بحر العسل، ففي الحديث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد)[١]. رواه أحمد في مسنده، والترمذي في سننه.

النحل والعسل في الأحاديث

١- قال صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالشفاءين القرآن والعسل)[٢].

جمع هذا الحديث بين الطب البشري والطب الإلهي، وبين الفاعل الطبيعي والفاعل الروحاني، وبين طب الأجساد وطب الأرواح، وبين السبب الأرضي والسبب السماوي[٣].

قال بعض العلماء: إن الله جعل في العسل شفاء من الأمراض والآفات، كما جعل القرآن شفاء للصدور من الشكوك والشبهات[٤].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٢/٢٢٠ ورقمه: ٢١١٨.

(٢) رواه ابن ماجه: ١١٤٢/٢ ورقمه: ٣٤٥١. الحديث ضعيف، والصحيح وقفه على ابن مسعود. [المجلة].

(٣) كتاب الطب من القرآن والسنة. العلامة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي.

(٤) المصدر السابق: ص١٣.

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يعجبه الحلواء والعسل)[1].

٣- عن أبي سعيد: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: ((أخي يشتكي بطنه)) فقال: (اسقه عسلاً)، ثم أتاه الثانية فقال: (اسقه عسلاً)، ثم أتاه الثالثة فقال: (اسقه عسلاً)، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: (صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً) فبرأ))[2].

وقوله: (كذب بطن أخيك) دال على أن الشرب منه لايكفي مرة ولا مرتين، وذاك الرجل كان إسهاله عن شيء، فأمره عليه الصلاة والسلام بالعسل، والعسل من شأنه دفع الفضلات المجتمعة في المعدة والأمعاء[3].

وهذا الحديث يدل على أن العسل فيه شفاء من جميع الأمراض؛ لأن المصطفى صلوات ا لله عليه وتسليمه وصفه لهذا الرجل على الرغم من أنه لم يره، فلو كان العسل شفاء لبعض الأمراض دون بعضها، لكان يلزم أن يتأكد المصطفى ﷺ من نوع المرض قبل أن يصف له العسل.

وقد يحتاج العسل إلى بعض الوقت؛ لكي يظهر تأثيره الشافي، وقد يختلف مقدار هذا الوقت من مرض إلى آخر، كما وضح من تردد أخي المريض على الرسول ﷺ، والرسول ﷺ يؤكد له ضرورة الاستمرار في العلاج بسقي العسل[4].

ولأن العسل من شأنه المساعدة في عملية تحليل الفضلات التي في المعدة والأمعاء لذلك كلما أخذ الرجل العسل زاد استطلاق بطنه؛ لأن العسل يحلل فضلات المعدة والأمعاء، فتخرج، إلى أن أعطاه آخر مرة العسل فمسك بطنه؛ لأن الفضلات قد خرجت كلها،

---

(١) البخاري بشرحه فتح الباري: ١٠/١٣٩. ورقمه ٥٦٨٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، البخاري بشرحه فتح الباري: ١٠/١٣٩. ورقمه: ٥٦٨٤.

(٣) كتاب الطب من القرآن والسنة: ص١٣٣.

(٤) عليكم بالشفائين العسل والقرآن: ٥٣.

وأصبحت معدته نظيفة، وبالتالي برأ بطن الرجل، فالحمد لله الذي جعل لكل داء دواء.

٤- عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم، خير ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي)[١].

أقوال العلماء في فضل العسل وفوائده

١- قال بعض العلماء: إن الله جعل في العسل شفاء من الأمراض والآفات، كما جعل القرآن شفاء للصدور من الشكوك والشبهات[٢].

٢- قال الموفق عبد اللطيف: العسل في أكثر الأمراض أنفع من السكر؛ لأنه يفتح ويدر ويجلو ويحلل ويغسل. وهذه الأفعال في السكر ضعيفة.

٣- وقال الغزالي: انظر إلى النحل كيف أوحى الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء. ومن عجائب أمرها تناولها الأزهار والأنوار، واحترازها من النجاسات والأقذار[٣].

٤- وذكر البروفسور الفاضل العبيد عمر في كتابه (عسل النحل في الطب الشعبي) عن الدكتور كمال الدين حسين الطاهر: أن لعسل النحل قدرة فائقة على الفتك بعدد من الجراثيم والفطريات والطفيليات مثل الأميبا التي تسبب الزحار الأميبي، ومنها الرشاشية التي تفرز سم (الأفلاتوكسين). ومن ناحية علمية فإن إثبات قدرة العسل على قتل طفيليات الزحار ومنع الإسهال، يؤكد حديث رسول الله ﷺ السابق الذكر يأمر بعلاج استطلاق البطن بعسل النحل.

---

(١) رواه البخاري. انظره بشرحه فتح الباري: ١٣٩/١٠. ورقمه: ٥٦٨٣.

(٢) الطب من القرآن والسنة: ١٣٦.

(٣) التداوي بعسل النحل: ٢٦.

٥- وكان عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه يكتحل بالعسل، ويداوي به كل من سقم إيمانا بكتاب الله وبقوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾[١].

تركيب العسل

العسل يتألف من مواد مختلفة ذات أهمية حيوية، قد تصل إلى أكثر من سبعين مركباً، أما مكوناته الرئيسة فأهمها:

سكر الفواكه بنسبة ٤٠٪، وسكر العنب بنسبة ٣٠٪، والسكر العادي (سكر القصب) بنسبة تقل عن ٤٪، ويوجد في العسل نسبة من الماء، تتراوح ما بين (١٥ - ٢٠٪).

ويعتمد تركيب العسل على عدة أشياء منها: نوع النبات؛ أي الزهرة التي أخذ منها الرحيق، ونوع التربة، وبعض الأحوال الجوية، كما يحتوي العسل على حبوب اللقاح والعديد من الخمائر والأحماض العضوية الكثيرة، التي يعزى لها القيمة العلاجية، ويتقارب أو يتشابه احتياجات الجسم الطبيعية مع ما يحتويه العسل من المعادن[٢].

ومن أقوال العلماء: إذا بحثنا في كل الكون عن مادة تجمع كل هذه التراكيب بها ما استطعنا أن نجد مثل هذه المادة التي هي عسل النحل[٣].

وكذلك يحتوي العسل على مجموعة من الفيتامينات التي ترتبط بما تحويه من غبار الطلع، وكذلك تحتوي على الأنزيمات والأملاح المعدنية المتعددة، التي لا يمكن لجسمنا الاستغناء

---

(١) معجزات الشفاء في الحبة السوداء والعسل والثوم والبصل: ٢٧.

(٢) اكتشاف غش العسل ٩.

(٣) التداوي بعسل النحل: ٥٤.

عنها، ويعطي العديد من الخمائر، التي تلعب دوراً مهما في حياة الكائن الحي[1].

بعض الخواص العامة للعسل

أ - ألوان العسل:

إن ألوان العسل الصافي مختلفة، تتزاوح ما بين لون الماء الأبيض إلى اللون الغامق القريب من السواد، مع وجود متغيرات قد تجعله يميل إلى الاخضرار أو الحمرة أو الزرقة. وهناك معايير للألوان في العالم، ولقياس الألوان أجهزة خاصة متوافرة لدى الشركات التي تتعامل بتسويق العسل، وصدق الله إذ يقول: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه﴾.

كما أن تخزين العسل لفترة طويلة يزيد من درجة تلونه، فلذا يجب التأكد من تاريخ قطف العسل. وقد تبين للعلماء أن هناك علاقة ما بين لون العسل وما يحتويه من أملاح عضوية، فقد لوحظ أن ألوان العسل الداكنة اللون؛ أي الأعسال الغامقة ليست بسبب التخزين؛ وإنما هي غمقة طبيعية تحتوي على أملاح عضوية أكثر من الخفيفة اللون، لذا فقيمتها القلوية عالية، فهي أكثر نفعاً[2].

وألوان العسل المتعارف عليها أربعة[3]:

١- العسل الأبيض.

٢- العسل الكهرماني الفاتح (الذهبي أو الأصفر الضارب إلى الحمرة).

---

(١) النحل والزهر والعسل وشيء من الطب الإسلامي: ٣٥، لعبد الرحيم إبراهيم خدرج، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت.

(٢) اكتشاف غش العسل: ١٩.

(٣) المصدر السابق: ٢١.

٣- العسل الكهرماني.

٤- العسل الكهرماني الداكن (الغامق).

ويعود اختلاف ألوان العسل لعدة أسباب نستطيع أن نوجزها بالنقاط التالية:

١- اختلاف مرعى النحل.

٢- طول فترة التخزين وقصرها.

٣- درجة حرارة التخزين.

٤- طريقة الفرز والتجنيس.

٥- نوع الخلايا إذا كانت بلدية أو افرنجية.

٦- التركيب الكيميائي للتربة.

٧- الأقراص الشمعية المستخدمة (قديمة أو جديدة)[١].

ب - طعم العسل:

طعم العسل حلو ولذيذ جداً بطبيعته، فهو يفوق السكر العادي والسكر الأسود حلاوة. والمتحكم بطعم العسل هو المواد العطرية التي تمنحها الزهرة، ونسبة سكر الفواكه الموجودة به، فكلما ارتفعت زادت الحلاوة[٢].

ج-كثافة العسل:

متوسط كثافة العسل هي ١,٤٠٠-١,٤٤٠ جرام /سم٣ في درجة حرارة (٢٠م)،

---

(١) المصدر السابق: ٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٣.

وتتغير هذه النسبة من الكثافة إذا كان التخزين سيئاً، فيجب حفظ العسل في مكان جاف ومظلم، ولا يحفظ أبداً في علب معدنية؛ كي لا يتفاعل مع مكونات العلبة، فيكون له مركبات سامة[1].

د - لزوجة العسل وسيولته:

العسل ذو اللزوجة المنخفضة يكون ضعيفاً، وهو غير مريح في الاستعمال في البيت.

وتعتمد لزوجة العسل على ما يلي بالترتيب:

١- تعتمد لزوجته بدرجة كبيرة على نسبة الماء فيه.

٢- الكثافة النوعية للعسل (الوزن النوعي للعسل)، فكلما كانت نسبة الماء قليلة كانت كثافته النوعية ولزوجته عاليتين عند ثبوت درجة الحرارة، وهي (٢٥م).

٣- درجة حرارة العسل، فكلما زادت درجة الحرارة للعسل قلت لزوجته، فيصير سائلاً أكثر[2].

هـ- تبلور العسل:

يؤثر تركيب العسل تأثيراً شديداً في خواصه الفيزيائية والكيميافيزيائية، والتبلور (التحبب) ليس تغيرا كيميائياً بل فيزيائياً فقط، ويبدأ التبلور في العسل خلال بضعة أسابيع أو أشهر، ويندر أن يحصل ذلك خلال أيام أو سنوات. وأول مركب في العسل يبدأ بالتبلور هو سكر العنب (الجلوكوز)، وذلك غالبا ما يكون عند درجة حرارة تتراوح ما بين (١٣-١٥) مئوية، وإن خاصية التبلور في التركيب السكري تعتمد بشكل واسع على

---

(١) المصدر السابق: ٢٣.

(٢) النحل والزهر والعسل: ١٤٥.

ما في العسل من شوائب دقيقة عالقة، تكون نواة لنمو التبلور وتكاثره مثل البلورات العسلية الصغيرة جداً، وفقاقيع الهواء، وقطع الشمع المتبقية بعد التصفية، وغبار الطلع، وغبار الهواء. وغالباً ما يتجمد العسل (يتبلور) تدريجيا عند درجة (١٤) درجة مئوية (سليزية) تقريباً.

إن العسل عندما يتصلب قوامه (يتبلور) يصبح على سطحه غشاء رقيق أبيض وحبيبي تزيد سماكته تدريجياً، ولا تلبث البنية الحبيبية أن تجتاح مجمل كتلة العسل وبشكل تدريجي، وربما أخذت شكل سحابة بيضاء قبيحة المنظر، ويأخذ مظهراً كريها قد يدفع البعض من الراغبين في شرائه، والذين يجهلون أسباب هذه الظاهرة يذهبون إلى الظن بمربي النحل من أنه قد أضاف السكر إلى العسل بإطعامه للنحل. إن هذه التهمة باطلة من أساسها، وذلك لأن الحكم على ظواهر الأمر تجر إلى الخطأ.

ومثل الذي يدعي أن العسل لا يتبلور مثل من يقول إن الماء لا يتجمد، وكل ذلك هو الجهل بخاصية مهمة من خواص العسل كمادة سائلة.

وخاصية تبلور العسل هي أهم دليل على كون العسل طبيعياً، والعسل الذي لا يتبلور لا يكون طبيعياً في معظم الأحيان، والعسل إذا تبلور كان طبيعياً، وهذه علامة فارقة يجب مراعاتها.

وهناك بعض الطرق التي يمكن استعمالها في البيت لإسالة العسل المتبلور منها[1]:

١- وضع قطعة من الخشب في قدر ذات سعة مناسبة، ثم تضع وعاء العسل على قطعة الخشب تلك، ثم يصب الماء في القدر إلى أن يغمر معظم إناء العسل، وبعد ذلك تضع القدر بما فيه فوق لهب صغير إلى أن يسخن الماء لدرجة (٦٢) مئوية تقريباً، ثم نطفئ

(١) المصدر السابق: (تبلور العسل): ص ١٤٠-١٤٢.

اللهب ونترك وعاء العسل في هذا الماء لمدة (نصف ساعة) أو أقل، فيذوب ما فيه من عسل، ولا يتجمد ثانية إلا بعد (٦-٩) شهور.

٢- نشعل فرن الغاز لمدة (٥) دقائق ليلاً قبل النوم، ثم نطفئه، ونضع وعاء العسل فيه إلى الصباح، فيصبح العسل ذائباً، وحذار أن تضع أوعية العسل مباشرة فوق النار؛ لأن ذلك متلف للعسل[١].

طرق التعرف على نقاء العسل وسلامته

بعض الناس يضع أصبعه في العسل السائل، ثم يرفعه إلى أعلى، فإذا كان خيط العسل متصلاً دل على أن العسل سليم غير مغشوش، أما إذا انقطع خيط العسل فيدل على عكس ذلك، وهذه الطريقة ليست دقيقة؛ وذلك لأن العسل إذا ارتفعت درجة حرارته عن (٤٠) م فإنه يفقد معظم لزوجته، ولا يعود متماسكاً كما كان عندما كانت درجة حرارته (٢٥) م.

ومن الناس من يجعل العسل الهابط من طرف أصبعه يقع على رمل نظيف بشكل خيط مستقيم، ثم ينظر بعد ذلك كيف أن هذا الخيط يتقطع إلى قطع تكاد تكون متساوية، ولا تلبث أن تتكون منها حبيبات تبقى متماسكة على السطح الرملي، فإذا كانت الحبيبات متماسكة كحبيبات الزئبق، دل ذلك على أن العسل لزج ونسبة الماء فيه تحت الحد المطلوب، وأما إذا غار سائل العسل في الرمل، فإنه يدل على أن العسل غير لزج، ونسبة الماء فيه عالية. ولكن هذه الطريقة ليست دقيقة كذلك، لعدم مراعاة درجة الحرارة، ولكنها على كل حال مطمئنة[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ١٤٥، ١٤٦.

ومنهم من يضع عود ثقاب في العسل، ثم يحاول إشعاله بعد ذلك، فإذا اشتعل دل على أن نسبة الماء في العسل تحت الحد المطلوب، وهذه الطريقة صحيحة إلى حد ما[1].

وهناك طريقة شعبية بسيطة لكشف غش العسل بالسكر وهي أن نضع شيئاً قليلاً من العسل المراد فحصه في ملعقة أكل ثم نسخنه على النار فنرى أن العسل، إن كان غير مغشوش، يبدأ بالغليان الشديد، ويشكل رغوة صافية، ليس فيها شيء من السواد وتغير اللون. أما إذا كان العسل مغشوشاً، فإنه يحترق مكوناً مادة سوداء كربونية دلالة على وجود السكر فيه[2].

وإذا غطيت جزءاً من سطح ورقة بيضاء بالعسل، ثم أشعلت فيها النار، فإن الورقة تحترق ولا يحترق العسل، بل يسيل على الأرض، وهذا يدل على أن العسل ليس مغشوشاً بالسكر.

مقارنة بين العسل الحقيقي والعسل المغشوش من ناحية الجدوى العلاجية

في التجربة التي قام بها كل من الدكتور محمد علي البني والدكتور عادل قنديل رئيس قسم العقاقير (فارماكولوجي) بالهيئة القومية للرقابة والبحوث بمصر؛ لمقارنة تأثير كل من العسل الحقيقي والعسل المغشوش في التئام الجروح، فقد تم إحضار (٦٠)، فأرا وأحدث في الجميع جرح في الظهر قدره (١٠ مليمترات)، نصف المجموعة عولجت بالضماد، والنصف الثاني عن طريق الفم. الضماد كان على ثلاثة أنواع (العسل الحقيقي، العسل المزيف، المحلول الفسيولوجي) كل (١٠) فئران تعالج بنوع واحد من الضمادات. أما التي

---

(١) المصدر السابق: ١٤٦.

(٢) المصدر السابق: ١٥٠.

عوبجت عن طريق الفم فكان غذاءها (العسل الحقيقي، العسل المزيف، المحلو الفسيولوجي). كل (١٠) فئران تعالج بنوع واحد من هذه الأغذية، مع العلم أن الفتر العلاجية استمرت سبعة أيام، فظهر من التجربة أن تناول العسل أفضل وأسرع في التئ الجروح من استخدامه كضماد، وهو أفضل في الحالتين من المحلول الفسيولوجي (سكر ماء)[١].

الاستعمالات الطبية للعسل

مع أن العسل كان معروفاً من قديم الأزمان إلا أن استعماله في الطبابة تأخر حتى ظهو الإسلام وتنويه القرآن الكريم به في سورة النحل. قال تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أ اتخذي من الجبال بيوتا..﴾ [النحل:٦٨-٦٩] الآية. وأضفى عليه القرآن صفة الخلود فجعله غذاء في الآخرة، فقال سبحانه في سورة محمد: ﴿وأنهار من عسل مصفى﴾ [محمد:١٥]. ووصفه الرسول ﷺ علاجاً لبعض الأمراض، وحض على استعماله بقوة وتطور الأمر واكتشف الطب الحديث أهميته، فصار يصفه دواء، ويصنع منه المراهم[٢].

ويمكن إجمال استعمالات العسل الطبية فيما يلي:

١- العسل ملين طبيعي، مطهر للأمعاء، يفيد في حالات الحميات والالتهابات المعوية.

٢- يمنع نمو البكتريا، ويؤدي إلى قتلها بما يحتويه من مضادات حيوية.

٣- يساعد على سرعة التئام التقرحات والسطوح الملتهبة بسبب فعله الماص، ويظهر فعله الماص هذا بعد وضعه على السطح المتعري - بوقت قصير - حيث يتم نمو وتشكيل

---

(١) اكتشاف غش العسل: ص ١٤.

(٢) الطب من الكتاب والسنة، هامش: ص١٣٠-١٣١.

الأنسجة المصابة، والأنسجة المتحجبة GRANALATION TISSUE وهو غير سام، وغير محرش، ولا يؤذي الأنسجة لا موضعياً ولا بصورة عامة.

٤- إذا قلت إفرازات الثدي - من الحليب - فيجب الإكثار من تناول العسل، فينبه الغدد ويفيد الطفل الرضيع.

٥- يعالج العسل الكساح - لين العظام عند الأطفال - لاحتوائه على الفيتامين (د)، وذلك بإضافته لتحلية الشراب الساخن، وإعطاء الشراب للطفل، أو بغلي ورق الجوز، وإضافة قليل من العسل إلى هذا المغلي، فيكون شراباً لذيذاً ومفيداً للأطفال في الكساح.

٦- سعال الأطفال والبحة: فنجان حليب ساخن محلى بالعسل يعطى للطفل فيزيل البلغم، ويخفف السعال وكذا البحة، وينقي الحبال الصوتية، يعطى للطفل بدرجة حرارة يتحملها الطفل.

٧- يفيد العسل في تنقية جهاز التنفس، واستنشاق أبخرته ينظف القصبة الهوائية والشعب التنفسية العليا، إذا استمر العلاج بهذه الطريقة أسبوعاً.

٨- السعال الديكي للأطفال: خذ ٢٥٠ غرام خروب وضعها بلتر ماء، واطبخها إلى أن تصير كالشراب، أضف إلى هذا ٢٥٠ غرام عسلاً، واطبخ الجميع مرة أخرى، وأعط منه الطفل كل نصف ساعة ملعقة صغيرة.

٩- وصفة أخرى للسعال الديكي: مقدار من الخوخ في لتر ماء يغلى إلى أن يتبخر نصف الماء، وبعده يضاف ٥٠٠ غرام من العسل، ويوضع على نار هادئة، إلى أن يصبح بحالة شراب، أعط المريض ٤ مرات يومياً، كل مرة ملعقة كبيرة، لمدة أسبوع، فلا يبقى للسعال الديكي أي أثر.

١٠- النزلات الصدرية عند الأطفال: تعالج بمنقوعات صدرية (زهر الزيزفون، بابونج، الخطمي، الختمية) وتحلى بالعسل، ويمكن إعطاؤه للأطفال والكبار على حد سواء في جميع الأمراض الصدرية.

١١- البرد مع بحة الصوت وسيلان الأنف:

وصفة ١ - خذ كل ساعة ملعقة صغيرة من العسل السائل فقط لا غير.

وصفة ٢ - خذ ملعقة عسل كبيرة وامزجها بصفار بيض، وامزج الجميع بملعقتين من زيت اللوز، ويجب أن تأخذ كل ساعة ملعقة صغيرة من هذا المزيج.

١٢- سعال مصحوب بنفث الدم:

وصفة ١ - يعالج بمزيج من العسل والخوخ على نار هادئة.

وصفة ٢ - اطبخ على نار هادئة بذر الشمر مع العسل، وخذ هذا كالشاي.

١٣- امراض تجويف الفم: كالبثور والتقرحات... الخ:

أولا: الحمية.

ثانيا: تدول العسل باستمرار

يعني يومياً كالغذاء أو كالشراب، ثم عمل الغرغرة، وهو أن تأخذ قليلا من العسل وتذوبه في منقوع الختمية وتتغرغر.

١٤- قرحات صغيرة بالمعدة... خذ منقوع الزيزفون وحله بالعسل بمعدل ملعقتين أو ثلاث لكل فنجان، تنكمش التقرحات الصغيرة ثم تشفى.

١٥- القرحات المعدية والاثني عشر: يساعد العسل على شفاء القرحة المعدية والاثني عشرية، فينظم الحموضة وكمية عصارة المعدة. وقد عولج الكثير من المرضى بقرحة المعدة وقرحة الاثني عشر بالعسل لمدة ثلاث سنوات، فاختفت آلامهم عقب العلاج، وتحسنت شهيتهم، وقلت حموضة معدتهم.

١٦- ولقد ثبت أن المواظبة على أكل العسل بانتظام يشفي من التهاب الكبد وآلام

المرارة، ويزيد من مقاومة الجسم للعدوى، بما يقوم به الكبد من تكوين ترياق لسم البكتريا، ويكون العسل مساعداً له.

١٧- التهاب البلعوم والحلق والحنجرة: يعالج بالحمية وتناول العسل كغذاء وشراب.

١٨- الدفتريا: مرض الغشاء الكاذب. العسل يقتل بيض هذا المرض، ويمنع تقدمه عند ابتداء المرض، وذلك بعمل ضماد من العسل حول العنق.

١٩- الرشح: العسل يقتل جميع الميكروبات، ولا يدع بيضها يفقس.

٢٠- الأنفلونزا: تعالج بتناول كأس منقوع شاي مع ملعقة كبيرة من العسل، والراحة في السرير، وتكرر العملية مساء[1].

٢١- للجروح: يدهن بالعسل مع تضميده وتجنب البلل، ولا تنزع إلا كل ثلاثة أيام، وستفاجأ باندمال الجرح والتآمه بلا تقيحات، واحذر أن يكون العسل مغشوشاً.

٢٢- للحروق: يؤتى بالعسل ويخلط مع قدره من الفزلين، ويدهن به الحرق صباحاً ومساء حتى يتقشر الجلد المحروق، ولسوف تجد بقدرة الله أن الجلد كأنه لم يحرق من قبل. أو تضرب بيضة في ملعقة عسل ويدهن بذلك مكان الحريق يومياً، فإنه مفيد كذلك.

٢٣- لعلاج الأرق: كوب من اللبن الدافئ يحلى بملعقة عسل كبيرة، وتشرب قبل النوم بساعة، بعدها سرعان ما تنام نوماً هادئاً ممتعاً حتى أذان الفجر إن شاء الله.

٢٤- للأمراض النفسية والجنون: لو داوم المريض عل أكل العسل وسلم ظهره للدغ النحلات مع دهن العسل للدغه بعد ذلك، واستمر على ذلك، ولو كل شهر مرة، مع استمرار أكل العسل، ومضغ شمعه كالعلك، والدهن لمؤخرة الرأس بغداء الملكات قليلاً،

---

(١) الطب من الكتاب والسنة: هامش ص١٣١-١٣٢.

فلن ينقضي عام بإذن الله ويهنأ في حياته، نعم العاقل العابد لربه بحق.

٢٥- لجميع أمراض العيون: اكتحل بالعسل صباحا وقبل النوم مع تناول ملعقة بعد ذلك يومياً، فلقد جربت أنا شخصياً ذلك حينما أصبت بتراخوماً، والعجيب أن أطباء العيون يقولون إن التراخوما لا تزول لما يرونه من فشل أدويتهم، أما دواء الله (العسل) فقد أزالها وعن تجربة.

٢٦- للحموضة: لم أكن أنا شخصياً أعاني من أي مرض ولله الحمد، وذلك لكثرة تناولي للعسل، وفجأة انقطعت عنه، وكنت قد أصبت (بالأميبالولي) فاستعملت بإشارة طبيب (حبوب الفلاجيل) التي كانت تضرني، لما أحدثته من آثار جانبية مؤذية منها (الحموضة)، فتوقفت عن (كورس) العلاج، واستعملت الثوم والعسل، فانتهت الحموضة ومعها الأميبا، وذلك ببلع فص ثوم على الريق بكوب لبن محلى بملعقة عسل لمدة خمسة أيام، كان كل شيء ولله الحمد انتهى. وصدق القائل: (إن العسل أحسن صديق للمعدة).

٢٧- لعلاج الإسهال: ذكرنا سابقاً حديث الرجل الذي استطلق بطن أخيه. فالعسل من الأدوية الفعالة لعلاج الإسهال.

٢٨- للإمساك: نقيض الإسهال، يؤخذ له كوب من اللبن البارد المذاب فيه ملعقة عسل صباحاً ومساء، فإنه يلين المعدة ويطهرها تطهيراً.

٢٩- للتقيؤ (الطرش): يغلى القرنفل جيداً، ويحلى بعسل، ويشرب فنجان قبل كل أكل، فإنه يوقف القيء ويمنع الغثيان.

٣٠- للقرحة: يؤخذ نصف كوب عسل، وكوب لبن ساخن، ويمزجا سوياً مع طحين قشر الموز المجفف قدر ملعقة صباحاً ومساء لمدة شهر، ولسوف ترى عجباً بعد عافيتك بعون الله من القرحة تماماً، ولن تبتلى بمشرط الجراح إن شاء الله.

٣١- لعلاج البخر (إنتان رائحة الفم): تأخذ ملعقتين من العسل المذاب في ماء مغلي على نار هادئة حتى يتكون البخار ويستنشق عن طريق الفم، من خلال قمع مقلوب فوق الإناء، وتكرر هذه الجلسة مع استمرارية مضغ شمع العسل، ولن تطول حتى تجد مع الأيام زوال البخر تماماً بمقدرة الله عز وجل.

٣٢- للقوباء: يعصر الشبت ويلقى قدر فنجان في نصف كوب عسل، ويغلى المزيج، ثم يحفظ في وعاء زجاجي ويدهن به للقوباء، فإنه يزيلها بسرعة.

٣٣- آلام اللثة وتقوية الأسنان: يخلط العسل بالخل، ويتمضمض به صباحاً ومساء، وكذلك تدليك اللثة بالعسل واستعمال السواك كفرشاة الأسنان، والعسل كالمعجون أعظم واق للأسنان من التسوس، ومقوي اللثة والأسنان معاً.

٣٤- للدوالي: لجميع الدوالي وقرحتها يستعمل كدهان ثلاث مرات يومياً مع المساج، ويشرب ملعقة كذلك بعد كل أكل، ويستمر على ذلك بصبر حتى تزول الدوالي تماماً.

٣٥- للقروح المتعفنة والغرغرينا: يؤخذ فنجان من العسل، فنجان من زيت كبد الحوت ويمزجان جيداً، ويدهن من ذلك بعد تنظيف الجرح بمطهر (وهو عسل في ماء دافئ) ويضمد عليه بشاش، وتكرر يومياً هذه العملية مع شرب العسل بكمية وافرة يومياً، قدر فنجان.

٣٦- للأورام الخبيثة: يستعمل غراء النحل لذلك، وذلك بتضميد الورم بالغراء مع التنظيف المستمر والتغيير يومياً، مع أخذ ملعقة صباحاً ومساء قبل النوم.

٣٧- الربو: يؤخذ عسل قدر فنجان وسكنجين وخل عنصل قدر ملعقة من كل، ويلقى مع العسل في إناء به ماء، ويذاب جيداً، ويشرب على الريق يومياً، فإنه بعون الله، خلال أسابيع ينهي مأساة الربو تماماً.

٣٨- السل الرئوي: يمزج شراب الورد بقدره من العسل، ويشرب فنجان صباحاً

ومساء، ويدهن الصدر والعنق بزيت الزيتون المضروب في العسل قبل النوم، ويستمر على ذلك حتى يعافيه الله، وهو على كل شيء قدير...

٣٩- لتقوية عضلة القلب: تؤخذ ملعقة عسل من حين لآخر، وتذاب في قليل من الماء المغلي في قشر الرمان، فإنه يدعم القلب ويقويه جداً، كذلك لو أخذ غذاء الملكات قدر ثلاث قطرات ومن العنبر، فإن ذلك يقوي القلب وينشطه للغاية.

٤٠- لعلاج التهابات عضلة القلب والرعشة: يشرب على الريق يومياً كوب من الماء البارد المحلى بملعقتين من العسل، ويستمر ذلك حتى تنتهي الرعشة، وذلك قد لا يتعدى الاسبوع.

٤١- لغط القلب: بعد كل أكل يومياً، ولمدة شهر فقط، تناول ملعقة عسل، بعدها يمكنك شرب كوب عصير جزر أو عصير قمح منبت، واجعل كل دقة منه حمداً منك وشكرا لله عز وجل.

٤٢- لالتهابات الفم وأورام اللسان: توضع ملعقة عسل في نصف كوب ماء ساخن، ويتغرغر به ثلاث مرات يومياً، فإنه يقضي على ذلك خلال أيام قليلة.

٤٣- لأمراض الآذان وآلامها: يمزج العسل في ماء مع قليل من الملح، ويقطر به في الأذن قبل النوم يومياً.

٤٤- للروماتيزم: يشرب العسل مذاباً مع ملعقة صغيرة من دهن الحبة السوداء في كوب ماء دافئ، وذلك مع الدهن، كذلك بمزيج من دهن الحبة السوداء، وزيت الكافور، وزيت الزيتون، بمقادير متساوية معا والعسل، وذلك قبل النوم، مع لف مكان الألم بقماش من الصوف بدون ضغط، وكذلك لسع النحل يقضي على الروماتيزم تماماً في مكان الألم، يدهن بعد ذلك بالعسل مكان اللسعة.

٤٥- الاستسقاء: يشرب مغلي الكندر (اللبان الذكر) المحلى بعسل صباحاً ومساء

ويمكن كية بسيطة أعلى وأسفل السرة بقدر أنملة، فإنه مجرب لتصفية الاستسقاء تماماً، مع الحمية من أكل اللحوم والاعتماد على الشوفان والعسل وخبز القمح، وذلك لمدة ثلاثة أيام فقط.

٤٦- للثعلبة: يحلق مكانها وينظف جيداً حتى تدمى، ثم تدهن بسم النحل، ويلصق عليها بضماد يغير يومياً في الميعاد نفسه لمدة أسبوع فقط.

٤٧- للكالو (الثآليل): يوضع غراء النحل بعد تسخينه على الثألول، ويربط بإحكام، ويترك لثلاثة أيام حتى يسقط الثألول بجذوره، ويمكن أن تكرر.

٤٨- للحصوة الكلوية: يطبخ ورق خبازي بري، ثم تضاف إليه ثلاث ملاعق عسل وملعقة سمن بقري ويصفى جيداً بعد خلطه سوياً، ويشرب منه كوب عند المغص الكلوي، فإنه عجيب، ويستمر على ذلك لمدة اسبوع، حتى تفتت الحصى وتطرد بإذن الله.

٤٩- لجميع أمراض الكبد: يؤخذ لحاء البلوط بعد طحنه جيداً، وتؤخذ منه ملعقة تعجن في فنجان عسل، ويؤخذ ذلك على الريق يومياً لمدة شهر بلا انقطاع.

٥٠- للقوة والحيوية والشباب: إنها نصيحة ذهبية، لا تدع يوماً يمر بك دون ملعقة من العسل وكأنه الماء، اعتبرها عادة في كل العمر، في أي وقت تشاء، لا تدع تناول هذه الملعقة من العسل، ولذا قال ابن سينا الشيخ الرئيس: إذا أردت أن تحتفظ بشبابك، فاطعم عسلاً... كذلك لو غلي ورق الجوز جيداً ثم يصفى ويحلى بالعسل ويشرب كالشاي يومياً، فإنه مقوي ومنشط.

٥١- لأمراض النساء والولادة: لو شربت المرأة عند بدء الطلق فنجان عسل، فإنها ستلد بيسر وسهولة، ولتكثر من أكل العسل بخبز القمح البلدي بعد الولادة، ولإدرار الطمث، وللقضاء على آلامه تشرب كوباً من الحلبة المغلية جيداً وتحليها بعسل، وذلك في الصباح والمساء، والدش المهبلي بالعسل والماء الدافئ مريح للمرأة، بدل الكشط المهبلي

وغسيل الرحم المؤلم والضار.

عموما العسل للمرأة يجعلها تحيا حياة كلها عسل بتقوى الله سبحانه وتعالى.

٥٢- للعقم: يؤخذ غذاء الملكات (جديد) أي فور استخراجه، ويشرب بعده كوب من حليب البقر، عليه برادة قرن وحيد القرن قدر(٣) مليجرام، ويستمر على ذلك لمدة شهر كامل، فإذا شاء الله أن يمنحه الذرية كانت البشرى، والله على كل شيء قدير. بالنسبة للمرأة تضع طلع النخل ممزوجاً بعسل في رحمها قبل المباشرة بقليل، ولتدعو الله أن يمنحها ذرية صالحة.

٥٣- للسرطان: يؤخذ غذاء الملكات من الخلية مباشرة قدر (١٠٠) جرام كل أسبوع مرة، ويبلع العسل بشمعة كل يوم قدر فنجان، مع تدليك الجسم بالعسل ودهن الحبة السوداء، ثم الاغتسال بماء دافئ، بعد ساعة يشرب طحين الحبة السوداء والعسل في عصير جزر يومياً.

٥٤- للبرص والبهاق: يخلط العسل بالنشادر ويدهن به يومياً، فإنه بالاستمرار والصبر يجلو البهاق والبرص.

٥٥- للسموم: تضاف ملعقة دهن السمسم على فنجان عسل، ويشرب ذلك صباحاً، وفي المساء يشرب عسل مذاب في كوب لبن ساخن عليه قطرات من العنبر، ويكرر ذلك يومياً لمدة ثلاثة أيام مع الحمية عن أكل اللحوم.

٥٦- للبروستات: يؤخذ يومياً غذاء الملكات مع الخلية مباشرة قدر (٥٠) مليجرام مع حمام للمكان بماء دافئ مذاب فيه عسل، ويا حبذا مساء، ولمدة شهر.

٥٧- للحساسية: يضاف إلى فنجان من العسل الفزلين ودهن الورد، ويدهن مكان

الحساسية صباحاً ومساء، مع تجنب المثيرات للحساسية كالبيض والمانجو، وليكن مع الدهان أخذ ملعقة عسل يومياً[1].

٥٨- استخدام العسل بعد العمليات: يتعذر على المريض الذي أجريت له عمليات جراحة في الوجه والفكين أن يقوم بمضغ الطعام، كما أنه يجد صعوبة بالغة في البلع، ويكون العسل في هذه الحالة غذاء لانظير له؛ لأنه يمكن تناوله بكميات كبيرة بدون مضغ، ويمكن تناول العسل في صورة شراب الورد البري الحلو، أو ممزوجاً في عصير بعض الفاكهة. كما يمكن أن يؤخذ ممزوجاً بالفيتامينات والزلاليات والكالسيوم[2].

٥٩- لعلاج آلام العضلات: أضف ملعقتين كبيرتين من العسل إلى ملعقة صغيرة من دهن الحبة السوداء، في نصف كوب من الماء الدافئ، ثم خذ ملعقتين من هذا الخليط يومياً بعد كل وجبة طعام، ولمدة اسبوعين على الأقل.

هذه الوصفة أيضاً لها القدرة على إزالة اختلاجات وتشنجات العضلات التي تظهر من حين لآخر في أثناء الليل في عضلات الساق والقدم.

٦٠- لعلاج النحافة والناقهين من الأمراض: يؤكل عسل النحل بالخبز بمقدار نصف فنجان مع قطعة صغيرة بالإضافة إلى نصف تفاحة وموزة واحدة. يتم تكرار هذه الوصفة ثلاث مرات يوميا بعد كل وجبة طعام على أن يستمر الشخص فيها لمدة شهر على الأقل.

٦١- لعلاج التبول اللاإرادي عند الأطفال: أعط الطفل ملعقة كبيرة من عسل النحل الصافي مباشرة قبل ذهابه للنوم، فالعسل هنا له قدرة على امتصاص الماء من الجسم، وفي الوقت نفسه يسكن أعصاب الطفل. استمر في هذا العلاج إلى أن يتوقف الطفل عن

---

(١) معجزات الشفاء في الحبة السوداء والعسل والثوم والبصر: ٣٠-٤٣.

(٢) عليكم بالشفائين العسل والقرآن.

التبول في الفراش. فبعض الأطفال يتوقفون عن ذلك في سن سبع سنوات، والبعض الآخر يتوقف عند سن البلوغ، ولا تحاول أن توقظ الطفل في منتصف الليل للتبول، فهذا لن يفيده شيئاً.

وابتعد عن تعنيف الطفل، أو الإساءة إليه، أو ضربه، فهذه العادة لا إرادية، ولا يفعلها عن قصد، فهو بريء، ولا ذنب له فيها[١].

لماذا نفشل في العلاج بالعسل

ذكرنا سابقاً أنه لا بد من التحري عن العسل الطبيعي الخالي من الغش التجاري كخطوة أولى، ثم لابد من أخذ النوع المفضل من العسل لكل حالة مرضية؛ فالعسل يختلف بعضه عن بعض في بعض المكونات التي تكون متوفرة في نوع وغير متوفرة في الأنواع الأخرى، ويكون لها قيمة علاجية فعالة في حالات معينة من الأمراض. كما يجدر التنبيه إلى كمية العسل التي يجب أن تؤخذ، فالجرعة العلاجية للعسل يجب أن تتراوح ما بين (١٠٠جرام – ٢٠٠جرام)، وتؤخذ بالطريقة التالية:

١- ٣٠-٦٠ جرام في الصباح.

٢- ٤٠-٨٠ جرام في الظهر.

٣- ٣٠-٦٠ جرام في المساء.

ويجب أن يؤخذ العسل قبل الأكل بساعة ونصف أو ساعتين أو بعده بثلاث ساعات، كما أن الفترة العلاجية بالعسل قد تطول ربما إلى شهرين حسب الحاجة[٢].

---

(١) عسل النحل في الطب الشعبي.

(٢) اكتشاف غش العسل: ٥٩.

كيف تشتري العسل

عند شرائنا للعسل نتردد كثيراً، ونحن غير ملومين بسبب اتساع يد الغش لإفساد العسل، وكذلك بسبب ضعف خبرتنا في هذا المجال، ولكن على العموم هناك ملاحظات عامة يجب أخذها بالاعتبار وهي:

١- يجب شراء العسل من الناس الموثوقين، ويتم البحث عنهم بالتحري، وملاحظة السند الذي مر به العسل من مصدره حتى وصوله إلى يديك، فهذه عادة عربية توثق الخبر المنقول.

٢- يفضل العسل البلدي الذي تمت تعبئته مباشرة دون أن يتعرض لحرارة التعبئة.

٣- بالدرجة الأولى ابحث عن العسل الربيعي، وذلك من ملاحظة التاريخ الافرنجي للإنتاج، وعادة يوضع على العلبة، فإن العسل الربيعي هو أجود أنواع العسل، أما إذا تعذر فالعسل الصيفي، أما الشتائي فلا تشتريه.

٤- الحذر من شراء العسل المحفوظ بأوعية معدنية، وذلك بسبب حموضة العسل التي يمكن أن تتفاعل مع معدن الوعاء، مؤدية إلى تسرب بعض المعادن إلى العسل (ربما مركبات سامة).

٥- معرفة منطقة المنحل وطبيعة المرعى الذي تتغذى منه النحل، فالعسل الموجود على طبيعته في الجبال أو في أشجار الغابات غير العسل المنتج في المزارع.

٦- العسل المنتج في مزرعة كبيرة تحتوي على أصناف كثيرة من الأزهار أفضل من العسل المنتج في مزرعة فقيرة بأنواع محددة من الأزهار.

٧- في حالة تعثر الحصول على عسل حسب الأوصاف السابقة استخدم طريقة "الخلط" ويتم فيها خلط كميات متساوية من أنواع العسل المختلفة لدعم بعضها بعضاً،

على شرط أن تكون هذه الأنواع مفسوحة تجاريا، وتم فحصها، وعادة أنواع العسل المستورد تكون مفحوصة قبل نزولها السوق وذلك لغرض تنويع المرعى.

٨- لاحظ أن العسل المغشوش يسبب الإحساس بالحموضة في الجوف بعد دقائق من تناوله، أما العسل النقي فلا يسبب هذا الشعور، بل إنه يخفض من درجة الحموضة إذا كانت المعدة مريضة وإفرازاتها الحمضية زائدة.

٩- لاحظ أن العسل النقي له قوام جيلاتيني مطاط عند تناوله بالملعقة بينما العسل المزيف ليس له هذا القوام.

١٠- احذر العسل المخزن مع الشمع لأن مدة صلاحيته لاتتعدى أسابيع ثم تظهر الحموضة أو التعفن أو الاثنان معا فيه مما يفقده قيمته العلاجية، ولكن حفظ الشمع وهو مغطى بالعسل تماما يمكن أن يجنبه الإشكالات أعلاه ويبقي جودة الشمع وما يحتويه من مواد مفيدة.

نصائح للمستهلك للمحافظة على جودة العسل

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة). قلنا لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١]

فنجمل بعض النصائح التي يمكن من خلالها المحافظة على جودة العسل:

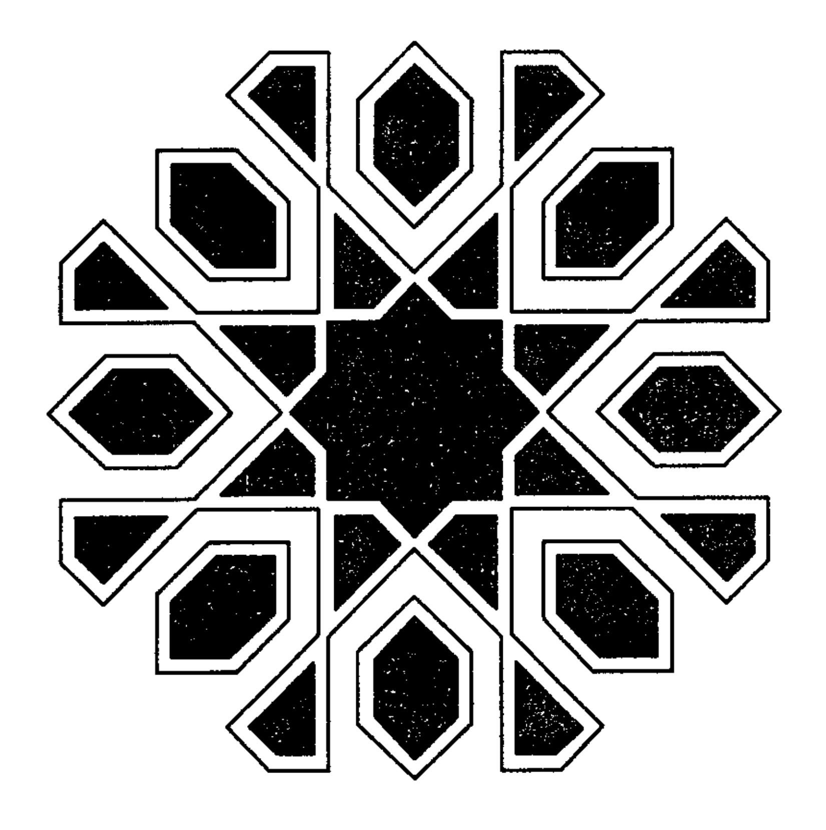
١- أن يحفظ في أوان جافة محكمة الإغلاق.

٢- عند تناول العسل تستعمل ملعقة جافة.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

٣- عدم وضع الأواني في الثلاجة بل تترك في المطبخ أو المخزن محكمة الإغلاق، وذلك لأن العسل يجذب الرطوبة فتفسده[1].

٤- وكذلك عدم وضعه في أوان معدنية، بل يوضع في أوان بلاستيكية؛ لأن بعض مكونات العسل تتفاعل مع المعدن فتفسد العسل.



(١) النحل والزهر والعسل: ص١٢٩.

الجديد في عالم الكتب المطبوعة

حرصاً منّا على تعريف قراء مجلتنا بالجديد في عالم الكتب العلمية الشرعية المؤلفة أو المحققة ، فإننا عزمنا على أن نفرد باباً في كل عدد من أعداد مجلتنا للمستجدات في عالم المطبوعات .

وهذا الباب مفتوح مجاناً لمراكز البحث العلمي ودور النشر كما هو مفتوح للعلماء والباحثين والدارسين .

وكل ما نطلبه ممن يحب أن يتحفنا ويتحف القراء الكرام بالجديد من انتاجه أن يتفضل فيرسل لنا: اسم الكتاب ، واسم المؤلف ومحققه ، وحجم الكتاب ، واسم دار النشر وعنوانها مع رقم الهاتف .

ويمكن ارسال هذه المعلومات على العنوان التالي:

(المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة ص. ب: ٦٦٠٤) .

ومنطلقنا فيما ندعو إليه التعاون على البر والتقوى .
والحمدلله رب العالمين

رئيس التحرير

أبو عبد الله الزبيري

للاستفسار يرجى الاتصال على النداء (البيجر) رقم/ ١٩٨٨٧٦٣٨
أو المدينة المنورة - السعودية - تلفون : ٠٤-٨٣٦٤٥٩٨

اسم الكتاب	المؤلف	دار النشر	المحقق وحجم الكتاب
مؤلفات ابن الجوزي	عبدالحميد العلوجي	مركز المخطوطات والوثائق ـ الكويت	(٣٢٩)صفحة
الجواد العربي في الفروسية وتربية الخيل ...	المؤلف مجهول. كتبه بخط يده سنة ٧٥٧ ببغداد	مركز المخطوطات الكويت. ص.ب: ٣٩٠٤ الصفاة ١٣٠٤٠ـ تلفون: ١/ ٥٣٢٠٩٠٠	محمد التونجي (٣٤٤) صفحة الأستاذ بجامعة حلب
فهرست المخطوطات العربية في الجامعة الكاثوليكية ـ واشنطن.	ترجمة محمد بن إبراهيم الشيباني	مركز المخطوطات	(٣٢) صفحة
مجموعة مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية المخطوطة (القسم الأول)	محمد بن إبراهيم الشيباني	مركز المخطوطات	(١٢٧) صفحة
جزء فيه تشحيذ الهمم إلى العلم	محمد بن إبراهيم الشيباني	مركز المخطوطات	(٤٢) صفحة
قائمة المخطوطات العربية الجديدة المحفوظة في خزانة المكتبة الملكية بمدينة كوبنهاجن	عدنان جواد الطعمه جامعة ماربورج «ألمانيا»	مركز المخطوطات	(٤٤) صفحة
معجم ما الف عن الصحابة وأمهات المؤمنين وآل البيت رضي الله عنهم	محمد بن إبراهيم الشيباني	مركز المخطوطات	(٣٠٨) صفحة
مصادر النظام الإسلامي ـ المرأة والأسرة في الإسلام	عبد الجبار الرفاعي	مركز المخطوطات	(٥٥٢) صفحة
أسماء بقايا الأشياء على نسق حروف المعجم	أبو هلال العسكري ت٤٠٠هـ	مركز المخطوطات	ماجد الذهبي (١٠٠) صفحة
الدعوات الكبير (القسم الأول والثاني)	الإمام البيهقي ت: ٤٥٨هـ	مركز المخطوطات	بدر البدر

اسم الكتاب	المؤلف	دار النشر	المحقق وحجم الكتاب
عجائب من عصور متفرقة (الجزء الأول والثاني)	انتقاها وعلق عليها : محمد إبراهيم الشيباني	مركز المخطوطات	(٧٢) صفحة
تحول المصرف الربوي إلى مصرف إسلامي ومقتضياته	سعود محمد الربيعة	مركز المخطوطات	مجلدان
البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم	ابو حيان الأندلسي	دار البخاري - السعودية. القصيم بريدة ص.ب: ٨٩١ ت: ٠٦٣٢٣٦٠١٧	الدكتور عبدالسميع حسنين صدر منه الجزء الأول والثاني.
جزء الأوهام في المشايخ النبل	الحافظ ضياء الدين المقدسي ت: (٦٤٣)	دار البخاري	بدر بن محمد العماش رسالة في (٧٠) صفحة
جزء المُؤَمَّل بن إيهاب	أحمد بن عبدالله الدمشقي ت: ٣٣٤	دار البخاري	ابو الفداء عماد بن فرة رسالة في (١٤٢) صفحة
عقائد الثلاث والسبعين فرقة	ابو محمد اليمني من علماء القرن السادس الهجري	مكتبة العلوم والحكم السعودية - المدينة المنورة - ص.ب ٦٨٨ ت: ٨٤٧٣١٤٨	محمد بن عبدالله الغامدي مجلدان
عودة الحجاب(مترجم إلى الإنكليزية)	محمد أحمد اسماعيل المقدم	دار البخاري	المترجم: الدكتور صالح الصالح
تفسير أبي المظفر السمعاني	أبو المظفر السمعاني	دار البخاري	الدكتور الشنقيطي صدر منه مجلدان
الاستذكار	ابن عبد البر القرطبي	دار الوعي بحلب	الدكتور قلعجي ثلاثون مجلداً

اسم الكتاب	المؤلف	دار النشر	المحقق وحجم الكتاب
بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم اتحاف القاري باختصار فتح الباري	جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه يسري السيد محمد الحافظ ابن حجر العسقلاني	دار ابن الجوزي السعودية - الدمام ص.ب٢٩٨٢ ت:٢٤٢٨١٤٦	خمسة مجلدات أبو صعيب صفاء الضوي أحمد العدوي
سؤالات ابي داود للإمام أحمد	ابو داود - الإمام أحمد	مكتبة العلوم والحكم	د. زياد محمد منصور - مجلد
النقد الصريح لاجوبة الحافظ ابن حجر عن أحاديث المصابيح	عمرو عبدالمنعم	مكتبة ابن تيمية القاهرة ت:٥٦٤٢٤٠	رسالة في (١٤٠) صفحة.
التراجم الساقطة من الكامل لابن عدي	عبدالله بن عدي المعروف بابن القطان ت: ٣٦٥	مكتبة ابن تيمية	ابو الفضل عبد المحسن الحسيني رسالة في (١٥٢) صفحة
الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي	ابو الحسن علي بن محمد الماوردي	مكتبة دار الباز مكة المكرمة	علي محمد معوض وعادل احمد عبدالموجود ثمانية عشر مجلداً
موسوعة رجال الكتب التسعة	عبدالغفار سليمان البذاري وسيد كسروي	مكتبة دار الباز مكة المكرمة	أربع مجلدات
الافادة من مفتاح دار السعادة	ابن القيم الجوزية	مكتبة الصحابة السعودية - جدة	سليم الهلالي مجلدان
المنتقى من فتاوى الفوزان	انتقاء - عادل القريدان	دار الهجرة - السعودية - الخبر - ص.ب: ٢٠٥٩٧	ثلاثة مجلدات

كتابخانه تخصصي دار الحديث
٣٦٤١١

اسم الكتاب	المؤلف	دار النشر	المحقق وحجم الكتاب
التتمات لبعض مسائل الصلاة (حول اربعة عشر	د. محمد عمر بازمول	دار الهجرة	
مسالة خلافية) صفات الله عز وجل الواردة	علوي السقاف	دار الهجرة	مجلد
في الكتاب والسنة المستدرك على تحفة الاشراف	ابو الاشبال صغير	دار الهجرة	
القواعد الكلية للأسماء	احمد د. إبراهيم بن محمد	دار الهجرة	مجلد
والصفات عند السلف تحقيق الكلام في وجوب	البريكان المباركفوري	دار الهجرة	وصي الله
القراءة خلف الإمام الغاز فقهية	اعداد محمد	دار الهجرة	عباس (مجلد) جزء واحد .
مسائل من فقه الكتاب والسنة	عبدالرحمن العريفي د. عمر سليمان الأشقر	دار النفائس - عمان الأردن ص.ب: ٢١١٥١١ فاكس: ٦٩٣٩٤١	(٣٢٢) صفحة
معتقد الإمام ابي الحسن	د. عمر سليمان	تلفون: ٦٩٣٩٤٠ دار النفائس .عمان	
الأشعري أسلمة التعليم في ديار	الأشقر د. عمر سليمان	دار النفائس. عمان	
الإسلام	الأشقر		
فقه الاختلاف	د.عمر سليمان الأشقر	دار النفائس .عمان	
كيف تدخل في الإسلام	د.محمد الأشقر	دار النفائس.عمان	(١٦١) صفحة
(عربي إنكليزي)	ترجمة عبدالوارث سعيد		
بطولات من أرض الإسراء	عوني جدوع العبيدي	دار النفائس .عمان	
بطولات من أرض القفقاس	عوني جدوع العبيدي	دار النفائس. عمان	

